(٣٩) سورة الزمر مكية
وآياتها خمس وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ
فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا
لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

---

## باسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ، لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ .

اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كر الفراء والزجاج : فى رفع ( تنزيل ) وجهين ( أحدهما ) أن يكون قوله ( تنزيل ) مبتدأ وقوله ( من الله العزيز الحكيم ) خبر ( والثانى ) أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب ، فيضمر المبتدأ كقوله (سورة أنزلناها) أى هذه سورة ، قال بعضهم الوجه الأول لوجوه (الأول) أن الإضمار خلاف الأصل ، فلا يصار إليه إلا لضرورة ، ولا ضرورة ههنا ( الثانى ) أنا إذا قلنا ( تنزيل الكتاب من الله ) جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة ، وهي أن تنزيل

الكتاب يكون من الله ، لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر ، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة (الثالث) أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله ، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر ، لأن هذا إشارة إلى السورة ، والسورة ليست نفس التنزيل ، بل السورة منزلة ، فحينئذ يحتاج إلى أن نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا إنه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا ، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق (والجواب) أنا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلا وآيات أخر تدل على كونه منزلا .

أما (الأول) فقوله تعالى ( وإنه لتنزيل رب العالمين ) ، وقال ( تنزيل من حكيم حميد ) وقال ( حم تنزيل من الرحمن الرحيم ) .

وأما (الثانى) فقوله ( إنا نحن نزلنا الذكر ) ، وقال ( وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ) وأنت تعلم أن كونه منزلا أقرب إلى الحقيقة من كونه تنزيلا . فكونه منزلا مجاز أيضاً لأنه إن كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الإنفصال والنزول ، وإن كان المراد منه الحروف والأصوات فهى أعراض لا تقبل الانتقال والنزول ، بل المراد من النزول نزول الملك الذى بلغها إلى الرسول ﷺ .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذى لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادراً على مالا نهاية له والحكيم هو الذى يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة ، وهذا إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، وأنه غنى عن جميع الحاجات إذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى (عزيزاً حكيما) يدل على هذه الصفات الثلاثة ، العلم بجميع المعلومات ، والقدرة على كل الممكنات ، والإستغناء عن كل الحاجات ، فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح ، وإذا كان كذلك فكل مايفعله يكون حكمة وصواباً . إذا ثبت هذا فنقول الإنتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين : ( أحدهما ) أن يعلم أن القرآن كلام الله ، والدليل عليه أنه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقاً ، وثبت بالتواتر أنه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين أن القرآن كلام الله ( والأصل الثانى ) أن الله أراد بهذه الألفاظ المعانى التى هى موضوعة لها ، أم بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لأنه لو لم يرد بها ذلك لكان تلبيساً ، وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا أن الانتفاع بالقرآن لايحصل إلا بعد تسليم هذين الأصلين ، وثبت أنه لاسبيل إلى إثبات هذين الأصلين إلا بإثبات كونه تعالى حكيما ، وثبت أن لاسبيل

إلى إثبات كونه حكيما إلا بالبناء على كونه تعالى عزيزاً ، فلهذا السبب قال ( تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم .

أما قوله تعالى ( إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجماً نجماً على سبيل التدريج ولفظ الإنزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما (والجواب) إن صح الفرق بين التنزيل وبين الإنزال من الوجه الذى ذكرتم فطريق الجمع أن يقال المعنى إنا حكمنا حكما كلياً جزماً بأن يوصل إليك هذا الكتاب ، وهذا هو الإنزال ، ثم أوصلناه نجماً نجماً إليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما المراد من قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق)؟ (والجواب) فيه وجهان ( الأول ) المراد ( أنزلنا الكتاب اليك ) ملتبساً بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما أودعناه فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنواع التكاليف فهو حق وصدق يجب العمل به والمصير إليه ( الثانى ) أن يكون المراد ( إنا أنزلنا إليك الكتاب ) بناء على دليل حق دل على أن الكتاب نازل من عند الله ، وذلك الدليل هو أن الفصحاء عجزوا عن معارضته ، ولو لم يكن معجزاً لما عجزوا عن معارضته .

ثم قال ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى لما بين فى قوله ( إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ) أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب أردف هنا بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكلية ، فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص فهو المراد من قوله تعالى ( فاعبد الله مخلصاً ) ، وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله ( ألا لله الدين الخالص ) لأن قوله ( ألا لله ) يفيد الحصر ، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم فى المذكور وينتفى عن غير المذكور ، واعلم أن العبادة مع الإخلاص لا تعرف حقيقة إلا إذا عرفنا أن العبادة ما هى وأن الإخلاص ما هو وأن الوجوه المنافية للاخلاص ما هى فهذه أمور ثلاثة لابد من البحث عنها :

أما العبادة : فهى فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الآمر به عظيم يجب قبوله .

وأما الإخلاص : فهو أن يكون الداعى له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والإمتثال ، فان حصل منه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعى الى الطاعة راجحاً على الجانب الآخر أو معادلا له أو مرجوحا . وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط ، وأما إذا كان الداعى الى طاعة الله راجحاً على الجانب الآخر فقد اختلفوا فى أنه هل يفيد أم لا ، وقد ذكرنا هذه المسألة مراراً ولفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص ، لأن قوله (فاعبد الله مخلصاً)

صريح فى أنه يجب الإتيان بالعباة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ) وأما بيان الوجوه المنافية للاخلاص فهى الوجوه الداعية للشريك وهى أقسام : ( أحدها ) أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل ( وثانيها ) أن يكون مقصوده من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار ( وثالثها ) أن يأتى بها ويعتقد أن لها تأثيراً فى إيجاب الثواب أو دفع العقاب ( ورابعها ) وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة ، وهذا القول إنما يعتبر على قول المعتزلة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من قال (فاعبد الله مخلصاً له الدين) المراد منه شهادة أن لا إله إلا الله ، واحتجوا بما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا إله إلا الله حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى » وهذا قول من يقول : لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر ، وأما الأكثرون فقالوا الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الأوامر والنواهى ، وهذا هو الأولى لأن قوله ( فاعبد الله ) عام ، وروى أن امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها أوصت أن يصلى الحسن البصرى عليها ، فلما صلى عليها ودفنت ، قال للفرزدق يا أبا فراس ماالذى أعددت لهذا الأمر؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله . فقال الحسن رضى الله عنه هذا العمود فأين الطنب ؟ فبين بهذا أن عمود الخيمة لا ينتفع به إلا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة ، قال القاضى فأما ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبى الدرداء « وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى الدرداء » فإن صح فإنه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة وإلا لم يجز قبول هذا الخبر لأنه مخالف للقرآن ، ولأنه يوجب أن لا يكون الإنسان مزجوراً عن الزنا والسرقة ، وأن لا يكون متعدياً بفعلهما لأنه مع شدة شهوته للقبيح يعلم أنه لا يضره مع تمسكه بالشهادتين فكأن ذلك إغراء بالقبيح والكل ينافى حكمة الله تعالى ولا يلزم أن يقال ذلك فالقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب أيضاً الإغراء بالقبيح ، لأنا نقول إن من اعتقد أن ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد أن فعل القبيح مضرة إلا أنه يزيل ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول إن فعل القبيح لا يضر مع التمسك بالشهادتين . هذا تمام كلام القاضى . فيقال له : أما قولك إن القول بالمغفرة مخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى ( إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ) وقال ( وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ) أى حال ظلمهم كما يقال رأيت الأمير على أكله وشربه أى حال كونه آكلا وشارباً . وقال ( ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ) ، وأما قوله إن ذلك يوجب الإغراء بالقبيح ، فيقال له إن كان الأمر كذلك وجب أن يقبح غفرانه عقلا ، وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة ، وأنت لا تقول به ، لأن مذهب البصريين أن عذاب المذنب جائز عقلا ، وأيضاً فيلزم عليه أن لا يحصل الغفران بالتوبة ، لأنه إذا علم أنه إذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم يتزجر وأما

الفرق الذى ذكره القاضى فبعيد ، لأنه إذا عزم على أن يتوب عنه فى الحال علم أنه لا يضره ذلك الذنب البتة . ثم نقول مذهبنا أنا نقطع بحصول العفو عن الكبائر فى الجملة ، فأما فى حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لأنه تعالى قال ( ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ) فقطع بحصول المغفرة فى الجملة ، إلا أنه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران فى حق كل أحد بل فى حق من شاء وإذا كان كذلك كان الخوف حاصلا فلا يكون الإغراء حاصلا والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء الدين بالرفع ، ثم قال وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام لقوله تعالى ( وأخلصوا دينهم لله ) حتى يطابق قوله ( ألا لله الدين الخالص ) والخالص والمخلص واحد إلا أنه وصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازى كقولهم شعر شاعر ، واعلم أنه تعالى لما بين أن رأس العبادات ورئيسها الإخلاص فى التوحيد أردفه بذم طريقة المشركين فقال ( والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ) وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وعلى هذا التقدير فخبر الذين محذوف وهو قوله يقولون ، واعلم أن الضمير فى قوله ( ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ) عائد على الأشياء التى عبدت من دون الله . وهى قسمان العقلاء وغير العقلاء ، أما العقلاء فهو أن قوماً عبدوا المسيح وعزيراً والملائكة ، وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة ، وأما الأشياء التى عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهى الأصنام ، إذا عرفت هذا فنقول الكلام الذى ذكره الكفار لائق بالعقلاء ، أما بغير العقلاء فلا يليق ، وبيانه من وجهين (الأول) أن الضمير فى قوله ( مانعبدهم ) ضمير للعقلاء فلا يليق بالأصنام ( الثانى ) أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار فى المسيح والعزيز والملائكة أن يشفعوا لهم عند الله ، أما يبعد من العاقل أن يعتقد فى الأصنام والجمادات أنها تقربه إلى الله ، وعلى هذا التقدير فمرادهم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله ، ويمكن أن يقال إن العاقل لا يعبد الصنم من حيث إنه خشب أو حجر ، وإنما يعبدونه لاعتقادهم أنها تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية ، أو تماثيل الانبياء والصالحين الذين مضوا ، ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى تلك الأشياء التى جعلوا هذه التماثيل صوراً لها .

وحاصل الكلام لعباد الأصنام أن قالوا إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية ، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر ، فهذا هو المراد من قولهم ( ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ) .

واعلم أن الله تعالى لما حكى مذاهبهم أجاب عنها من وجوه : ( الأول ) أنه اقتصر فى الجواب على مجرد التهديد فقال ( إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ) واعلم أن الرجل المبطل إذا ذكر مذهباً باطلا وكان مصراً عليه ، فالطريق فى علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الإصرار عن

قلبه ، فإذا زال الإصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه ، فيكون هذا الطريق أفضى إلى المقصود . والأطباء يقولون لابد من تقديم المنضج على سقى المسهل فان بتناول المنضج تصير المواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال ، فاذا سقيته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام ، فكذلك ههنا سماع التهديد والتخويف أولا يجرى مجرى سقى المنضج أولا ، وإسماع الدليل ثانياً يجرى مجرى سقى المسهل ثانياً . فهذا هو الفائدة فى تقديم هذا التهديد .

ثم قال تعالى ( إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ) والمراد أن من أصر على الكذب والكفر بقى محروماً عن الهداية ، والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الأصنام بأنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها ، والعلم الضرورى حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض ، وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع إلى الإعتقاد ، والأمر ههنا كذلك فإن وصفهم لها بالإلهية كذب ، واعتقادهم فيها بالإلهية جهل وكفر . ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة ، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام ، وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الأوثان لا مدخل لها فى ذلك الإنعام فالإشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق .

ثم قال تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) والمراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهاً عن الولد وبيانه من وجوه (الأول) أنه لو اتخذ ولداً لما رضى إلا بأكمل الأولاد وهو الإبن فكيف نسبتم إليه البنت (الثانى) أنه سبحانه واحد حقيقى والواحد الحقيقى يمتنع أن يكون له ولد ، أما أنه واحد حقيقى فلأنه لو كان مركباً لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره ، فكان يحتاج إلى غيره والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته ، وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلوجوه (الأول) أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه ، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد . وهذا إنما يعقل فى الشيء الذى ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه ( الثانى ) شرط الولد أن يكون مماثلا فى تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين ، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد ، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلولا بسبب منفصل ، فلا يكون إلهاً واجب الوجود لذاته . فثبت أن كونه إلهاً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً فى حقيقته ، وكونه واحداً فى حقيقته يمنع من ثبوت الولد له ، فثبت أن كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد (الثالث) أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لابد وأن يكونا من جنس واحد ، فلو كان له ولد لما كان واحداً بل كانت زوجته من جنسه ، وأما أن كونه قهاراً يمنع من ثبوت الولد له ، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذى يموت فيحتاج

خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ
عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّٰرُ
(٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ
أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ
اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
الصُّدُورِ (٧)

---

إلى ولد يقوم مقامه، فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهوراً بالموت، أما الذي يكون قاهراً ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالا، فثبت أن قوله (هو الله الواحد القهار) ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى.

**قوله تعالى:** ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار، خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون، إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون، إنه عليم بذات الصدور ﴾

اعلم أن الآية المتقدمة دلت على أنه تعالى بين كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً وقهاراً غالباً أي كامل القدرة، فلما بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقيبها ما يدل على كمال القدرة وعلى كمال الاستغناء، وأيضاً فانه تعالى طعن في إلهية الأصنام فذكر عقيبها الصفات التي باعتبارها تحصل الإلهية، واعلم أنا بينا في مواضع من هذا الكتاب أن الدلائل التي ذكرها الله تعالى في

إثبات إلهيته ، إما أن تكون فلكية أو عنصرية ، أما الفلكية فأقسام (أحدها) خلق السموات والأرض ، وهذا المعنى يدل على وجود الإله القادر من وجوه كثيرة شرحناها فى تفسير قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) و (الثانى) اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد ههنا من قوله (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وذلك لأن النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان ، وفى كل يوم يغلب هذا ذاك تارة ، وذاك هذا أخرى . وذلك يدل على أن كل واحد منهما مغلوب مقهور ، ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى ، والمراد من هذا التكوير أنه يزيد فى كل واحد منهما بقدر ما ينقص عن الآخر ، والمراد من تكوير الليل والنهار ماورد فى الحديث « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أى من الإدبار بعد الإقبال ، واعلم أنه سبحانه وتعالى عبر عن هذا المعنى بقوله (يكور الليل على النهار) وبقوله (يغشى الليل النهار) وبقوله (يولج الليل فى النهار) وبقوله (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر) و (الثالث) اعتبار أحوال الكواكب لاسيما الشمس والقمر ، فان الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ، وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله (كل يجرى لأجل مسمى) الأجل المسمى يوم القيامة ، لايزالان يجريان إلى هذا اليوم فاذا كان يوم القيامة ذهبا ، ونظيره قوله تعالى (وجمع الشمس والقمر) والمراد من هذا التسخير أن هذه الأفلاك تدور كدوران المنجنون على حد واحد إلى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطى السجل للكتب .

ولما ذكر الله هذه الأنواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال (ألا هو العزيز الغفار) والمعنى أن خلق هذه الأجرام العظيمة وإن دل على كونه عزيزاً أى كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان ، فانه لما كان الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة فكونه غفاراً يوجب كثرة الرحمة ، وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة ، ثم إنه تعالى أتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الأسفل ، فبدأ بذكر الإنسان فقال (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) ودلالة تكون الإنسان على الإله المختار قد سبق بيانها مراراً كثيرة ، فان قيل كيف جاز أن يقول (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) والزوج مخلوق قبل خلقهم ؟ أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن كلمة ثم كما تجىء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية . فكذلك تجىء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر ، كقول القائل بلغنى ماصنعت اليوم ، ثم ماصنعت أمس كان أعجب ، ويقول أيضاً قد أعطيتك اليوم شيئاً ، ثم الذى أعطيتك أمس أكثر (الثانى) أن يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها (الثالث) أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع ذكر عقيبه الاستدلال

بوجود الحيوان عليه فقال (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهى الإبل والبقر والضأن والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع فى قوله ( والأنعام خلقها لكم فيها دفء ) وفى تفسير قوله تعالى ( وأنزل لكم ) وجوه : ( الأول ) أن قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لأجل أنه كتب فى اللوح المحفوظ كل كائن يكون ( الثانى ) أن شيئاً من الحيوان لا يعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء والتراب ، والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها ( الثالث ) أنه تعالى خلقها فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض وقوله ( ثمانية أزواج ) أى ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز ، والزوج اسم لكل واحد معه آخر ، فاذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى ( فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ) .

ثم قال تعالى ( يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ) وفيه إبحاث :

﴿ الأول ﴾ قرأ حمزة بكسر الألف والميم ، والكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم ، والباقون أمهاتكم بضم الألف وفتح الميم .

﴿ الثانى ﴾ أنه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام أردفه بتخليق الأنعام ، وإنما خصها بالذكر لأنها أشرف الحيوانات بعد الإنسان ، ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الإنسان وبين الأنعام وهى كونها مخلوقة فى بطون أمهاتهم وقوله ( خلقاً من بعد خلق ) المراد منه ما ذكره الله تعالى فى قوله ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ) وقوله ( فى ظلمات ثلاث ) قيل الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه فى قوله ( هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ) .

واعلم أنه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال ( ذلكم الله ربكم ) أى ذلكم الشىء الذى عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم ، وفى هذه الآية دلالة على كونه سبحانه وتعالى منزهاً عن الأجزاء والأعضاء وعلى كونه منزهاً عن الجسمية والمكانية ، وذلك أنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر إلا كونه فاعلا لهذه الأشياء ، ولوكان جسما مركباً من الأعضاء لكان تعريفه بتلك الأجزاء والأعضاء تعريفاً للشىء بأجزاء حقيقته ، وأما تعريفه بأحواله وأفعاله وآثاره فذلك تعريف له بأمور خارجة عن ذاته . والتعريف الأول أكمل من الثانى ، ولو كان ذلك القسم ممكناً لكان الاكتفاء بهذا القسم الثانى تقصيراً ونقصاً وذلك غير جائز ، فعلمنا أن الاكتفاء بهذا القسم إنما حسن لأن القسم الأول محال ممتنع الوجود ، وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعالياً عن الجسمية والأعضاء والأجزاء .

ثم قال تعالى ( له الملك ) وهذا يفيد الحصر أى له الملك لا لغيره ، ولما ثبت أنه لا ملك

إلا له وجب القول بأنه لا إله إلا هو لأنه لو ثبت إله آخر ، فذلك الإله إما أن يكون له الملك أو لا يكون له الملك ، فان كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكا قادراً ويجرى بينهما التمانع كما ثبت فى قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وذلك محال ، وإن لم يكن للثانى شىء من القدرة والملك فيكون ناقصاً ولا يصلح للالهية ، فثبت أنه لما دل الدليل على أنه لا ملك إلا الله ، وجب أن يقال لا إله للعالمين ولا معبود للخلق أجمعين إلا الله الأحد الحق الصمد ، ثم اعلم أنه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته ، رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه : ( الأول ) قوله ( فأنى تصرفون ) يحتج به أصحابنا ويحتج به المعتزلة . أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية : أنها صريحة فى أنهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم ، وما ذاك الغير إلا الله ، وأيضاً فدليل العقل يقوى ذلك لأن كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب ، فلما لم يحصل ذلك وإنما حصل الجهل والضلال علمنا أنه من غيره لا منه ، وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم : أن قوله ( فأنى تصرفون ) تعجب من هذا الانصراف ، ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب معنى .

ثم قال تعالى ( إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ) والمعنى أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة ، وذلك لأنه تعالى غنى على الاطلاق ، ويمتنع فى حقه جر المنفعة ودفع المضرة ، وإنما قلنا إنه غنى لوجوه : ( الأول ) أنه واجب الوجود لذاته وواجب الوجود فى جميع صفاته ، ومن كان كذلك كان غنياً على الإطلاق ( الثانى ) أنه لو كان محتاجاً لكانت تلك الحاجة إما قديمة وإما حادثة . والأول باطل وإلا لزم أن يخلق فى الأزل ما كان محتاجاً إليه وذلك محال ، لأن الخلق والأزل متناقض . والثانى باطل لأن الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعى إلى تحصيل النقصان لنفسه (الثالث) هب أنه يبقى الشك فى أنه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا ؟ أما من المعلوم بالضرورة أن الإله القادر على خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسى والعناصر الأربعة ، والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو ، وأن يضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك ، فثبت بما ذكرنا أن جميع العالمين لو كفروا وأصروا على الجهل فإن الله غنى عنهم .

ثم قال تعالى بعده ( ولا يرضى لعباده الكفر ) يعنى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفران إلا أنه لا يرضى بالكفر ، واحتج الجبائى بهذه الآية من وجهين : ( الأول ) أن المجبرة يقولون إن الله تعالى خلق كفر العباد وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب ، قال ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضى الكفر من الوجه الذى خلقه ، وذلك ضد الآية ( الثانى ) لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الله وليس أيضا برضاء الله تعالى ، وأجاب

الأصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه (الأول) أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين . قال الله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) وقال (عيناً يشرب بها عباد الله) وقال (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) فعلى هذا التقدير قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) ولا يرضى للمؤمنين الكفر ، وذلك لا يضرنا (الثاني) أنا نقول الكفر بإرادة الله تعالى ولا نقول إنه يرضا الله لأن الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله ، قال الله تعالى (لقد رضي الله عن المؤمنين) أي يمدحهم ويثني عليهم (الثالث) كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول : الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض ، وليس عبارة عن الإرادة ، والدليل عليه قول ابن دريد :

رضيت قسراً وعلى القسر رضا　　　من كان ذا سخط على صرف القضا

أثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ما قلناه و (الرابع) هب أن الرضا هو الإرادة إلا أن قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) عام ، فتخصيصه بالآيات الدالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) والله أعلم .

ثم قال تعالى (وإن تشكروا يرضه لكم) والمراد أنه لما بين أنه لا يرضى الكفر بين أنه يرضى الشكر ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلف القراء في هاء (يرضه) على ثلاثة أوجه (أحدها) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلسة غير متبعة (وثانيها) قرأ أبو عمرو وحمزة في بعض الروايات يرضه ساكنة الهاء للتخفيف (وثالثها) قرأ نافع في بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائي مضمومة الهاء مشبعة ، قال الواحدي رحمه الله من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واواً ، لأن ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله ، فكما أن هذا مشبع عند الجميع كذلك يرضه ، ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو ، لأن الأصل يرضاه والألف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية ، ومع بقاء الألف لا يجوز إثبات الواو فكذا ههنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل (أما القول) فهو الإقرار بحصول النعمة (وأما الاعتقاد) فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم .

ثم قال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) قال الجبائي هذا يدل على أنه تعالى لا يعذب أحداً على فعل غيره ، فلو فعل الله كفرهم لما جاز أن يعذبهم عليه ، وأيضاً لا يجوز أن يعذب الأولاد بذنوب الآباء ، بخلاف ما يقول القوم . واحتج أيضاً من أنكر وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية .

ثم قال تعالى (ثم إلى ربكم مرجعكم) واعلم أنا ذكرنا كثيراً أن أهم المطالب للانسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان ، وأن يعرف ما يضره وما ينفعه في هذه الحياة الدنيوية ، وأن يعرف أحواله بعد الموت ، ففي هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الأعلى والعالم الأسفل على كمال

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾

---

قدرة الصانع وعلمه وحكمته، ثم أتبعه بأن أمره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين أحواله بعد الموت بقوله (ثم إلى ربكم مرجعكم) وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ المشبهة تمسكوا بلفظ إلى على أن إله العالم فى جهة وقد أجبنا عنه مراراً.

﴿ المسألة الثانية ﴾ زعم القوم أن هذه الأرواح كانت قبل الأجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود فى هذه الآية وفى سائر الآيات.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت هذه الآية على إثبات البعث والقيامة.

ثم قال (فينبئكم بما كنتم تعلمون) وهذا تهديد للعاصى وبشارة للمطيع، وقوله تعالى (إنه عليم بذات الصدور) كالعلة لما سبق، يعنى أنه يمكنه أن ينبئكم بأعمالكم، لأنه عالم بجميع المعلومات، فيعلم ما فى قلوبكم من الدواعى والصوارف. وقال ﷺ «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أقوالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

قوله تعالى: ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار، أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾

اعلم أن الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين أن الله تعالى هو الذى يجب أن يعبد، بين فى هذه الآية أن طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام متناقضة وذلك لأنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا فى طلب دفعه إلا إلى الله، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضر، لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك فى بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا

به فى كل الأحوال فثبت أن طريقتهم فى هذا الباب متناقضة .

أما قوله تعالى ( وإذا مس الإنسان ) فقيل المراد بالإنسان أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره ، وقيل المراد به الكافر الذى تقدم ذكره ، لأن الكلام يخرج على معهود تقدم .

وأما قوله ( ضر ) فيدخل فيه جميع المكاره سواء كان فى جسمه أو فى ماله أو أهله وولده ، لأن اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد ( ودعا ربه ) أى استجار بربه وناداه ولم يؤمل فى كشف الضر سواه ، فلذلك قال ( منيباً إليه ) أى راجعاً إليه وحده فى إزالة ذلك الضر لأن الإنابة هى الرجوع ( ثم إذا خوله نعمة منه ) أى أعطاه ، قال صاحب الكشاف :وفى حقيقته وجهان (أحدهما) جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال ، إذا كان متعهداً له حسن القيام به ومنه ماروى عن رسول الله ﷺ «أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة» (والثانى) جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر ، وفى المعنى قالت العرب :

إن الغنى طويل الذيل مياس

ثم قال تعالى ( نسى ماكان يدعو إليه من قبل ) أى نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ويبتهل إليه ، وما بمعنى من كقوله تعالى ( وما خلق الذكر والأنثى ) وقوله تعالى ( ولا أنتم عابدون ما أعبد ) وقوله تعالى ( فانكحوا ما طاب لكم من النساء ) وقيل نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى كشفه والمراد من قوله نسى أى ترك دعاءه كأنه لم يفزع إلى ربه ، ولو أراد به النسيان الحقيقى لما ذمه عليه ، ويحتمل أن يكون المراد أنه نسى أن لا يفزع ، وأن لا إله سواه فعاد إلى اتخاذ الشركاء مع الله .

قوله تعالى : ﴿ وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بفتح الياء والباقون ليضل بضم الياء على معنى ليضل غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد أنه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين ، فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع إلى ما سواه وعند النعمة يعودون إلى اتخاذ آلهة معه . ومعلوم أنه تعالى إذا كان إنما يفزع إليه فى حال الضر لأجل أنه هو القادر على الخير والشر ، وهذا المعنى باق فى حال الراحة والفراغ كان فى تقرير حالهم فى هذين الوقتين مايوجب المناقضة وقلة العقل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ معنى قوله ( ليضل عن سبيله ) أنه لايقتصر فى ذلك على أن يضل نفسه بل يدعو غيره إما بفعله أو قوله إلى أن يشاركه فى ذلك ، فيزداد إثماً على إثمه ، واللام فى قوله ( ليضل ) لام العاقبة كقوله ( فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ) ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال ( قل تمتع بكفرك قليلا ) وليس المراد منه الأمر بل

الزجر ، وأن يعرفه قلة تمتعه فى الدنيا ، ثم يكون مصيره إلى النار .

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين ، ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح أحوال المحقين الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله ولا اعتماد لهم إلا على فضل الله ، فقال ( أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة ( أمن ) مخففة الميم والباقون بالتشديد ، أما التخفيف ففيه وجهان ( الأول ) أن الألف ألف الاستفهام داخلة على من ، والجواب محذوف على تقدير كمن ليس كذلك ، وقيل كالذى جعل لله أنداداً فاكتفى بما سبق ذكره ( والثانى ) أن يكون ألف نداء كأنه قيل يامن هو قانت من أهل الجنة ، وأما التشديد فقال الفراء الأصل أم من فأدغمت الميم فى الميم وعلى هذا القول هى أم التى فى قولك أزيد أفضل أم عمرو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «أفضل الصلاة صلاة القنوت» وهو القيام فيها . ومنه القنوت فى الصبح لأنه يدعو قائماً . عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا ( أمن هو قانت ) وعن ابن عباس القنوت طاعة الله ، لقوله ( كل له قانتون ) أى مطيعون ، وعن قتادة ( آناء الليل ) ساعات الليل أوله ووسطه وآخره ، وفى هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وأنه أرجح من قيام النهار ، ويؤكده وجوه ( الأول ) أن عبادة الليل أستر عن العيون فتكون أبعد عن الرياء ( الثانى ) أن الظلمة تمنع من الإبصار ونوم الخلق يمنع من السماع ، فاذا صار القلب فارغا عن الاشتغال بالأحوال الخارجية عاد إلى المطلوب الأصلى ، وهو معرفة الله وخدمته ( الثالث ) أن الليل وقت النوم فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر ( الرابع ) قوله تعالى ( إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا ) وقوله ( ساجداً ) حال ، وقرىء ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين .

واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فكونه قانتاً ساجداً قائماً ، وأما العلم فقوله ( هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ) وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور فى هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظباً عليه ، فان القنوت عبارة عن كون الرجل قائماً بما يجب عليه من الطاعات ، وذلك يدل على أن العمل إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان ، وقوله ( ساجداً وقائماً ) إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله ( يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ) إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له فى الأول مقام القهر وهو قوله ( يحذر الآخرة ) ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله ( ويرجو رحمة ربه ) ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله ( هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون )

قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أنه قال فى مقام الخوف ( يحذر الآخرة ). فما أضاف الحذر إلى نفسه ، وفى مقام الرجاء أضافه إلى نفسه ، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل المراد من قوله ( أمن هو قانت آناء الليل ) عثمان لأنه كان يحيي الليل فى ركعة واحدة ويقرأ القرآن فى ركعة واحدة . والصحيح أن المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة فيدخل فيه عثمان وغيره لأن الآية غير مقتصرة عليه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لاشبهة فى أن فى الكلام حذفاً ، والتقدير أمن هو قانت كغيره ، وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها ( قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ) وتقدير الآية قل هل يستوى الذين يعلمون وهم الذين صفتهم أنهم يقنتون آناء الليل سجداً وقياماً ، والذين لايعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون ، فإذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وإنما وصف الله الكفار بأنهم لايعلمون ، لأنهم وإن آتاهم الله آلة العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم ، فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولى الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم .

وأما قوله تعالى ( قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ) فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم ، وقد بالغنا فى تقرير هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى ( وعلم آدم الأسماء كلها ) قال صاحب الكشاف أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون ، وبالذين لايعلمون الذين لايأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء ، وهو تنبيه على أن من يعمل فهو غير عالم ، ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لايقنتون ، ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عندالله جهلة .

ثم قال تعالى ( إنما يتذكر أولوا الألباب ) يعنى هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لايعرفه أيضاً إلا أولوا الألباب ، قيل لبعض العلماء : إنكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك ، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء ، فأجاب العالم بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا مافى المال من المنافع فطلبوه ، والجهال لم يعرفوا ما فى العلم من المنافع فلا جرم تركوه .

قوله تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ، قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً

ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

---

له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصاً له دينى ، فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، لهم من فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده ياعبادى فاتقون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين نفى المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم ، أتبعه بأن أمر رسوله بأن يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام :

﴿ النوع الأول ﴾ قوله ( قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم ) والمراد أن الله تعالى أمر المؤمنين بأن يضموا إلى الإيمان التقوى ، وهذا من أول الدلائل على أن الإيمان يبقى مع المعصية ، قال القاضى أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم . لأن عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب وبالإقدام عليها يحبط ، فيقال له هذا بأن يدل على ضد قولك أولى ، لأنه لما أمر المؤمنين بالتقوى دل ذلك على أنه يبقى مؤمناً مع عدم التقوى ، وذلك يدل على أن الفسق لا يزيل الإيمان .

واعلم أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالاتقاء بين لهم ما فى هذا الاتقاء من الفوائد ، فقال تعالى (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) فقوله (فى هذه الدنيا) يحتمل أن يكون صلة لقوله (أحسنوا) أو لحسنة . فعلى التقدير الأول معناه للذين أحسنوا فى هذه الدنيا لهم حسنة فى الآخرة ، وهى دخول الجنة ، والتنكير فى قوله ( حسنة ) للتعظيم يعنى حسنة لا يصل العقل إلى كنه كمالها . وأما على ( التقدير الثانى ) فمعناه الذين أحسنوا فلهم فى هذه الدنيا حسنة ، والقائلون بهذا القول قالوا هذه الحسنة هى الصحة والعافية ، وأقول الأولى أن تحمل على الثلاثة المذكورة فى قوله ﷺ «ثلاثة ليس لها نهاية : الأمن والصحة والكفاية» ومن الناس من قال القول الأول أولى ويدل عليه وجوه (الأول) أن التنكير فى قوله (حسنة) يدل على النهاية والجلالة والرفعة ، وذلك لا يليق

بأحوال الدنيا ، فإنها خسيسة ومنقطعة ، وإنما يليق بأحوال الآخرة ، فإنها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض (والثانى) أن ثواب المحسن بالتوحيد والأعمال الصالحة إنما يحصل فى الآخرة قال تعالى ( اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ) وأيضاً فنعمة الدنيا من الصحة والأمن والكفاية حاصلة للكفار ، وأيضاً لحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها للمؤمن ، كما قال ﷺ « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » وقال تعالى ( لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ) . (الثالث) أن قوله (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) يفيد الحصر ، بمعنى أنه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لا تحصل إلا للذين أحسنوا ، وهذا باطل . أما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر ، فكأن حمله على حسنة الآخرة أولى ، ثم قال الله تعالى ( وأرض الله واسعة ) وفيه قولان ( الأول ) المراد أنه لا عذر البتة للمقصرين فى الإحسان ، حتى إنهم إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان وصرف الهمم إليه ، قل لهم فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة ، فتحولوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات ، واقتدوا بالأنبياء والصالحين فى مهاجرتهم إلى غير بلادهم ، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم ، وطاعة إلى طاعتهم ، والمقصود منه الترغيب فى الهجرة من مكة إلى المدينة والصبر على مفارقة الوطن ، ونظيره قوله تعالى ( قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) و(القول الثانى) قال أبو مسلم : لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة ، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهى خشية الله ، ثم بين أن من اتقى فله فى الآخرة الحسنة ، وهى الخلود فى الجنة ، ثم بين أن أرض الله ، أى جنته واسعة ، لقوله تعالى ( نتبوأ من الجنة حيث نشاء) وقوله تعالى(وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ) والقول الأول عندى أولى ، لأن قوله( إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ) لا يليق إلا بالأول ، وفى هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أما تحقيق الكلام فى ماهية الصبر ، فقد ذكرناه فى سورة البقرة ، والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم ، وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا فى طاعة الله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تسمية المنافع التى وعد الله بها على الصبر بالأجر توهم أن العمل على الثواب ، لأن الأجر هو المستحق ، إلا أنه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس عليه الثواب ، فوجب حمل لفظ الأجر على كونه أجراً بحسب الوعد ، لا بحسب الاستحقاق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى وصف ذلك الأجر بأنه بغير حساب ، وفيه وجوه ( الأول ) قال الجبائى : المعنى أنهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلا فهو بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا المستحق لكان ذلك حساباً ، قال القاضى هذا ليس بصحيح ، لأن الله تعالى وصف الأجر

بأنه بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا الأجر المستحق ، والأجر غير التفضل (الثاني) أن الثواب له صفات ثلاثة (أحدها) أنها تكون دائمة الأجر لهم . وقوله (بغير حساب) معناه بغير نهاية ، لأن كل شيء دخل تحت الحساب فهو متناه ، فما لا نهاية له كان خارجاً عن الحساب (وثانيها) أنها تكون منافع كاملة فى أنفسها ، وعقل المطيع ما كان يصل إلى كنه ذلك الثواب ، قال ﷺ « إن فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه ، وما لا يتوقعه الإنسان ، فقد يقال إنه ليس فى حسابه ، فقوله (بغير حساب) محمول على هذا المعنى (والوجه الثالث) فى التأويل أن ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال ، روى صاحب الكشاف عن النبي ﷺ أنه قال « ينصب الله الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صباً » قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل .

﴿ النوع الثانى ﴾ من البيانات أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) قال مقاتل : إن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ ما يحملك على هذا الدين الذى أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى ! فأنزل الله ، قل يا محمد إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأقول إن التكليف نوعان (أحدهما) الأمر بالاحتراز عما لا ينبغى (والثانى) الأمر بتحصيل ما ينبغى ، والمرتبة الأولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة ، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قدم الأمر بإزالة ما لا ينبغى فقال (اتقوا ربكم) لأن التقوى هى الإحتراز عما لا ينبغى ثم ذكر عقيبه الأمر بتحصيل ما ينبغى فقال (إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وهذا يشتمل على قيدين : (أحدهما) الأمر بعبادة الله (الثانى) كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلى وشوائب الشرك الخفى ، وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير ، وقوله تعالى (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) لا شبهة فى أن المراد إنى أول من تمسك بالعبادات التى أرسلت بها ، وفى هذه الآية فائدتان :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ كأنه يقول إنى لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك ، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعاً فيه وأكثرهم مداومة عليه .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أنه قال (إنى أمرت أن أعبد الله) والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح ، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح ، فقدم ذكر الجزء الأشرف وهو قوله (مخلصاً له الدين) ثم ذكر عقيبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم

فسر الإسلام فى خبر جبريل عليه السلام بالأعمال الظاهرة ، وهو المراد بقوله فى هذه الآية (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) وليس لقائل أن يقول ما الفائدة فى تكرير لفظ (أمرت) لأنا نقول ذكر لفظ ( أمرت ) أولا فى عمل القلب وثانياً فى عمل الجوارح ولا يكون هذا تكريراً .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ فى قوله ( وأمرت لأن أكون أول المسلمين ) التنبيه على كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة ، لأن أول المسلمين فى شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله ، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ ، ولما بين الله تعالى أمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال المخصوصة ، وكان الأمر يحتمل الوجوب ويحتمل الندب بين أن ذلك الأمر للوجوب فقال ( قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ) وفيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن الله أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجرى هذا الكلام على نفسه ، والمقصود منه المبالغة فى زجر الغير عن المعاصى ، لأنه مع جلالة قدره وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفاً حذراً عن المعاصى فغيره بذلك أولى .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ دلت الآية على أن المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب ، وهذا يطابق قولنا إن الله تعالى قد يعفو عن المذنب والكبيرة ، فيكون اللازم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لا نفس حصول العقاب .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ دلت هذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب ، وذلك لأنه قال فى أول الآية ( إنى أمرت أن أعبد الله ) ثم قال بعده ( قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ) فيكون معنى هذا العصيان ترك الأمر الذى تقدم ذكره ، وذلك يقتضى أن يكون تارك الأمر عاصياً ، والعاصى يترتب عليه الخوف من العقاب ، ولا معنى للوجوب إلا ذلك .

﴿ النوع الثالث ﴾ من الأشياء التى أمر الله رسوله أن يذكرها قوله ( قل الله أعبد مخلصاً له دينى ) فان قيل ما معنى التكرير فى قوله ( قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وقوله ( قل الله أعبد مخلصاً له دينى) ؟، قلنا هذا ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة ، والثانى إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحداً غير الله ، وذلك لأن قوله ( أمرت أن أعبد الله ) لا يفيد الحصر وقوله تعالى ( قل الله أعبد ) يفيد الحصر يعنى الله أعبد ولا أعبد أحداً سواه ، والدليل عليه أنه لما قال بعد ( قل الله أعبد ) قال بعده (فاعبدوا ما شئتم من دونه ) ولا شبهة فى أن قوله (فاعبدوا ما شئتم من دونه ) ليس أمراً بل المراد منه الزجر ، كأنه يقول لما بلغ البيان فى وجوب رعاية التوحيد إلى الغاية القصوى فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم ، ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله ( قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم ) لوقوعها فى هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه ، وخسروا أهليهم أيضاً لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم . وإن كانوا من أهل الجنة . فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده البتة . وقال ابن عباس : إن لكل رجل

منزلا وأهلا وخدماً فى الجنة . فان أطاع أعطى ذلك ، وإن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين ، والخاسر المغبون ، ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاعة فقال ( ألا ذلك هو الخسران المبين ) كان التكرير لأجل التأكيد ( الثانى ) أنه تعالى ذكر فى أول هذه الكلمة حرف ألا وهو للتنبيه ، وذكر التنبيه فى هذا الموضع يدل على التعظيم كأنه قيل إنه بلغ فى العظمة إلى حيث لا تصل عقولكم إليها فتنبهوا لها ( الثالث ) أن كلمة ( هو ) فى قوله ( هو الخسران المبين ) تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران فإنه يصير فى مقابلته كلا خسران (الرابع) وصفه بكونه (مبيناً) يدل على التهويل ، وأقول قد بينا أن لفظ الآية يدل على كونه (خسراناً مبيناً) فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسراناً مبيناً ، وأقول نفتقر إلى بيان أمرين إلى أن يكون خسراناً ثم كونه مبيناً (أما الأول) فتقريره أنه تعالى أعطى هذه الحياة وأعطى العقل ، وأعطى المكنة وكل ذلك رأس المال ، أما هذه الحياة فالمقصود منها أن يكتسب فيها الحياة الطيبة فى الآخرة .

وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هى رأس المال والنظر ، والفكر لا معنى له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلى تحصيل علوم كسبية . فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر فى رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء ، وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح ، وأيضاً حصول القدرة على الأعمال يشبه رأس المال ، واستعمال تلك القوة فى تحصيل أعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر فى رأس المال ، وحصول أعمال الخير والبر يشبه الربح ، إذا ثبت هذا فنقول : إن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ، ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير البتة كان محروماً عن الربح بالكلية ، وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسراناً ، فهذا بيان كونه خسراناً ( وأما الثانى ) وهو بيان كون ذلك الخسران مبيناً فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار . فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضاً مزيد ضرر ، أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التى هى رأس مالهم فى استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات ، واستعملوا قواهم وقدرهم فى أفعال الشر والباطل والفساد ، فهم قد جمعوا بين أمور فى غاية الرداءة ( أولها ) أنهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلباً فى تلك العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة (وثانيها) أنهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة (وثالثها) أن تلك المتاعب الشديدة التى كانت موجودة فى الدنيا فى نصرة تلك الضلالات تصير أسباباً للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت ، وعند الوقوف على هذه المعانى يظهر أنه لا يعقل خسران أقوى من خسرانهم ، ولا حرمان أعظم من حرمانهم ، ونعوذ بالله منه .

ولما شرح الله تعالى أحوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسرانهم ، بين أنهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران ، بل ضموا إليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد . فقال ( لهم من

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب، ونظيره فى الأحوال النفسانية إحاطة الجهل والحرمان والحرص وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان. فان قيل الظلل ماعلى الإنسان فكيف سمى ماتحته بالظلل؟ والجواب من وجوه (الأول) أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ، (الثانى) أن الذى يكون تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته لأن النار دركات كما أن الجنة درجات (والثالث) أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية فى الحرارة والإحراق والإيذاء، أطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة. قال الحسن هم بين طبقتين من النار لايدرون مافوقهم أكثر مما تحتهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقوله تعالى (لهم من جهنم مهاد، ومن فوقهم غواش).

ثم قال تعالى (ذلك يخوف الله به عباده) أى ذلك الذى تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله (ذلك) مبتدأ وقوله (يخوف الله به عباده) خبر. وفى قوله (يخوف الله به عباده) قولان (الأول) التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذى يخوف الله به عباده أى المؤمنين، لأنا بينا أن لفظ العباد فى القرآن مختص بأهل الإيمان وإنما كان تخويفاً للمؤمنين لأجل أنهم إذا سمعوا أن حال الكفار ماتقدم خافوا فأخلصوا فى التوحيد والطاعة (الوجه الثانى) أن هذا الكلام فى تقدير جواب عن سؤال، لأنه يقال إنه تعالى غنى عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الإيذاء، فكيف يليق به أن يعذب هؤلاء المساكين إلى هذا الحد العظيم، وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والضلال عن الكفر والضلال، فاذا كان التكليف لا يتم إلا بالتخويف والتخويف لايكمل الانتفاع به إلا بإدخال ذلك الشىء فى الوجود وجب إدخال ذلك النوع من العذاب فى الوجود تحصيلا لذلك المطلوب الذى هو التكليف، والوجه الأول عندى أقرب، والدليل عليه أنه قال بعده (يا عباد فاتقون) وقوله (يا عباد) الأظهر منه أن المراد منه المؤمنون فكأنه قيل المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين فياأيها المؤمنون بالغوا فى الخوف والحذر والتقوى.

**قوله تعالى :** ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب، أفمن

أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)

حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾ .

اعلم أن الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الأصنام والأوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها واحترز عن الشرك ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد أبداً فيحصل كمال الترغيب والترهيب ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، وفى هذا اللفظ أنواع من المبالغة (أحدها) التسمية بالمصدر كأن عين ذلك الشىء الطغيان (وثانيها) أن البناء بناء المبالغة فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط (وثالثها) ماذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا إنما يصار إليه عند المبالغة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن المراد من الطاغوت ههنا الشيطان أم الأوثان ، فقيل إنه الشيطان فان قيل إنهم ماعبدوا الشيطان وإنما عبدوا الصنم ، قلنا الداعى إلى عبادة الصنم لما كان هو الشيطان كان الإقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان ، وقيل المراد بالطاغوت الصنم وسميت طواغيت على سبيل المجاز لأنه لافعل لها ، والطغاة هم الذين يعبدونها إلا أنه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها ، وصفت بهذه الصفة إطلاقاً لإسم المسبب على السبب بحسب الظاهر ، وقيل كل مايعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت ، ويقال فى التواريخ إن الأصل فى عبادة الأصنام ، أن القوم كانوا مشبهة اعتقدوا فى الإله أنه نور عظيم ، وفى الملائكة أنها أنوار مختلفة فى الصغر والكبر ، فوضعوا تماثيل وصوراً على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقاد أنهم يعبدون الله والملائكة ، وأقول حاصل الكلام فى قوله (والذين اجتنبوا الطاغوت) أى أعرضوا عن عبوديه كل ماسوى الله . قوله تعالى (وأنابوا إلى الله) أى رجعوا بالكلية إلى الله . ورأيت فى السفر الخامس من التوراة ، أن الله تعالى قال لموسى : ياموسى أجب إلهك بكل قلبك . وأقول مادام يبقى فى القلب التفات إلى غير الله فهو ما أجاب إلهه بكل قلبه ، وإنما تحصل الإجابة بكل القلب إذا أعرض القلب عن كل ما سوى الله من باب الطاعات فكيف يعرض عنها مع

أنه بالحس يشاهد الأسباب المفضية إلى المسببات فى هذا العالم ، قلنا ليس المراد من إعراض القلب عنها أن يقضى عليها بالعدم فان ذلك دخول فى السفسطة وهو باطل ، بل المراد أن يعرف أن واجب الوجود لذاته واحد ، وأن كل ما سواه فإنه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكناً لذاته فانه لايوجد إلا بتكوين الواجب وإيجاده ، ثم إنه سبحانه وتعالى جعل تكوينه للأشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة وهى عالم السموات والروحانيات ، ومنها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الأسفل ، فإذا عرفت الأشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله ومن الله وبالله ، وأنه لا مدبر إلا هو ولا مؤثر غيره . وحينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الأول والموجد الأول ، فإنه إن كان قد وضع الأسباب الروحانية والجسمانية بحيث يتأدى إلى هذا المطلوب ، فهذا الشىء يحصل وإن كان قد وضع بحيث لا يفضى إلى حصول هذا الشىء لم يحصل ، وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى فى قلبه التفات إلى شىء إلا إلى الموجود الأول ، وقد اتفق أنى كنت أنصح بعض الصبيان فى حفظ العرض والمال فعارضنى وقال لايجوز الاعتماد على الجد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره . فقلت هذه كلمة حق سمعتها ولكنك ماعرفت معناها . وذلك لأنه لاشبهة أن الكل من الله تعالى إلاأنه سبحانه دبر الأشياء على قسمين منها ما جعل حدوثه وحصوله معلقاً بأسباب معلومة ومنها مايحدثه من غير واسطة هذه الأسباب .

﴿ أما القسم الأول ﴾ فهو حوادث هذا العالم الأسفل .

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ فهو حوادث هذا العالم الأعلى ، وإذا ثبت هذا فنقول من طلب حوادث هذا العالم الأسفل لا من الأسباب التى عينها الله تعالى كان هذا الشخص منازعاً لله فى حكمته مخالفاً فى تدبيره ، فإن الله تعالى حكم بحدوث هذه الأشياء بناء على تلك الأسباب المعينة المعلومة وأنت تريد تحصيلها لا من تلك الأسباب ، فهذا هو الكلام فى تحقيق الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى ( والذين اجتنبوا الطاغوت) إشارة إلى الإعراض عن غير الله وقوله تعالى ( وأنابوا إلى الله ) إشارة إلى الإقبال بالكليةعلى عبادة الله ، ثم إنه تعالى وعد هؤلاء بأشياء ( أحدها ) قوله تعالى ( لهم البشرى ) واعلم أن هذه الكلمة تتعلق بجهات ( أحدها ) أن هذه البشارة متى تحصل ؟ فنقول إنها تحصل عند القرب من الموت وعند الوضع فى القبر وعند الوقوف فى عرصة القيامة وعند ما يصير فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعند ما يدخل المؤمنون الجنة ، ففى كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة والريحان (وثانيها) أن هذه البشارة فبماذا تحصل ؟ فنقول إن هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات ، أما زوال المكروهات فقوله تعالى (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) والخوف إنما يكون من المستقبل والحزن إنما يكون بسبب الأحوال الماضية فقوله ( أن

لا تخافوا ) يعنى لا تخافوا فيما تستقبلونه من أحوال القيامة ولا تحزنوا بسبب ما فاتكم من خيرات الدنيا ، ولما أزال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال ( وأبشروا بالجنة ) وقال أيضاً فى آية أخرى ( يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار ) وقال أيضاً ( وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ) ( والثالث ) أن المبشر من هو ؟ فنقول يحتمل أن يكون هم الملائكة ، إما عند الموت فقوله ( الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ) وإما بعد دخول الجنة فقوله ( الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ) ويحتمل أن يكون هو الله سبحانه كما قال (تحيتهم يوم يلقونه سلام) .

واعلم أن قوله ( لهم البشرى ) فيه أنواع من التأكيدات ( أحدها ) أنه يفيد الحصر فقوله ( لهم البشرى ) أى لهم لا لغيرهم ، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى وأقبل بالكلية على الله تعالى ( وثانيها ) أن الألف واللام فى لفظ البشرى مفيد الماهية فيفيد أن هذه الماهية بتمامها لهؤلاء ، ولم يبق منها نصيب لغيرهم ( وثالثها ) أن لافرق بين الإخبار وبين البشارة فالبشارة هو الخبر الأول بحصول الخيرات . إذا عرفت هذا فنقول كل ما سمعوه فى الدنيا من أنواع الثواب والخير إذا سمعوه عند الموت أو فى القبر فذاك لايكون إلا إخباراً ، فثبت أن هذه البشارة لا تتحقق إلا إذا حصل الإخبار بحصول أنواع أخر من السعادات فوق ما عرفوها وسمعوها فى الدنيا نسأل الله تعالى الفوز بها ، قال تعالى (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين ) ( ورابعها ) أن المخبر بقوله ( لهم البشرى ) هو الله تعالى وهو أعظم العظماء وأكمل الموجودات والشرط المعتبر فى حصول هذه البشارة شرط عظيم وهو الإجتناب عما سوى الله تعالى والإقبال بالكلية على الله والسلطان العظيم إذا ذكر شرطاً عظيما . ثم قال لمن أتى بذلك الشرط العظيم أبشر فهذه البشارة الصادرة من السلطان العظيم المرتبة على حصول ذلك الشرط العظيم تدل على أن الذى وقعت البشارة به قد بلغ فى الكمال والرفعة إلى حيث لا يصل إلى شرحها العقول والأفكار ، فثبت أن قوله ( لهم البشرى ) يدل على نهاية الكمال والسعادة من هذه الوجوه والله أعلم .

( واعلم أنه تعالى ) لما قال ( لهم البشرى ) وكان هذا كالمجمل أردفه بكلام يجرى مجرى التفسير والشرح له فقال تعالى ( فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ) وأراد بعباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، الذين اجتنبوا وأنابوا لاغيرهم وهذا يدل على أن رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الإعراض عن غير الله تعالى ، والإقبال بالكلية على طاعة الله ، والمقصود من هذا اللفظ التنبيه على أن الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا . هم الموصوفون بأنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . فوضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً

على هذا الحرف ، ومنهم من قال إنه تعالى لما بين أن الذين اجتنبوا وأنابوا لهم البشرى وكان ذلك درجة عالية لا يصل إليها إلا الأولون ، وقصر السعادة عليهم يقتضى الحرمان للأكثرين ، وذلك لا يليق بالرحمة التامة ، لا جرم جعل الحكم أعم فقال كل من اختار الأحسن فى كل باب كان فى زمرة السعداء . واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد :

﴿ الفائدة الاولى ﴾ وجوب النظر والاستدلال ، وذلك لأنه تعالى بين أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة ، فإنه يختار منها ما هو الأحسن الأصوب ، ومن المعلوم أن تمييز الأحسن الأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع ، لأن السماع صار قدراً مشتركا بين الكل ، لأن قوله (الذين يستمعون القول) يدل على أن السماع قدر مشترك فيه ، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وإنما يتأتى بحجة العقل ، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل وبناء الأمر على النظر والاستدلال .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أن الطريق إلى تصحيح المذاهب والأديان قسمان (أحدهما) إقامة الحجة والبينة على صحته على سبيل التحصيل ، وذلك أمر لا يمكن تحصيله إلا بالخوض فى كل واحد من المسائل على التفصيل ( والثانى ) أنا قبل البحث عن الدلائل وتقريرها والشبهات وتزييفها نعرض تلك المذاهب وأضدادها على عقولنا ، فكل ما حكم أول العقل بأنه أفضل وأكمل كان أولى بالقبول . مثاله أن صريح العقل شاهد بأن الإقرار بأن إله العالم حى عالم قادر حليم حكيم رحيم ، أولى من إنكار ذلك ، فكان ذلك المذهب أولى ، والإقرار بأن الله تعالى لا يجرى فى ملكه وسلطانه إلا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بأن أكثر ما يجرى فى سلطان الله على خلاف إرادته ، وأيضاً الإقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والأعضاء أولى من القول بكونه متبعضاً مؤلفاً ، وأيضاً القول باستغنائه عن الزمان والمكان أولى من القول باحتياجه اليهما ، وأيضاً القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه البتة ، وكل هذه الأبواب تدخل تحت قوله ( الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ) فهذا ما يتعلق باختيار الأحسن فى أبواب الاعتقادات .

وأما ما يتعلق بأبواب التكاليف فهو على قسمين : منها ما يكون من أبواب العبادات ، ومنها ما يكون من أبواب المعاملات ، فأما العبادات فمثل قولنا الصلاة التى يذكر فى تحريمها الله أكبر وتكون النية فيها مقارنة للتكبير ، ويقرأ فيها سورة الفاتحة ، ويؤتى فيها بالطمأنينة فى المواقف الخمسة ، ويقرأ فيها التشهد ، ويخرج منها بقوله السلام عليكم ، فلا شك أنها أحسن من الصلاة التى لا يراعى فيها شىء من هذه الأحوال ، وتوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة ، وأن يترك ما سواها ، وكذلك القول فى جميع أبواب العبادات . وأما المعاملات فكذلك مثل أنه تعالى شرع القصاص والدية والعفو ، ولكنه ندب إلى العفو فقال (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وعن ابن عباس

أن المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساويء ، فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ما سواه .

واعلم أنه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بأن قال (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) وفى ذلك دقيقة عجيبة ، وهي أن حصول الهداية فى العقل والروح أمر حادث ، ولا بد له من فاعل وقابل . أما الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله ( أولئك الذين هداهم الله ) وأما القابل فإليه الإشارة بقوله ( وأولئك هم أولوا الألباب ) فإن الإنسان ما لم يكن عاقلا كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقية فى قلبه . وإنما قلنا إن الفاعل لهذه الهداية هو الله ، وذلك لأن جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والاعتقاد الباطل ، وإذا كان الشيء قابلا للضدين كانت نسبة ذلك القابل إليهما على السوية ، ومتى كان الأمر كذلك امتنع كون ذلك القابل سبباً لرجحان أحد الطرفين ، ألا ترى أن الجسم لما كان قابلا للحركة والسكون على السوية ، امتنع أن تصير ذات الجسم سبباً لرجحان أحد الطرفين على الآخر، فإن قالوا لا نقول إن ذات النفس والعقل يوجب هذا الرجحان ، بل نقول إنه يريد تحصيل أحد الطرفين ، فتصير تلك الإرادة سبباً لذلك الرجحان ، فنقول هذا باطل ، لأن ذات النفس كما أنها قابلة لهذه الإرادة ، فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادة لتلك الإرادة ، فيمتنع كون جوهر النفس سبباً لتلك الإرادة . فثبت أن حصول الهداية لابد لها من فاعل ومن قابل ( أما الفاعل ) فيمتنع أن يكون هو النفس ، بل الفاعل هو الله تعالى ( وأما القابل ) فهو جوهر النفس ، فلهذا السبب قال (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) ثم قال ( أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى لفظ الآية سؤال وهو أنه يقال إنه قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب) ولا يصح فى الكلام العربي أن يدخل حرف الاستفهام على الإسم وعلى الخبر معاً . فلا يقال أزيد أتقتله ، بل ههنا شيء آخر ، وهو أنه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء ، فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معاً وهو قوله (أفمن حق) ، (أفأنت تنقذ) ولأجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوها (الأول) قال الكسائي:الآية جملتان والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب . أفأنت تحميه ، أفأنت تنقذ من فى النار ( الثاني ) قال صاحب الكشاف : أصل الكلام أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، وهي جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التي فى أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع من فى النار موضع الضمير ، والآية على هذا جملة واحدة ( الثالث ) لا يبعد أن يقال إن حرف الاستفهام إنما ورد ههنا لإفادة معنى الإنكار ، ولما كان استنكاره هذا

المعنى كاملا تاماً . لاجرم ذكر هذا الحرف فى الشرط وأعاده فى الجزاء تنبيهاً على المبالغة التامة فى ذلك الإنكار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية فى مسألة الهدى والضلال . وذلك لأنه تعالى قال ( أفمن حق عليه كلمة العذاب ) فإذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الإيمان والطاعة ، وإلا لزم انقلاب خبر الله الصدق كذباً ، وانقلاب علمه جهلا وهو محال ( والوجه الثانى ) فى الاستدلال بالآية أنه تعالى حكم بأن حقية كلمة العذاب توجب الإستنكار التام من صدور الإيمان والطاعة عنه . ولو كان ذلك ممكناً ولم تكن حقية كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار والاستبعاد معنى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج القاضى بهذه الآية على أن النبى ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر ، قال لأنه حق عليهم العذاب فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى إنقاذهم من النار ، وأن الله تعالى حكم عليهم بالإنكار والإستبعاد . فيقال له لا نسلم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب وكيف يحق العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال ( إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ) ومع قوله ( إن الله يغفر الذنوب جميعاً ) والله أعلم .

﴿ النوع الثانى ﴾ من الأشياء التى وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأنابوا قوله تعالى ( لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ) وهذا كالمقابل لما ذكر فى وصف الكفار ( لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ) فإن قيل مامعنى قوله ( مبنية ) ؟ قلنا لأن المنزل إذا بنى على منزل آخر تحته كان الفوقانى أضعف بناء من التحتانى فقوله ( مبنية ) معناه أنه وإن كان فوق غيره لكنه فى القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل . والحاصل أن المنزل الفوقانى والتحتانى حصل فى كل واحد منهما فضيلة ومنقصة ، أما الفوقانى ففضيلته العـــلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة ، وأما التحتانى فبالضد منه ، أما منازل الجنة فإنها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهى عالية مرتفعة وتكون فى غاية القوة والشدة . وقال حكماء الإسلام هذه الغرف المبنية بعضها فوق البعض ، مثاله من الأحوال النفسانية العلوم الكسبية فإن بعضها يكون مبنياً على البعض والنتائج الآخرة التى هى عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون فى غاية القوة بل تكون فى القوة والشدة كالعلوم الأصلية البديهية .

ثم قال ( تجرى من تحتها الأنهار ) وذلك معلوم ، ثم ختم الكلام فقال ( وعد الله لايخلف الله الميعاد ) فقوله ( وعد الله ) مصدر مؤكد لأن قوله ( لهم غرف ) فى معنى وعدهم الله ذلك وفى الآية دقيقة شريفة ، وهى أنه تعالى فى كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله وأنه لايخلف وعده ولم يذكر فى آيات الوعيد البتة مثل هذا التأكيد والتقوية ، وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد بخلاف مايقوله المعتزلة ، فإن قالوا أليس أنه قال فى جانب الوعيد ( مايبدل

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

---

القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) قلنا قوله مايبدل القول لدى ليس تصريحاً بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين أعني الوعد والوعيد ، فثبت أن الترجيح الذى ذكرناه حق والله أعلم .

**قوله تعالى :** ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولى الألباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها ، وذلك أنه تعالى بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان فى الأرض فهو من السماء ، ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع فى الأرض ، أى فيدخله وينظمه ينابيع فى الأرض عيوناً ، ومسالك ومجارى كالعروق فى الأجسام ، ثم يخرج به زرعاً مختلفا ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ، أو مختلفاً أصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج ، وذلك لأنه إذا تم جفافه جازله أن ينفصل عن منابته ، وإن لم تتفرق أجزاؤه ، فتلك الأجزاء كأنها هاجت لأن تتفرق ثم يصير حطاماً يابساً ( إن فى ذلك لذكرى ) يعنى أن من شاهد هذه الأحوال فى النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنه وإن طال عمره فلابد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء ، ثم تكون عاقبته الموت . فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال فى النبات تذكره حصول مثل هذه الأحوال فى نفسه وفى حياته ، فحينئذ تعظم نفرته فى الدنيا وطيباتها . والحاصل أنه تعالى فى الآيات المتقدمة ذكر مايقوى الرغبة فى الآخرة ، وذكر فى هذه الآية مايقوى النفرة عن الدنيا ، فشرح صفات القيامة يقوى الرغبة فى طاعة الله ، وشرح صفات الدنيا يقوى النفرة عن الدنيا ، وإنما قدم الترغيب فى الآخرة على التنفير عن الدنيا ، لأن الترغيب فى الآخرة مقصود بالذات ، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض ، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض ، فهذا تمام الكلام فى تفسير الآية ، بقى ههنا ما يتعلق بالبحث عن الألفاظ ، قال الواحدى : والينابيع جمع ينبوع وهو يفعول من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبع وينبع ثلاث لغات ذكرها الكسائى والفراء ، وقوله ( ينابيع ) نصب بحذف الخافض لأن التقدير فسلكه فى ينابيع ثم يهيج أى يخضر ، والحطام مايجف ويتفتت ويكسر من النبت .

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم
مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا
مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾
أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

---

**قوله تعالى :** ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ، الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ، أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ، كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ اعلم أنه تعالى لما بالغ فى تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الإعراض عن الدنيا بين بعد ذلك أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) واعلم أنا بالغنا فى سورة الأنعام فى تفسير قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام)

فى تفسير شرح الصدر وفى تفسير الهداية ، ولا بأس بإعادة كلام قليل ههنا ، فنقول إنه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلهيات عظيمة الرغبة فى الاتصال بالروحانيات ، وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة إلى الجسمانيات وفى هذا التفاوت أمر حاصل فى جواهر النفوس البشرية ، والاستقراء يدل على أن الأمر كذلك ، إذا عرفت هذا فنقول المراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود فى فطرة النفس ، وإذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلا كفى خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بأدنى سبب ، مثل الكبريت الذى يشتعل بأدنى نار ، أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والأحوال الروحانية ، بل كانت مستغرقة فى طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الأحوال المناسبة للالهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية ، وكلما كان إيراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقل . إذا عرفت هذه القاعدة فنقول . أما شرح الصدر فهو ما ذكرناه ، وأما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة ، ومالم يحصل شرح الصدر أولا لم يحصل النور ثانياً ، وإذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع البتة بسماع الدلائل ، وربما صار سماع الدلائل سبباً لزيادة القسوة ولشدة النفرة فهذه أصول يقينية يجب أن تكون معلومة عند الإنسان حتى يمكنه الوقوف على معانى هذه الآيات ، أما استدلال أصحابنا فى مسألة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هناك والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من محذوف الخبر كما فى قوله ( أمن هو قانت ) والتقدير : أفمن شرح الله صدره للاسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته ، والجواب متروك لأن الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى ( فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله ( فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ) فيه سؤال ، وهو أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الإطمئنان كما قال ( ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) فكيف جعله فى هذه الآية سبباً لحصول قسوة القلب ، والجواب أن نقول إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلى الطبائع البهيمية والأخلاق الذميمة ، فان سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة ، وتقرير هذا الكلام بالأمثلة فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه ، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح ، وقد نرى إنساناً واحداً يذكر كلاماً واحداً فى مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره ، وما ذاك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس ، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس ، ولما نزل قوله تعالى ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ) وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وإنسان آخر فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى ( ثم أنشأناه خلقاً آخر ) قال كل واحد منهم ( فتبارك الله أحسن الخالقين ) فقال رسول الله ﷺ

« اكتب فهكذا أنزلت » فازداد عمر إيماناً على إيمان وازداد ذلك الإنسان كفراً على كفر . إذا عرفت هذا لم يبعد أيضاً أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية ، ويوجب القسوة والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة الشيطانية ، إذا عرفت هذا فنقول إن رأس الأدوية التى تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالى ، فاذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سبباً لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضاً لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت فى نهاية الشر والرداءة ، فلهذا المعنى قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ) وهذا كلام كامل محقق . ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان ، والمقصود منه بيان أن القرآن لما كان موصوفاً بهذه الصفات ، ثم إنه فى حق ذلك الإنسان صار سبباً لمزيد القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ فى الرداءة والخساسة إلى أقصى الغايات . فنقول إنه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال .

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله تعالى ( ألله نزل أحسن الحديث ) وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه : ( الأول ) أنه تعالى وصفه بكونه حديثاً فى هذه الآيات وفى آيات أخرى منها قوله تعالى ( فليأتوا بحديث مثله ) ومنها قوله تعالى (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) والحديث لابد وأن يكون حادثاً ، قالوا بل الحديث أقوى فى الدلالة على الحدوث من الحادث لأنه يصح أن يقال هذا حديث وليس بعتيق ، وهذا عتيق وليس بحادث ، فثبت أن الحديث هو الذى يكون قريب العهد بالحدث . وسمى الحديث حديثاً لأنه مؤلف من الحروف والكلمات ، وتلك الحروف والكلمات تحدث حالا فحالا وساعة فساعة . فهذا تمام تقرير هذا الوجه .

أما ( الوجه الثانى ) فى بيان استدلال القوم أن قالوا : إنه تعالى وصفه بأنه نزله والمنزل يكون فى محل تصرف الغير . وما يكون كذلك فهو محدث وحادث .

وأما (الوجه الثالث) فى بيان استدلال القوم أن قالوا : إن قوله أحسن الحديث يقتضى أن يكون هو من جنس سائر الأحاديث كما أن قوله زيد أفضل الإخوة يقتضى أن يكون زيد مشاركا لأولئك الأقوام فى صفة الأخوة ويكون من جنسهم ، فثبت أن القرآن من جنس سائر الأحاديث . ولما كان سائر الأحاديث حادثة وجب أيضاً أن يكون القرآن حادثا .

أما (الوجه الرابع) فى الاستدلال أن قالوا : إنه تعالى وصفه بكونه كتابا والكتاب مشتق من الكتبة وهى الاجتماع ، وهذا يدل على أنه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف . وذلك يدل على كونه محدثاً ( والجواب ) أن نقول نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والأصوات والألفاظ والعبارات ، وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كون القرآن أحسن الحديث ، إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه .

﴿ القسم الأول ﴾ أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين : ( الأول ) أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة ( الثانى ) أن يكون بحسب النظم فى الأسلوب ، وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ، ولا من جنس الخطب . ولا من جنس الرسائل ، بل هو نوع يخالف الكل ، مع أن كل ذى طبع سليم يستطيبه ويستلذه .

﴿ القسم الثانى ﴾ أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى ، وفيه وجوه : (الأول) أنه كتاب منزه عن التناقض ، كما قال تعالى ( ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ) ومثل هذا الكتاب إذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات ( الوجه الثانى ) اشتماله على الغيوب الكثيرة فى الماضى والمستقبل (الوجه الثالث ) أن العلوم الموجودة فيه كثيرة جداً .

وضبط هذه العلوم أن نقول : العلوم النافعة هى ما ذكره الله فى كتابه فى قوله ( والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ) فهذا أحسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة .

﴿ أما القسم الأول ﴾ وهو الإيمان بالله ، فاعلم أنه يشتمل على خمسة أقسام : معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء . أما معرفة الذات فهى أن يعلم وجود الله وقدمه وبقاءه . وأما معرفة الصفات فهى نوعان :

﴿ أحدهما ﴾ ما يجب تنزيهه عنه ، وهو كونه جوهراً ومركباً من الأعضاء والأجزاء وكونه مختصاً بحيز وجهة ، ويجب أن يعلم أن الألفاظ الدالة على التنزيه أربعة : ليس ولم وما ولا ، وهذه الأربعة المذكورة ، مذكورة فى كتاب الله تعالى لبيان التنزيه .

أما كلمة ليس ، فقوله ( ليس كمثله شىء ) وأما كلمة لم ، فقوله (لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ) وأما كلمة ما ، فقوله (وما كان ربك نسياً) ، (ما كان لله أن يتخذ من ولد) وأما كلمة لا ، فقوله تعالى (لاتأخذه سنة ولا نوم) ، (وهو يطعم ولا يطعم) ، (وهو يجير ولا يجار عليه) ، وقوله فى سبعة وثلاثين موضعاً من القرآن (لا إله إلا الله ) .

﴿ وأما النوع الثانى ﴾ وهى الصفات التى يجب كونه موصوفاً بها من القرآن (فأولها) العلم بالله ، والعلم بكونه محدثاً خالقاً ، قال تعالى ( الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ) ( وثانيها ) العلم بكونه قادراً ، قال تعالى فى أول سورة القيامة ( بلى قادرين على أن نسوى بنانه ) وقال فى آخر هذه السورة ( أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ) (وثالثها ) العلم بكونه تعالى عالماً ، قال تعالى ( هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ) (ورابعها) العلم بكونه عالماً بكل المعلومات ، قال تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وقوله تعالى ( الله يعلم ما تحمل كل أنثى ) (وخامسها) العلم

بكونه حياً ، قال تعالى ( هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ) ( وسادسها ) العلم بكونه مريداً ، قال الله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) (وسابعها) كونه سميعاً بصيراً ، قال تعالى ( وهو السميع البصير ) وقال تعالى ( إنني معكما أسمع وأرى ) ( وثامنها ) كونه متكلما ، قال تعالى ( ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) ( وتاسعها ) كونه أمراً ، قال تعالى ( لله الأمر من قبل ومن بعد ) (وعاشرها ) كونه رحماناً رحيما مالكا ، قال تعالى ( الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ) فهذا مايتعلق بمعرفة الصفات التى يجب اتصافه بها .

﴿ وأما القسم الثالث ﴾ وهو الأفعال ، فاعلم أن الأفعال إما أرواح وإما أجسام . أما الأرواح فلا سبيل للوقوف عليها إلا للقليل ، كما قال تعالى ( وما يعلم جنود ربك إلا هو ) وأما الأجسام ، فهي إما العالم الأعلى وإما العالم الأسفل . أما العالم الأعلى فالبحث فيه من وجوه ( أحدها ) البحث عن أحوال السموات . و(ثانيها) البحث عن أحوال الشمس والقمر كما قال تعالى ( إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ) و( ثالثها ) البحث عن أحوال الأضواء ، قال الله تعالى ( الله نور السموات والأرض) وقال تعالى ( هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً)و(رابعها) البحث عن أحوال الظلال ، قال الله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ) و(خامسها) اختلاف الليل والنهار ، قال الله تعالى ( يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) و ( سادسها ) منافع الكواكب ، قال تعالى ( وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ) و (سابعها ) صفات الجنة ، قال تعالى ( وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) و( ثامنها ) صفات النار ، قال تعالى (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ) و(تاسعها) صفة العرش ، قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله) و(عاشرها) صفة الكرسى ، قال تعالى ( وسع كرسيه السموات والأرض ) و( حادى عشرها ) صفة اللوح والقلم . أما اللوح ، فقوله تعالى (بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ) وأما القلم ، فقوله تعالى (ن والقلم ومايسطرون) .

وأما شرح أحوال العالم الأسفل (فأولها) الأرض ، وقد وصفها بصفات كثيرة (إحداها ) كونه مهداً ، قال تعالى ( الذى جعل لكم الأرض مهداً ) و(ثانيها) كونه مهاداً ، قال تعالى ( ألم نجعل الأرض مهاداً ) و(ثالثها) كونه كفاتاً ، قال تعالى ( كفاتاً . أحياء وأمواتا ) و (رابعها ) الذلول ، قال تعالى ( هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ) و ( خامسها) كونه بساطاً ، قال تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلا فجاجا ) والكلام فيه طويل و(ثانيها) البحر قال تعالى (وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً) و ( ثالثها ) الهواء والرياح . قال تعالى

(وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ) وقال تعالى ( وأرسلنا الرياح لواقح ) و(رابعها) الآثار العلوية كالرعد والبرق ، قال تعالى (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) وقال تعالى ( فترى الودق يخرج من خلاله ) ومن هذا الباب ذكر الصواعق والأمطار وتراكم السحاب و(خامسها) أحوال الأشجار والثمار وأنواعها وأصنافها ، و(سادسها) أحوال الحيوانات ، قال تعالى ( وبث فيها من كل دابة ) وقال (والأنعام خلقها لكم ) و ( سابعها ) عجائب تكوين الإنسان فى أول الخلقة ، قال ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ) و (ثامنها) العجائب فى سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه و (تاسعها) تواريخ الأنبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم إلى آخر قيام القيامة ، و(عاشرها) ذكر أحوال الناس عند الموت وبعد الموت ، وكيفية البعث والقيامة ، وشرح أحوال السعداء والأشقياء ، فقد أشرنا إلى عشرة أنواع من العلوم فى عالم السموات ، وإلى عشرة أخرى فى عالم العناصر ، والقرآن مشتمل على شرح هذه الأنواع من العلوم العالية الرفيعة.

﴿ وأما القسم الرابع ﴾ وهو شرح أحكام الله تعالى وتكاليفه . فنقول هذه التكاليف إما أن تحصل فى أعمال القلوب أو فى أعمال الجوارح .

﴿أما القسم الأول ﴾ فهو المسمى بعلم الأخلاق وبيان تمييز الأخلاق الفاضلة والأخلاق الفاسدة والقرآن يشتمل على كل مالا بد منه فى هذا الباب . قال الله تعالى ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ) ، وقال ( خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) .

( وأما الثانى ) فهو التكاليف الحاصلة فى أعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه والقرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على أكمل الوجوه .

﴿ وأما القسم الخامس ﴾ وهو معرفة أسماء الله تعالى فهو مذكور فى قوله تعالى ( ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ) فهذا كله يتعلق بمعرفة الله .

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ من الأصول المعتبرة فى الإيمان الإقرار بالملائكة كما قال تعالى ( والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته ) والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال وأخرى على طريق التفصيل ، أما بالإجمال فقوله ( وملائكته ) وأما بالتفصيل فمنها مايدل على كونهم رسل الله قال تعالى ( جاعل الملائكة رسلا ) ومنها أنها مدبرات لهذا العالم . قال تعالى ( فالمقسمات أمرا فالمدبرات أمرا ) وقال تعالى (والصافات صفاً ) ومنها حملة العرش قال ( ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ) ومنها الحافون حول العرش قال ( وترى الملائكة حافين من حول العرش ) ومنها خزنة النار قال تعالى ( عليها ملائكة غلاظ شداد ) ومنها الكرام الكاتبون قال ( وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ) ومنها المعقبات قال تعالى ( له معقبات من بين يديه ومن خلفه ) وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين

﴿ وأما القسم الثالث ﴾ من الأصول المعتبرة فى الإيمان معرفة الكتب والقرآن يشتمل على شرح أحوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى ( فتلقى آدم من ربه كلمات ) ومنها أحوال صحف إبراهيم عليه السلام قال تعالى ( وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ) ومنها أحوال التوراة والإنجيل والزبور .

﴿ وأما القسم الرابع ﴾ من الأصول المعتبرة فى الإيمان معرفة الرسل والله تعالى قد شرح أحوال البعض وأبهم أحوال الباقين قال ( منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك )

﴿ القسم الخامس ﴾ مايتعلق بأحوال المكلفين وهى على نوعين ( الأول ) أن يقروا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله ( وقالوا سمعنا وأطعنا ) ، ( الثانى ) أن يعترفوا بصدور التقصير عنهم فى تلك الأعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله ( غفرانك ربنا ) ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير فى مواقف العبودية بحسب المكاشفات فى مطالعة عزة الربوبية أكثر ، كانت المكاشفات فى تقصير العبودية أكثر وكان قوله ( غفرانك ربنا ) أكثر .

﴿ القسم السادس ﴾ معرفة المعاد والبعث والقيامة وهو المراد من قوله ( وإليك المصير ) وهذا هو الاشارة إلى معرفة المطالب المهمة فى طلب الدين ، والقرآن بحر لانهاية له فى تقرير هذه المطالب وتعريفها وشرحها ولا ترى فى مشارق الأرض ومغاربها كتابا يشتمل على جملة هذه العلوم كما يشتمل القرآن عليها . ومن تأمل فى هذا التفسير علم أنا لم نذكر من بحار فضائل القرآن إلا قطرة ، ولما كان الأمر على هذه الجملة ، لاجرم مدح الله عزوجل القرآن فقال تعالى (الله نزل أحسن الحديث ) والله أعلم

﴿ الصفة الثانية ﴾ من صفات القرآن قوله تعالى ( كتاباً متشابهاً ) أما الكتاب فقدفسرناه فى قوله تعالى ( ذلك الكتاب لاريب فيه ) وأما كونه متشابهاً فاعلم أن هذه الآية تدل على أن القرآن كله متشابه . وقوله ( هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ) يدل على كون البعض متشابهاً دون البعض . وأما كونه كله متشابهاً كما فى هذه الآية ، فقال ابن عباس معناه أنه يشبه بعضه بعضاً ، وأقول هذا التشابه يحصل فى أمور (أحدها) أن الكاتب البليغ إذا كتب كتاباً طويلا ، فانه يكون بعض كلماته فصيحاً ، ويكون البعض غير فصيح ، والقرآن يخالف ذلك فإنه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه ( وثانيها ) أن الفصيح إذا كتب كتاباً فى واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتاباً آخر فى غير تلك الواقعة كان الغالب أن كلامه فى الكتاب الثانى غير كلامه فى الكتاب الأول ، والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام فى مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة فى الفصاحة ( وثالثها ) أن كل مافيه من الآيات والبيانات فانه يقوى بعضها بعضاً ويؤكد بعضها بعضاً ( ورابعها ) أن هذه الأنواع الكثيرة من العلوم التى عددناها متشابهة متشاركة فى أن المقصود منها بأسرها الدعوة إلى

الدين وتقرير عظمة الله . ولذلك فانك لاترى قصة من القصص إلا ويكون محصلها المقصود الذى ذكرناه . فهذا هو المراد من كونه متشابهاً ، والله الهادى .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ من صفات القرآن كونه (مثانى) وقد بالغنا فى تفسير هذه اللفظة عند قوله تعالى ( ولقد آتيناك سبعاً من المثانى ) وبالجملة فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل : الأمر والنهى ، والعام والخاص ، والمجمل والمفصل ، وأحوال السموات والأرض ، والجنة والنار ، والظلمة والضوء ، واللوح والقلم ، والملائكة والشياطين ، والعرش والكرسى ، والوعد والوعيد ، والرجاء والخوف ، والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج ويدل على أن كل شىء مبتلى بضده ونقيضه وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ من صفات القرآن قوله ( تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معنى ( تقشعر جلودهم ) تأخذهم قشعريرة وهى تغير يحدث فى جلد الإنسان عند الوجل والخوف ، قال المفسرون : والمعنى أنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان يحصل لهم الفرح فتلين قلوبهم إلى ذكر الله ، وأقول إن المحققين من العارفين قالوا : السائرون فى مبدإ جلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا ، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا ، ويجب علينا أن نذكر فى هذا الباب مزيد شرح وتقرير ، فنقول الإنسان إذا تأمل فى الدلائل الدالة على أنه يجب تنزيه الله عن التحيز والجهة ، فهنا يقشعر جلده ، لأن إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارج ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم ، مما يصعب تصوره فههنا تقشعر الجلود ، أما إذا تأمل فى الدلائل الدالة على أنه يجب أن يكون فرداً أحداً ، وثبت أن كل متحيز فهو منقسم فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله . وأيضاً إذا أراد أن يحيط عقله بمعنى الأزل فيتقدم فى ذهنه بمقدار ألف ألف سنة ثم يتقدم أيضاً بحسب كل لحظة من لحظات تلك المدة ألف ألف سنة ، ولا يزال يحتال ويتقدم ويتخيل فى الذهن ، فاذا بالغ وتوغل وظن أنه استحضر معنى الأزل قال العقل هذا ليس بشىء ، لأن كل ما استحضرته فى فهومتناه والأزل هو الوجود المتقدم على هذه المدة المتناهية ، فههنا يتحير العقل ويقشعر الجلد ، وأما إذا ترك هذا الإعتبار وقال ههنا موجود والموجود إما واجب وإما ممكن ، فإن كان واجباً فهو دائماً منزه عن الأول والآخر وإن كان ممكناً فهو محتاج إلى الواجب فيكون أزلياً أبدياً ، فإذا اعتبر العقل فهم معنى الأزلية فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله ، فثبت أن المقامين المذكورين فى الآية لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب وآية الرحمة ، بل ذاك أول تلك المراتب وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر فى حصول تلك الحالتين المذكورتين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى الواحدى فى البسيط عن قتادة أنه قال : القرآن دل على أن أولياء

الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات ، تارة تقشعر جلودهم وأخرى تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . وليس فيه أن عقولهم تزول وأن أعضاءهم تضطرب ، فدل هذا على أن تلك الأحوال لو حصلت لكانت من الشيطان ، وأقول ههنا بحث آخر وهو أن الشيخ أبا حامد الغزالى أورد مسألة فى كتاب إحياء علوم الدين ، وهى أنا نرى كثيراً من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتملة على شرح الوصل والهجر ، وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شىء من هذه الأحوال ، ثم إنه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة . وأنا أقول : إنى خلقت محروماً عن هذا المعنى . فإنى كلما تأملت فى أسرار القرآن اقشعر جلدى ووقف على شعرى وحصلت فى قلبي دهشة وروعة ، وكلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل على وما وجدت البتة فى نفسى منها أثراً . وأظن أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا ، وبيانه من وجوه (الأول) أن تلك الأشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر وبغض وحب تليق بالخلق ، وإثباته فى حق الله تعالى كفر ، وأما الإنتقال من تلك الأحوال إلى معان لائقة بجلال الله فلا يصل إليها إلا العلماء الراسخون فى العلم ، وأما المعانى التى يشتمل عليها القرآن فهى أحوال لائقة بجلال الله ، فمن وقف عليها عظم الوله فى قلبه ، فإن من كان عنده نور الإيمان وجب أن يعظم اضطرابه عند سماع قوله ( وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ) إلى آخر الآية ( والثانى ) وهو أنى سمعت بعض المشايخ قال كما أن الكلام له أثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له أثر ، لأن قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام فى الروح ، والقائل فى القرآن هنا هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم ، والقائل هناك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور ( والثالث ) أن مدار القرآن على الدعوة إلى الحق قال تعالى ( وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ) وأما الشعر فمداره على الباطل قال تعالى ( والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ) فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة ، وأما ما يتعلق بالوجدان من النفس فإن كل أحد إنما يخبر عما يجده من نفسه والذى وجدته من النفس والعقل ماذكرته والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى بيان ما بقى من المشكلات فى هذه الآية ونذكرها فى معرض السؤال والجواب .

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف تركيب لفظ القشعريرة ( الجواب ) قال صاحب الكشاف تركيبه من حروف التقشع وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعياً ودالا على معنى زائد يقـــال : اقشعر جلده من الخوف وقف شعره ، وذلك مثل فى شدة الخوف .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف قال ( تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ) وما الوجه فى تعديه

بحرف إلى ؟ ( والجواب ) التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها إلى حضرة الله وهو لايحس بالإدراك .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال إلى ذكر الله ولم يقل إلى ذكر رحمة الله ؟ ( والجواب ) أن من أحب الله لأجل رحمته فهو ما أحب الله ، وإنما أحب شيئاً غيره ، وأما من أحب الله لا لشيء سواه فهذا هو المحب المحق وهو الدرجة العالية ، فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمة الله بل قال إلى ذكر الله ، وقد بين الله تعالى هذا المعنى فى قوله تعالى ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ) وفى قوله ( ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) وأيضاً قال لأمة موسى ( يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ) وقال أيضاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ( فاذكرونى أذكركم ) .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم قال فى جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط ، وفى جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معاً ؟ (والجواب) لأن المكاشفة فى مقام الرجاء أكمل منها فى مقام الخوف ، لأن الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والأرواح والله أعلم

ثم إنه تعالى لما وصف القرآن بهذه الصفات قال ( ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ) فقوله ( ذلك ) إشارة إلى الكتاب وهو هدى الله يهدى به من يشاء من عباده وهو الذى شرح صدره أولا لقبول هذه الهداية ( ومن يضلل الله ) أى من جعل قلبه قاسياً مظلماً بليد الفهم منافياً لقبول هذه الهداية ( فما له من هاد ) واستدلال أصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات أصحابنا عين ما تقدم فى قوله ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ) .

أما قوله تعالى ( أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ) فاعلم أنه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا وبحكم فى الآخرة ، أما حكمهم فى الدنيا فهو الضلال التام كما قال ( ومن يضلل الله فما له من هاد ) وأما حكمهم فى الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله ( أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ) وتقريره أن أشرف الأعضاء هو الوجه لأنه محل الحسن والصباحة ، وهو أيضاً صومعة الحواس ، وإنما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه ، وأثر السعادة والشقاوة لايظهر إلا فى الوجه قال تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة ) ويقال لمقدم القوم يا وجه العرب ، ويقال للطريق الدال على كنه حال الشيء وجه كذا هو كذا ، فثبت بما ذكرنا أن أشرف الأعضاء هو الوجه ، فإذا وقع الإنسان فى نوع من أنواع العذاب فانه يجعل يده وقاية لوجهه وفداء له . وإذا عرفت هذا فنقول : إذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ما سوى الوجه فداء للوجه لا جرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء ، ونظيره قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

أى لاعيب فيهم إلا هذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم إذن بوجه من الوجوه ، فكذا ههنا لا يقدرون على الاتقاء بوجه من الوجوه إلا بالوجه وهذا ليس باتقاء ، فلا قدرة لهم على الاتقاء البتة ، ويقال أيضاً إن الذى يلقى فى النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ولا يتهيأ له أن يتقى النار إلا بوجهه ، إذا عرفت هذا فنقول : جوابه محذوف وتقديره أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب لحذف الخبر كما حذف فى نظائره . وسوء العذاب شدته .

ثم قال تعالى ( وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ) ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم فى الآخرة بين أيضاً كيفية وقوعهم فى العذاب فى الدنيا فقال ( كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ) وهذا تنبيه على حال هؤلاء لأن الفاء فى قوله ( فأتاهم العذاب ) تدل على أنهم إنما أتاهم العذاب بسبب التكذيب ، فاذا كان التكذيب حاصلا ههنا لزم حصول العذاب استدلالا بالعلة على المعلول ، وقوله ( من حيث لا يشعرون ) أى من الجهة التى لا يحسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، بينما هم آمنون إذ أتاهم العذاب من الجهة التى توقعوا الأمن منها ، ولما بين أنه أتاهم العذاب فى الدنيا بين أيضاً أنه أتاهم الخزى وهو الذل والصغار والهوان ، والفائدة فى ذكر هذا القيد أن العذاب التام هو أن يحصل فيه الألم مقروناً بالهوان والذل .

ثم قال ( ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ) يعنى أن أولئك وإن نزل عليهم العذاب والخزى كما تقدم ذكره ، فالعذاب المدخر لهم فى يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذى وقع . والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب ، فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة فى هذه المطالب ، بين تعالى أنه بلغت هذه البيانات إلى حد الكمال والتمام فقال ( ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ) والمقصود ظاهر ، وقالت المعتزلة دلت الآية على أن أفعال الله وأحكامه معللة ، ودلت أيضاً على أنه يريد الإيمان والمعرفة من الكل لأن قوله ( ولقد ضربنا للناس ) مشعر بالتعليل ، وقوله فى آخر الآية ( لعلهم يتذكرون ) مشعر بالتعليل أيضاً ، ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الأمثال إرادة حصول التذكر والعلم ، ولما كانت هذه البيانات النافعة والبينات الباهرة موجودة فى القرآن ، لاجرم وصف القرآن بالمدح والثناء ، فقال ( قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه ( الأول ) أن قوله ( ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ) يدل على أنه تعالى إنما ذكر هذه الأمثال ليحصل لهم التذكر ، والشىء الذى يؤتى به لغرض آخر يكون محدثاً ، فان القديم هو الذى يكون موجوداً فى الأزل ، وهذا يمتنع أن يقال إنه إنما أتى به لغرض كذا وكذا ،

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

(والثانى) أنه وصفه بكونه عربياً وإنما كان عربياً لأن هذه الألفاظ إنما صارت دالة على هذه المعانى بوضع العرب وباصطلاحهم، وما كان حصوله بسبب أوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقا محدثاً (الثالث) أنه وصفه بكونه قرآناً والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلاومفعولا (والجواب) أنا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والأصوات وهى حادثة ومحدثة،

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج قوله (عربيا) منصوب على الحال والمعنى ضربنا للناس فى هذا القرآن فى حال عربيته وبيانه ويجوز أن ينتصب على المدح.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى وصفه بصفات ثلاثة (أولها) كونه قرآناً، والمراد كونه متلواً فى المحاريب إلى قيام القيامة، كما قال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، (وثانيها) كونه عربياً والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وثالثها) كونه (غير ذى عوج) والمراد براءته عن التناقض، كما قال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وأما قوله (لعلهم يتقون) فالمعتزلة يتمسكون به فى تعليل أحكام الله تعالى.

(وفيه بحث آخر) وهو أنه تعالى قال فى الآية الأولى (لعلهم يتذكرون) وقال فى هذه الآية (لعلهم يتقون) والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه، حصل الاتقاء والاحتراز والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل، هل يستويان مثلا؟ الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون، إنك ميت وإنهم ميتون، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون، فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ فى شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل مايدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم فقال (ضرب الله مثلا) وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ المتشاكسون المختلفون العسرون يقال شكس يشكس شكوساً وشكساً إذا عسر ، وهو رجل شكس ، أى عسر وتشاكس إذا تعاسر ، قال الليث : التشاكس التنازع والاختلاف ، ويقال الليل والنهار متشاكسان ، أى أنهما متضادان إذا جاء أحدهما ذهب الآخر ، وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو سالما بالألف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون سلماً بفتح السين واللام بغير الألف ، ويقال أيضاً بفتح السين وكسرها مع سكون العين أما من قرأ سالما فهو اسم الفاعل تقدير مسلم فهو سالم ، وأما سائر القراءات فهى مصادر سلم والمعنى ذا سلامة ، وقوله ( لرجل ) أى ذا خلوص له من الشركة من قولهم : سلمت له الضيعة ، وقرىء بالرفع على الابتداء أى وهناك رجل سالم لرجل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تقدير الكلام : اضرب لقومك مثلا وقل لهم مايقولون فى رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع ، كل واحد منهم يدعى أنه عبده فهم يتجاذبونه فى حوائجهم وهو متحير فى أمره ، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون ، وإذا احتاج فى مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر ، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه ، وأيهم يعينه فى حاجاته ، فهو بهذا السبب فى عذاب دائم وتعب مقيم ، ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص ، وذلك المخدوم يعينه على مهماته ، فأى هذين العبدين أحسن حالا وأحمد شأناً ، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى ، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة ، كما قال تعالى ( لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ) وقال ( ولعلا بعضهم على بعض ) فيبقى ذلك المشرك متحيراً ضالا ، لا يدرى أى هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد ، وممن يطلب رزقه ، وممن يلتمس رفقه ، فهمه شعاع ، وقلبه أوزاع . أما من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه ، فكان حال هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول ، وهذا مثل ضرب فى غاية الحسن فى تقبيح الشرك وتحسين التوحيد ، فإن قيل : هذا المثال لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات ، فليس بينها منازعة ولا مشاكسة ، قلنا إن عبدة الأصنام مختلفون منهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة ، فهم فى الحقيقة إنما يعبدون الكواكب السبعة ، ثم إن القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة ، ألا ترى أنهم يقولون زحل هو النحس الأعظم ، والمشترى هو السعد الأعظم ، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكية ، والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية ، وحينئذ يحصل بين تلك الأرواح منازعة ومشاكسة ، وحينئذ يكون المثل مطابقاً ، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا ، فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير أولئك الأشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله ، والقائلون

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ
عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا
وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ

بهذا القول تزعم كل طائفة منهم أن الحق هو ذلك الرجل الذى هو على دينه ، وأن من سواه مبطل، وعلى هذا التقدير أيضاً ينطبق المثال ، فثبت أن هذا المثال مطابق للمقصود .

أما قوله تعالى ( هل يستويان مثلا ) فالتقدير هل يستويان صفة ، فقوله ( مثلا ) نصب على التمييز ، والمعنى هل تستوى صفتاهما وحالتاهما ، وإنما اقتصر فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرىء مثلين ، ثم قال (الحمد لله ) والمعنى أنه لما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الحق ، ثبت أن الحمد له لا لغيره ، ثم قال بعده ( بل أكثرهم لا يعلمون)أى لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره ، وأن المستحق للعبادة هو الله لا غيره ، وقيل المراد أنه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبينات الباهرة ، قال الحمد لله على حصول هذه البيانات وظهور هذه البينات ، وإن كان أكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها ، ولما تمم الله هذه البيانات قال ( إنك ميت وإنهم ميتون ) والمراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم فى الدنيا ، فلا تبال يا محمد بهذا فإنك ستموت وهم أيضاً سيموتون ، ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى ، والعادل الحق يحكم بينكم فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه ، وحينئذ يتميز المحق من المبطل ، والصديق من الزنديق ، فهذا هو المقصود من الآية ، وقوله تعالى ( إنك ميت وإنهم ميتون ) أى إنك وإياهم ، وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم فى أعداد الموتى ، لأن كل ما هو آت آت ، ثم بين تعالى نوعاً آخر من قبائح أفعالهم ، وهو أنهم يكذبون ويضمون إليه أنهم يكذبون القائل المحق . أما أنهم يكذبون ، فهو أنهم أثبتوا لله ولداً وشركاء . وأما أنهم مصرون على تكذيب الصادقين ، فلأنهم يكذبون محمداً ﷺ بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقاً فى ادعاء النبوة ، ثم أردفه بالوعيد فقال ( أليس فى جهنم مثوى للكافرين ) ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى تكفير المخالف من أهل القبلة ، وذلك لأن المخالف فى المسائل القطعية كلها يكون كاذباً فى قوله ، ويكون مكذباً للمذهب الذى هو الحق ، فوجب دخوله تحت هذا الوعيد .

قوله تعالى : ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

يعملون ، أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذبين للصادقين ذكر عقيبه وعد الصادقين ووعد المصدقين ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله ( والذى جاء بالصدق وصدق به ) تقديره : والذى جاء بالصدق والذى صدق به ، وفيه قولان (الأول) أن المراد شخص واحد فالذى جاء بالصدق محمد ، والذى صدق به هو أبو بكر ، وهذا القول مروى عن على بن أبى طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضى الله عنهم (والثانى) أن المراد منه كل من جاء بالصدق ، فالذى جاء بالصدق الأنبياء ، والذى صدق به الأتباع ، واحتج القائلون بهذا القول بأن الذى جاء بالصدق جماعة وإلا لم يجز أن يقال ( أولئك هم المتقون ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الرسالة لا تتم إلا بأركان أربعة : المرسل والمرسل والرسالة والمرسل إليه ، والمقصود من الإرسال إقدام المرسل إليه على القبول والتصديق ، فأول شخص أتى بالتصديق هو الذى يتم به الإرسال ، وسمعت بعض القاصين من الذى يروى عن النبى ﷺ أنه قال « دعوا أبا بكر فإنه من تتمة النبوة » .

واعلم أنا سواء قلنا المراد بالذى صدق به شخص معين ، أو قلنا المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، فإن أبا بكر داخل فيه» .

( أما على التقدير الأول ) فدخول أبى بكر فيه ظاهر ، وذلك لأن هذا يتناول أسبق الناس إلى التصديق ، وأجمعوا على أن الأسبق الأفضل إما أبو بكر وإما على ، وحمل هذا اللفظ على أبى بكر أولى ، لأن علياً عليه السلام كان وقت البعثة صغيراً ، فكان كالولد الصغير الذى يكون فى البيت ، ومعلوم أن إقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة . أما أبو بكر فإنه كان رجلا كبيراً فى السن كبيراً فى المنصب ، فإقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة فى الإسلام ، فكان حمل هذا اللفظ إلى أبى بكر أولى .

( وأما على التقدير الثانى ) فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخلا فيه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء وصدق بالتخفيف أى صدق به الناس ، ولم

يكذبهم يعنى أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف ، وقيل صار صادقاً به أى بسببه ، لأن القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من الحكيم الذى لا يفعل القبيح فيصير المدعى للرسالة صادقاً بسبب تلك المعجزة وقرىء وصدق

واعلم أنه تعالى أثبت للذى جاء بالصدق وصدق به أحكاماً كثيرة .

﴿ فالحكم الأول ﴾ قوله ( أولئك هم المتقون ) وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان ، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثانى أخس وأرذل ، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء ، والآتى بأحد الضدين يكون تاركا للضد الثانى ، فالآتى بالتوحيد الذى هو أفضل الأشياء يكون تاركا للشرك الذى هو أخس الأشياء وأرذلها ، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين .

﴿ الحكم الثانى ﴾ للمصدقين قوله تعالى ( لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ) ، وهذا الوعد يدخل فيه كل ما يرغب المكلف فيه ، فان قيل لاشك أن الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته ، وأهل الجنة لاشك أنهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية التى هى للأنبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنها خيرات عالية ودرجات كاملة ، والعلم بالشىء من حيث إنه كمال ، وخير يوجب الميل إليه والرغبة فيه ، وإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية ، وأيضاً فان لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا فى الغصة ووحشة القلب ، وأجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب أهل الآخرة ، وذلك يقتضى أن أحوالهم فى الآخرة بخلاف أحوالهم فى الدنيا ، ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة ، قالوا إن الذين يعتقدون أنهم يرون الله تعالى لاشك أنهم داخلون تحت قوله تعالى (وصدق به) لأنهم صدقوا الأنبياء عليهم السلام ، ثم إن ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب أن يحصل له ذلك لقوله تعالى ( لهم ما يشاءون عند ربهم ) فان قالوا لانسلم أن أهل الجنة يشاءون ذلك ، قلنا هذا باطل لأن الرؤية أعظم وجوه التجلى وزوال الحجاب ، ولا شك أنها حالة مطلوبة لكل أحد نظراً إلى هذا الاعتبار ، بل لو ثبت بالدليل كون هذا المطلوب ممتنع الوجود لعينه فإنه يترك طلبه ، لا لأجل عدم المقتضى للطلب ، بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعاً فى نفسه ، فثبت أن هذه الشبهة قائمة والنص يقتضى حصول كل ما أرادوه وشاءوه فوجب حصولها .

واعلم أن قوله ( عند ربهم ) لا يفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والإخلاص كما فى قوله تعالى ( عند مليك مقتدر ) واعلم أن المعتزلة تمسكوا بقوله ( وذلك جزاء المحسنين ) على أن هذا الأجر مستحق لهم على إحسانهم فى العبادة .

﴿ الحكم الثالث ﴾ قوله تعالى ( ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ) فقوله ( لهم ما يشاءون عند ربهم ) يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه

وقوله ( ليكفر الله عنهم ) يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه ، فقيل المراد أنهم إذا صدقوا الأنبياء عليهم فيما أوتوا فان الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الإيمان ، ويوصل إليهم أحسن أنواع الثواب ، وقال مقاتل يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوى ، واعلم أن مقاتلا كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شيء من المعاصي مع الإيمان ، كما لا ينفع شيء من الطاعات مع الكفر ، واحتج بهذه الآية فقال إنها تدل على أن من صدق الأنبياء والرسل فانه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ولا يجوز حمل هذا الأسوإ على الكفر السابق ، لأن الظاهر من الآية يدل على أن التكفير إنما حصل فى حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التى يأتى بها بعد الإيمان ، فتكون هذه الآية تنصيصاً على أنه تعالى يكفر عنهم بعد إيمانهم أسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر .

﴿ الحكم الرابع ﴾ أنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى ( أليس الله بكاف عبده ) وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك فى النفوس والأمر كذلك ، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غنى عن كل الحاجات فهو تعالى عالم حاجات العباد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات ، وهو ليس بخيلا ولا محتاجاً حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد ، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات ، فلهذا قال ( أليس الله بكاف عبده ) ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال ( ويخوفونك بالذين من دونه ) يعنى لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثاً وباطلا ، قرأ أكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار أبى عبيدة لأنه قال له ( ويخوفونك ) روى أن قريشاً قالت للنبى ﷺ إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقرأ جماعة (عباده) بلفظ الجمع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحاً كفاه الغرق ، وإبراهيم النار ، ويونس بالإنجاء مما وقع له ، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك ، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى ( وهمت كل أمة برسولهم ) وكفاهم الله شر من عاداهم .

واعلم أنه تعالى لما أطنب فى شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هى الفصل الحق فقال ( ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل ) يعنى هذا الفضل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله ( أليس الله بعزيز ذى انتقام ) تهديد للكفار .

واعلم أن أصحابنا يتمسكون فى مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله ( ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فماله من مضل ) والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

---

على صحة مذهبهم فى هاتين المسألتين بقوله ( أليس الله بعزيز ذى انتقام ) ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به .

قوله تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته . قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ، قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون ، من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أطنب فى وعيد المشركين وفى وعد الموحدين ، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام ، وبنى هذا التزييف على أصلين :

﴿ الأصل الأول ﴾ هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله ( ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ) واعلم أن من الناس من قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه ، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل فى عجائب أحوال السموات والأرض وفى عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفى عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة ، علم أنه لابد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم .

(والأصل الثانى) أن هذه الأصنام لاقدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله ( قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ) فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم ، وثبت أن هذه الأصنام لاقدرة لها على الخير والشر ، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية ، وكان الاعتماد عليه كافياً وهو المراد من قوله (قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

---

إلى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) وقرئ (كاشفات ضره ، وممسكات رحمته) بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف ، فإن قيل كيف قوله (كاشفات) و (ممسكات) على التأنيث بعد قوله (ويخوفونك بالذين من دونه) ؟ قلنا المقصود التنبيه على كمال ضعفها فإن الأنوثة مظنة الضعف ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة ، ولما أورد الله عليهم هذه الحجة التي لا دفع لها قال بعده على وجه التهديد (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) أي أنتم تعتقدون في أنفسكم أنكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم ، فإني عامل أيضاً في تقرير ديني (فسوف تعلمون) أن العذاب والخزي يصيبني أو يصيبكم والمقصود منه التخويف .

**قوله تعالى :** ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ، الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ في الآية مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ اعلم أن النبي ﷺ كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا) وقال (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وقال تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فلما أطنب الله تعالى في هذه الآية في فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل

ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول ﷺ فقال ( إنا أنزلنا عليك الكتاب ) الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا إنزاله مقروناً بالحق وهو المعجز الذى يدل على أنه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود إليه ، ومن ضل فضير ضلاله يعود إليه ( وما أنت عليهم بوكيل ) والمعنى أنك لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم ، وذلك لتسلية الرسول فى إصرارهم على الكفر ، ثم بين تعالى أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، وذلك لأن الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم ، وكما أن الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان إلا بتخليق الله عز وجل وإيجاده فكذلك الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى فى القدر ، ومن عرف سر الله فى القدر هانت عليه المصائب ، فيصير التنبيه على هذه الدقيقة سبباً لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا وجه النظم فى الآية ، وقيل نظم الآية أنه تعالى ذكر حجة أخرى فى إثبات أنه الإله العالم ليدل على أنه بالعبادة أحق من هذه الأصنام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المقصود من الآية أنه تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم إلا أنه يمسك الأنفس التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى وهى النائمة إلى أجل مسمى أى إلى وقت ضربه لموتها فقوله تعالى ( الله يتوفى الأنفس حين موتها ) يعنى أنه تعالى يتوفى الأنفس التى يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها إلى البدن وقوله ( ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ) يعنى أن النفس التى يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة إلى أجل مسمى ، وذلك الأجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهى مطابقة للحقيقة ، ولكن لابد فيه من مزيد بيان ، فنقول النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحانى إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه فى جميع الأعضاء وهو الحياة ، فنقول إنه فى وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت . وأما فى وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ، وإذا ثبت هذا ظهر أن القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه ( أحدها ) أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك اليقظة ( وثانيها ) أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم ( وثالثها ) أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت فثبت أن الموت والنوم يشتركان فى كون كل واحد منهما توفياً للنفس ، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة فى صفات معينة ، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم ، وهو المراد من قوله ( إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ) ويحتمل أن يكون المراد بهذا أن الدليل يدل على أن الواجب على العاقل أن يعبد إلهاً موصوفاً بهذه القدرة وبهذه الحكمة

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

---

وأن لا يعبد الأوثان التى هى جمادات لا شعور لها ولا إدراك ، واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا ، فقالوا نحن لانعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين ، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال (أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ) وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها (والأول) باطل لأن هذه الجمادات وهى الأصنام لا تملك شيئاً ولا تعقل شيئا فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها (والثانى) باطل لأن فى يوم القيامة لا يملك أحد شيئاً ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع فى الحقيقة هو الله الذى يأذن فى تلك الشفاعة ، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى ( قل لله الشفاعة جميعاً ) ثم بين أنه لا ملك لأحد غير الله بقوله ( له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ) ومنهم من تمسك فى نفى الشفاعة مطلقاً بقوله تعالى ( قل لله الشفاعه جميعاً ) وهذا ضعيف لأنا نسلم أنه سبحانه مالم يأذن فى الشفاعة لم يقدر أحد على الشفاعة ، فان قيل قوله ( الله يتوفى الأنفس حين موتها ) فيه سؤال لأن هذا يدل على أن المتوفى هو الله فقط ، وتأكد هذا بقوله ( الذى خلق الموت والحياة ) وبقوله ( ربى الذى يحيى ويميت ) وبقوله ( كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ) ثم إن الله تعالى قال فى آية أخرى ( قل يتوفاكم ملك الموت ) وقال فى آية ثالثة ( حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ) وجوابه أن المتوفى فى الحقيقة هو الله ، إلا أنه تعالى فوض فى عالم الأسباب كل نوع من أنواع الأعمال إلى ملك من الملائكة ، ففوض قبض الأرواح إلى ملك الموت وهو رئيس وتحته أتباع وخدم فأضيف التوفى فى هذه الآية إلى الله تعالى بالإضافة الحقيقية ، وفى الآية الثانية إلى ملك الموت لأنه هو الرئيس فى هذا العمل وإلى سائر الملائكة لأنهم هم الأتباع لملك الموت والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، ولو أن الذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين . وهو أنك إذا ذكرت الله وحده تقول لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة فى قلوبهم وصدورهم ، وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام التى هى الجمادات الخسيسة ، فهو رأس الجهالات والحماقات ، فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الأصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد ، قال صاحب الكشاف وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية فى بابه لأن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى يظهر أثر ذلك السرور فى بشرة وجهه ويتهلل ، والاشمئزاز أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب فيبقى فى أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية ، ولما حكى عنهم هذا الأمر العجيب الذى تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بأمرين ( أحدهما ) أنه ذكر الدعاء العظيم ، فوصفه أولا بالقدرة التامة وهى قوله ( قل اللهم فاطر السموات والأرض ) وثانياً بالعلم الكامل وهو قوله تعالى عالم الغيب والشهادة ، وإنما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم لأن العلم بكونه تعالى قادراً متقدم على العلم بكونه عالماً ، ولما ذكر هذا الدعاء قال ( أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ) يعنى أن نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك أمر معلوم الفساد ببديهة العقل ، ومع ذلك ، القوم قد أصروا عليه ، فلا يقدر أحد على إزالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل إلا أنت . عن أبى سلمة قال : سألت عائشة بم كان يفتتح رسول الله ﷺ صلاته بالليل ؟ قالت « كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما أختلف فيه من الحق بإذنك وانك لتهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر فى وعيدهم أشياء ( أولها ) أن هؤلاء

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ
عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ
أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ
هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

---

الكفار لو ملكوا كل مافى الأرض من الأموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد (وثانيها) قوله تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أى ظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن فى حسابهم ، وكما أنه ﷺ قال فى صفة الثواب فى الجنة «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» فكذلك فى العقاب حصل مثله وهو قوله (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) و(ثالثها) قوله تعالى (وبدا لهم سيئات ما كسبوا) ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيئات التى اكتسبوها أى ظهرت لهم أنواع من العقاب آثار تلك السيئات التى اكتسبوها . ثم قال (وحاق بهم) من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به ، فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم .

قوله تعالى : ﴿ فاذا مس الانسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ، قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون ، فأصابهم سيئات ما كسبوا ، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وماهم بمعجزين ، أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة ، وذلك لأنهم عند الوقوع فى الضر الذى هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى ، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه ، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة ، وهى إما السعة فى المال أو العافية فى النفس ، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه وبسبب جهده وجده ، فإن كان مالا قال إنما حصل بكسبى ، وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلانى ، وهذا تناقض عظيم ، لأنه كان فى حال العجز والحاجة أضاف الكا

إلى الله ، وفى حال السلامة والصحة قطعه عن الله ، وأسنده إلى كسب نفسه ، وهذا تناقض قبيح ، فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة ، فقال (بل هى فتنة) يعنى النعمة التى خولها هذا الكافر فتنة ، لأن عند حصولها يجب الشكر ، وعند فواتها يجب الصبر ، ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتى النعمة ، كما يقال فتنت الذهب بالنار ، إذا عرضته على النار لتعرف خلاصته .

ثم قال تعالى ( ولكن أكثرهم لا يعلمون ) والمعنى ما قدمنا أن هذا التخويل إنما كان لأجل الاختبار . وبقى فى الآية أبحاث نذكرها فى معرض السؤال والجواب .

﴿ السؤال الأول ﴾ ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء ههنا ، وعطف مثلها فى أول السورة بالواو؟ (والجواب) أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء ، ثم ذكر بفاء التعقيب أنهم إذا وقعوا فى الضر والبلاء والتجأوا إلى الله تعالى وحده ، كان الفعل الأول مناقضاً للفعل الثانى ، فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون فى المناقضة الصريحة فى الحال ، وأنه ليس بين الأول والثانى فاصل مع أن كل واحد منهما مناقض للثانى ، فهذا هو الفائدة فى ذكر فاء التعقيب ههنا . فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم فى التناقض فى الحال ، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو لا بحرف الفاء .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما معنى التخويل ؟ (الجواب) التخويل هو التفضل ، يعنى نحن نتفضل عليه وهو يظن أنه إنما وجده بالاستحقاق .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما المراد من قوله ( إنما أوتيته على علم )؟ (الجواب ) يحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علم الله بكونى مستحقاً لذلك ، ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علمى بكونى مستحقاً له . ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علم لأجل ذلك العلم قدرت على اكتسابه مثل أن يكون مريضاً فيعالج نفسه ، فيقول إنما وجدت الصحة لعلمى بكيفية العلاج ، وإنما وجدت المال لعلمى بكيفية الكسب .

﴿ السؤال الرابع ﴾ النعمة مؤنثة ، والضمير فى قوله ( أوتيته ) عائد على النعمة ، فضمير التذكير كيف عاد إلى المؤنث ، بل قال بعده ( بل هى فتنة ) فجعل الضمير مؤنثاً فما السبب فيه ؟ (والجواب) أن التقدير حتى إذا خولناه شيئاً من النعمة ، فلفظ النعمة مؤنث ومعناها مذكر ، فلا جرم جاز الأمران .

قوله تعالى : ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ فما أغنى عنهم الضمير فى قالها راجع إلى قوله ( إنما أوتيته على علم عندى ) لأنها كلمة أو جملة من المقول ( والذين من قبلهم ) هم قارون وقومه حيث قال ( إنما أوتيته على علم ) عندى وقومه راضون به فكأنهم قالوها ، ويجوز أيضاً أن يكون فى الأمم الخالية قائلون مثلها .

ثم قال تعالى ( فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون ) أى ما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذى اكتسبوه من عذاب الله شيئاً بل أصابهم سيئات ما كسبوا ، ولما بين فى فى أولئك المتقدمين أنهم أصابهم سيئات ما كسبوا أى عذاب عقائدهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة قال ( وماهم بمعجزين ) أى لا يعجزوننى فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى ( أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ) يعنى : أو لم يعلموا أن الله تعالى هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويقبض تارة أخرى ، وقوله ( ويقدر ) أى ويقتر ويضيق ، والدليل عليه أنا نرى الناس مختلفين فى سعة الرزق وضيقه ، ولابد له من سبب ، وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله ، لأنا نرى العاقل القادر فى أشد الضيق ، ونرى الجاهل المريض الضعيف فى أعظم السعة ، وليس ذلك أيضاً لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك لأن فى الساعة التى ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر ، قد ولد فيه أيضاً عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الإنسان ، ويولد أيضاً فى تلك الساعة عالم من النبات ، فلما شاهدنا حدوث هذه الأشياء الكثيرة فى تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة فى السعادة والشقاوة ، علمنا أنه ليس المؤثر فى السعادة والشقاوة هو الطالع ، ولما بطلت هذه الأقسام ، علمنا أن المؤثر فيه هو الله سبحانه ، وصح بهذا البرهان العقلى القاطع على صحة قوله تعالى ( أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ) .
قال الشاعر :

فلا السعد يقضى به المشترى ... ولا النحس يقضى علينا زحل
ولكنه حكم رب السما ... وقاضى القضاة تعالى وجل

تم بعونه تعالى الجزء السادس والعشرون من التفسير الكبير للأمام الفخر الرازى رحمه الله تعالى ويتلوه الجزء السابع والعشرون وأوله تفسير قوله تعالى :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾

---

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ، أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ، أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ، بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب فى الوعيد أردفه بشرح كمال رحمته وفضله وإحسانه فى حق العبيد وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يعفو عن الكبائر ، فقالوا : إنا بينا فى هذا الكتاب أن عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين(١) قال تعالى ( وعباد الرحمن

---

(١) الصواب أن يقال « بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين إذا أضيف إلى الله تعالى ، كما فى الآية والآيتين اللتين استشهد بهما ، وإلا فإن هذا يعارضه قول الله تعالى ( ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ) فالذين يستهزئون برسل الله ليسوا بمؤمنين والذين يتحسر عليهم لم يذكروا فى معرض التعظيم وإنما ذكروا فى الذم والإهانة كما هو صريح الآية ولو صح ذلك لم يحتج إلى نعت العباد ووصفهم بصفات تقتضى المدح أو القدح ، فلفظ العباد يشمل المؤمن والكافر ، ولذا خصصه بالصفة .

الذين يمشون على الأرض هوناً ) وقال ( عيناً يشرب بها عباد الله ) ولأن لفظ العباد مذكور فى معرض التعظيم ، فوجب أن لا يقع إلا على المؤمنين ، إذا ثبت هـذا ظهر أن قوله ( يا عبادى ) مختص بالمؤمنين ، ولأن المؤمن هو الذى يعترف بكونه عبد الله ، أما المشركون فإنهم يسمون أنفسهم بعبد اللات والعزى وعبد المسيح . فثبت أن قوله (ياعبادى) لا يليق إلا بالمؤمنين ، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قال ( الذين أسرفوا على أنفسهم ) وهذا عام فى حق جميع المسرفين .

ثم قال تعالى ( إن الله يغفر الذنوب جميعاً ) وهذ يقتضى كونه غافراً لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين ، وذلك هو المقصود فان قيل هـذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها ، وإلا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعاً ، وأنتم لا تقولون به ، فما هو مدلول هذه الآية لاتقولون به ، والذى تقولون به لا تدل عليه هذه الآية ، فسقط الاستدلال ، وأيضاً إنه تعالى قال عقيب هذه الآية ( وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ) إلى قوله ( بغتة وأنتم لا تشعرون ) ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب قطعاً لما أمر عقيبه بالتوبة ، ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون ، وأيضاً قال ( أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله) ولو كانت الذنوب كلها مغفورة ، فأى حاجة به إلى أن يقول (يا حسرتا على مافرطت فى جنب الله) ؟ وأيضاً فلو كان المراد مايدل عليه ظاهر لفظ الآية لكان ذلك إغراء بالمعاصى وإطلاقاً فى الإقدام عليها ، وذلك لايليق بحكمة الله ، وإذا ثبت هذا وجب أن يحمل على أن يقال المراد منه التنبيه على أنه لايجوز أن يظن العاصى أنه لاخلاص له من العذاب البتة ، فان من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله ، إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة ، فمعنى قوله (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) أى بالتوبة والإنابة (والجواب) قوله الآية تقتضى كون كل الذنوب مغفورة قطعاً وأنتم لا تقولون به ، قلنا بل نحن نقول به ونذهب إليه ، وذلك لأن صيغة يغفر صيغة المضارع ، وهى للاستقبال ، وعندنا أن الله تعالى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعاً ، إما قبل الدخول فى نار جهنم ، وإما بعد الدخول فيها ، فثبت أن مايدل عليه ظاهر الآية فهو عين مذهبنا .

أما قوله لو صارت الذنوب بأسرها مغفورة لما أمر بالتوبة ، فالجواب أن عندنا التوبة واجبة وخوف العقاب قائم ، فإنا لانقطع بإزالة العقاب بالكلية ، بل نقول لعله يعفو مطلقاً ، ولعله يعذب بالنار مدة ثم يعفو بعد ذلك ، وبهذا الحرف يخرج الجواب عن بقية الأسئلة والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن هـذه الآية تدل على الرحمة من وجوه : ( الأول ) أنه سمى

المذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة ، واللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج ( الثانى ) أنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال ( ياعبادى الذين أسرفوا ) وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب ( الثالث ) أنه تعالى قال ( أسرفوا على أنفسهم) ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ماعادإليه بل هوعائد اليهم ، فيكفيهم من تلك الذنوب عود مضارها إليهم ، ولا حاجه إلى إلحاق ضرر آخر بهم ( الرابع ) أنه قال ( لا تقنطوا من رحمة الله ) نهاهم عن القنوط فيكون هذاأمراً بالرجاء والكريم إذا أمر بالرجاء فلايليق به إلا الكرم (الخامس) أنه تعالى قال أولا ( ياعبادى ) وكان الأليق أن يقول لاتقنطوا من رحمتى لكنه ترك هذا اللفظ وقال ( لاتقنطوا من رحمة الله ) لأن قولنا الله أعظم أسماء الله وأجلها ، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل ( السادس ) أنه لما قال ( لا تقنطوا من رحمة الله ) كان الواجب أن يقول إنه يغفر الذنوب جميعاً . ولكنه لم يقل ذلك ، بل أعاد اسم الله وقرن به لفظة إن المفيدة لأعظم وجوه التأكيد ، وكل ذلك يدل على المبالغة فى الوعد بالرحمن ( السابع ) أنه لو قال ( يغفر الذنوب ) لكان المقصود حاصلا لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال جميعاً وهذا أيضاً من المؤكدات ( الثامن ) أنه وصف نفسه بكونه غفوراً ، ولفظ الغفور يفيد المبالغة ( التاسع ) أنه وصف نفسه بكونه رحيما والرحمة تفيد فائدة على المغفرة فكان قوله ( إنه هو الغفور ) إشارة إلى إزالة موجبات العقاب ، وقوله ( الرحيم ) إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة والثواب ( العاشر ) أن قوله (إنه هو الغفور الرحيم) يفيد الحصر ، ومعناه أنه لا غفور ولا رحيم إلا هو ، وذلك يفيد الكمال فى وصفه سبحانه بالغفران والرحمة ، فهذه الوجوه العشرة مجموعة فى هذه الآية ، وهى بأسرها دالة على كمال الرحمة والغفران ، ونسأل الله تعالى الفوز بها والنجاة من العقاب بفضله ورحمته .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا فى سبب النزول وجوها ، قيل أنها نزلت فى أهل مكة فانهم قالوا يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس لم يغفر له ، وقد عبدنا وقتلنا فكيف نسلم ؟ وقيل نزلت فى وحشى قاتل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لاتقبل توبته ، فلما نزلت الآية أسلم ، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ فقال بل للمسلمين عامة وقيل نزلت فى أناس أصابوا ذنوباً عظاماً فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أشفقوا لا يقبل الله توبتهم ، وقيل نزلت فى عياش ابن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين أسلموا ثم فتنوا فافتتنوا وكان المسلمون يقولون فيهم لايقبل الله منهم توبتهم فنزلت هذه الآيات فكتبها عمر ، وبعث بها إليهم فأسلموا وهاجروا ، واعلم أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب فنزول هذه الآيات فى هذه الوقائع لايمنع من عمومها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ( ياعبادى ) بفتح الياء والباقون

وعاصم فى بعض الروايات بغير فتح وكلهم يقفون عليه باثبات الياء لأنها ثابتة فى المصحف ، إلا فى بعض رواية أبى بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء ، وقرأ أبو عمرو والكسائى تقنطوا بكسر النون والباقون بفتحها وهما لغتان ، قال صاحب الكشاف ، وفى قراءة ابن عباس ، وبن مسعود ( يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء ) .

ثم قال تعالى ( وأنيبوا إلى ربكم ) قال صاحب الكشاف أى وتوبوا إليه وأسلموا له أى وأخلصوا له العمل ، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع فى حصولها بغير توبة وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لاتحصل بدونه ، وأقول هذا الكلام ضعيف جداً لأن عندنا التوبة عن المعاصى واجبة فلم يلزم من ورود الأمر بها طعن فى الوعد بالمغفرة ، فان قالوا لو كان الوعد بالمغفرة حاصلا قطعاً لما احتيج إلى التوبة ، لأن التوبة إنما تراد لإسقاط العقاب ، فاذا سقط العقاب بعفو الله عنه فلا حاجة إلى التوبة . فنقول هذا ضعيف لأن مذهبنا أنه تعالى وإن كان يغفر الذنوب قطعاً ويعفو عنها قطعاً إلا أن هذا العفو والغفران يقع على وجهين تارة يقع ابتداء وتارة يعذب مدة فى النار ثم يخرجه من النار ويعفو عنه ، ففائدة التوبة إزالة هذا العقاب ، فثبت أن الذى قاله صاحب الكشاف ضعيف ولا فائدة فيه .

ثم قال ( واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ) واعلم أنه تعالى لما وعد بالمغفرة أمر بعد هذا الوعد بأشياء ( فالأول ) أمر بالإنابة وهو قوله تعالى ( وأنيبوا إلى ربكم ) و ( الثانى ) أمر بمتابعة الأحسن ، وفى المراد بهذا الأحسن وجوه ( الأول ) أنه القرآن ومعناه واتبعوا القرآن والدليل عليه قوله تعالى ( الله نزل أحسن الحديث كتاباً ) ( الثانى ) قال الحسن معناه ، والتزموا طاعة الله واجتنبوا معصية الله ، فإن الذى أنزل على ثلاثة أوجه ، ذكر القبيح ليجتنب عنه ، والأدون لئلا يرغب فيه ، والأحسن ليتقوى به ويتبع ( الثالث ) المراد بالأحسن الناسخ دون المنسوخ لأن الناسخ أحسن من المنسوخ ، لقوله تعالى ( ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ) ولأن الله تعالى لما نسخ حكما وأثبت حكما آخر كان اعتمادنا على المنسوخ .

ثم قال ( من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ) والمراد منه التهديد والتخويف والمعنى أنه يفجأ العذاب وأنتم غافلون عنه ، واعلم أنه تعالى لما خوفهم بالعذاب بين تعالى أن بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا يقولون فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلمات ( فالأول ) قوله تعالى ( أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أن تقول) مفعول له أى كراهة أن تقول ( ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله ) وأما تنكير لفظ النفس ففيه وجهان ( الأول ) يجوز أن تراد نفس ممتازة عن سائر النفوس لأجل اختصاصها بمزيد إضرار بما لاينفى رغبتها فى المعاصى ( والثانى ) يجوز أنه

يراد به الكثرة ، وذلك لأنه ثبت فى علم أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب وصف يناسبه يفيد الظن بأن ذلك الحكم معلل بذلك الوصف ، فقوله (ياحسرتا) يدل على غاية الأسف ونهاية الحزن وأنه مذكور عقيب قوله تعالى (على مافرطت فى جنب الله) والتفريط فى طاعة الله تعالى يناسب شدة الحسرة وهذا يقتضى حصول تلك الحسرة عند حصول هذا التفريط ، وذلك يفيد العموم بهذا الطريق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بإثبات الأعضاء لله تعالى استدلوا على إثبات الجنب بهذه الآية ، واعلم أن دلائلنا على نفى الأعضاء قد كثرت ، فلا فائدة فى الإعادة ، ونقول بتقدير أن يكون المراد من هذا الجنب عضواً مخصوصاً لله تعالى ، فإنه يمتنع وقوع التفريط فيه ، فثبت أنه لابد من المصير إلى التأويل وللمفسرين فيه عبارات ، قال ابن عباس يريد ضيعت من ثواب الله ، وقال مقاتل ضيعت من ذكر الله ، وقال مجاهد فى أمر الله ، وقال الحسن فى طاعة الله ، وقال سعيد بن جبير فى حق الله . واعلم أن الإكثار من هذه العبارات لا يفيد شرح الصدور وشفاء الغليل ، فنقول : الجنب سمى جنباً لأنه جانب من جوانب ذلك الشىء والشىء الذى يكون من لوازم الشىء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت هذه المشابهة بين الجنب الذى هو العضو وبين ما يكون لازماً للشىء وتابعاً له ، لاجرم حسن إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر والطاعة قال الشاعر :

أما تتقين الله جنب وامق ... له كبد حرا عليك تقطع

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (ياحسرتى) على الأصل و (يا حسرتاى) على الجمع بين العوض والمعوض عنه .

أما قوله تعالى (وإن كنت لمن الساخرين) أى أنه ما كان مكتفياً بذلك التقصير بل كان من المستهزئين بالدين ، قال قتادة لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ، ومحل وإن كنت نصب على الحال كأنه قال (فرطت فى جنب الله) وأنا ساخر أى فرطت فى حال سخريتى .

﴿ النوع الثانى ﴾ من الكلمات التى حكاها الله تعالى عن أهل العذاب أنهم يذكرونه بعد نزول العذاب عليهم قوله (أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) .

﴿ النوع الثالث ﴾ قوله (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) وحاصل الكلام أن هذا المقصر أتى بثلاثة أشياء (أولها) الحسرة على التفريط فى الطاعة (وثانيها) التعلل بفقد الهداية (وثالثها) بتمنى الرجعة ، ثم أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال التعلل بفقد الهداية باطل ، لأن الهداية كانت حاضرة والأعذار زائلة ، وهو المراد بقوله (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الزجاج بلى جواب النفى وليس فى الكلام لفظ النفى إلا أنه حصل

فيه معنى النفى ، لأن معنى قوله ( لو أن الله هدانى ) أنه ما هدانى ، فلا جرم حسن ذكر لفظة ( بلى ) بعده .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدى رحمه الله : القراءة المشهورة وافقة على التذكير فى قوله ( بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ) لأن النفس تقع على الذكر والأنثى فخوطب المذكر ، وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة أن النبى صلى الله علية وسلم كان يقرأ على التأنيث ، قال أبو عبيد لو صح هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم لكان حجة لا يجوز لأحد تركها ولكنه ليس بمسند ، لأن الربيع لم يدرك أم سلمة ، وأما وجه التأنيث فهو أنه ذكر النفس ، ولفظ النفس ورد فى القرآن فى أكثر الأمر على التأنيث بقوله ( سولت لى نفسى ، وإن النفس لأمارة بالسوء ، ويا أيتها النفس المطمئنة ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال القاضى هذه الآيات داله على صحة القول بالقدر من وجوه ( الأول ) أنه لا يقال : فلان أسرف على نفسه على وجه الذم إلا لما يكون من قبله ، وذلك يدل على أن أفعال العباد تحصل من قبلهم لا من قبل الله تعالى ، ( وثانيها ) أن طلب الغفران والرجاء فى ذلك أو اليأس لا يحسن إلا إذا كان الفعل فعل العبد ، ( وثالثها ) إضافة الإنابة والإسلام إليه من قبل أن يأتيه العذاب وذلك لا يكون إلا مع تمكنه من محاولتهما قبل نزول العذاب ، ومذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك ( ورابعها ) قوله تعالى ( واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ) وذلك لا يتم إلا بما هو المختار للاتباع (وخامسها) ذمه لهم على أنهم لا يشعرون بما يوجب العذاب وذلك لا يصح إلا مع التمكن من الفعل ، ( وسادسها ) قولهم ( يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله ) ولا يتحسر المرء على أمر سبق منه إلا وكان يصح منه أن يفعله ، (وسابعها) قوله تعالى ( على مافرطت فى جنب الله ) ومن لا يقدر على الإيمان كما يقول القوم ولا يكون الإيمان من فعله لا يكون مفرطاً ، ( وثامنها ) ذمه لهم بأنهم من الساخرين ، وذلك لا يتم إلا أن تكون السخرية فعلهم وكان يصح منهم أن لا يفعلوه ، ( وتاسعها ) قوله ( لو أن الله هدانى ) أى مكننى ( لكنت من المتقين ) وعلى هذا قولهم إذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه ، ( وعاشرها ) قوله ( لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ) وعلى قولهم لو رده الله أبداً كرة بعد كرة ، وليس فيه إلا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسناً ، ( والحادى عشر ) قوله تعالى موبخاً لهم ( بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ) فبين تعالى أن الحجة عليهم لله لا أن الحجة لهم على الله ، ولو أن الأمر كما قالوا لكان لهم أن يقولوا : قد جاءتنا الآيات ولكنك خلقت فينا التكذيب بها ولم تقدرنا على التصديق بها . (والثانى عشر) أنه تعالى وصفهم بالتكذيب والاستكبار والكفر على وجه الذم ولو لم تكن هذه الأشياء أفعالا لهم لما صح الكلام ، ( والجواب ) عنه أن هذه الوجوه معارضة ، بما أن القرآن مملوء من أن الله تعالى يضل ويمنع ويصدر منه اللين

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ



---

والقسوة والاستدراج ، ولما كان هذا التفسير مملوءاً منه لم يكن إلى الإعادة حاجة .

قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة إليس فى جهنم مثوى للمتكبرين . وينجى الله الذين اتقو بمفازتهم لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون ﴾ .

اعلم أن هذا نوع آخر من تقرير الوعيد والوعد ، أما الوعيد فقوله تعالى ( ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ) وفيه بحثان : ( أحدهما ) أن هذا التكذيب كيف هو ؟ والثانى أن هذا السواد كيف هو ؟

﴿ البحث الأول ﴾ عن حقيقة هذا التكذيب ، فنقول : المشهور أن الكذب هو الإخبار عن الشيء على خلاف ماهو عليه ، ومنهم من قال هذا القدر لا يكون كذباً بل الشرط فى كونه كذباً أن يقصد الإتيان بخبر يخالف المخبرعنه ، إذا عرفت هذا الأصل فنذكر أقوال الناس فى هذه الآية :

قال الكعبى : ويرد الجبر بأن هذه الآية وردت عقيب قوله (لو أن الله هدانى) يعنى أنه ماهدانى بل أضلنى ، فلما حكى الله عن الكفار ثم ذكر عقيبه (ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) وجب أن يكون هذا عائداً إلى ذلك الكلام المتقدم ، ثم روى عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما بال أقوام يصلون ويقرأون القرآن ، يزعمون أن الله كتب الذنوب على العباد ، وهم كذبة على الله ، والله مسود وجوههم » واعلم أن أصحابنا قالوا آخر الآية يدل على فساد هذا التأويل لأنه تعالى قال فى آخر الآية ( أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ) وهذا يدل على أن أولئك الذين صارت وجوههم مسودة أقوام متكبرون ، والتكبر لا يليق بمن يقول أنا لا أقدر على الخلق والإعادة والإيجاد ، وإنما القادر عليه هو الله سبحانه وتعالى ، أما الذين يقولون إن الله يريد شيئاً وأنا أريد بضده ، فيحصل مرادى ولا يحصل مراد الله ، فالتكبر بهذا القائل أليق ، فثبت أن هذا التأويل الذى ذكروه فاسد ، ومن الناس من قال إن هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى ، ومنهم من قال إنه مختص بمشركى العرب ، قال القاضى يجب حمل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة وكذلك كل من وصف الله بما لا يليق به نفياً وإثباتاً ، فأضاف إليه ما يجب تنزيهه عنه أو نزهه عما يجب أن يضاف إليه . فالكل منهم داخلون تحت هذه الآية ، لأنهم كلهم كذبوا على الله ، فتخصيص الآية بالمجبرة والمشبهة أو اليهود والنصارى لا يجوز ، واعلم أنا لو أجرينا هذه الآية على عمومها كما ذكره القاضى

لزمه تكفير الأمة ، لأنك لا ترى فرقة من فرق الأمة إلا وقد حصل بينهم اختلاف شديد فى صفات الله تعالى ، ألا ترى أنه حصل الاختلاف بين أبى هاشم وأهل السنة فى مسائل كثيرة من صفات الله تعالى ، ويلزم على قانون قول القاضى تكفير أحدهما ، فثبت أنه يجب أن يحمل الكذب المذكور فى الآية على ما إذا قصد الإخبار عن الشىء مع أنه يعلم أنه كاذب فيما يقول ، ومثال هذا كفار قريش فإنهم كانوا يصفون تلك الأصنام بالإلهية مع أنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنها جمادات ، وكانوا يقولون إن الله تعالى حرم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، مع أنهم كانوا ينكرون القول بأن الله حرم كذا وأباح كذا ، وكان قائله عالماً بأنه كذب وإذا كان كذلك فإلحاق مثل هذا الوعيد بهذا الجاهل الكذاب الضال المضل [يكون] مناسباً ، أما من لم يقصد إلا الحق والصدق لكنه أخطأ يبعد إلحاق هذا الوعيد به .

﴿ البحث الثانى ﴾ الكلام فى كيفية السواد الحاصل فى وجوههم ، والأقرب أنه سواد مخالف لسائر أنواع السواد ، وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله ، وأقول إن الجهل ظلمة ، والظلمة تتخيل كأنها سواد فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم ، وتحت هذا الكلام أسرار عميقة من مباحث أحوال القيامة . فلما ذكر الله هذا الوعيد أردفه بالوعد فقال ( وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ) الآية ، قال القاضى المراد به من اتقى كل الكبائر إذ لا يوصف بالاتقاء المطلق إلا من كان هذا حاله ، فيقال له : أمرك عجيب جداً فإنك قلت لما تقدم قوله تعالى ( لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ) وجب أن يحمل قوله ( ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ) على الذين قالوا ( لو أن الله هدانى ) فعلى هذا القانون لما تقدم قوله ( ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ) .

ثم قال تعالى بعده ( وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ) وجب أن يكون المراد هم الذين اتقوا ذلك الكذب ، فهذا يقتضى أن كل من لم يتصف بذلك الكذب أنه يدخل تحت ذلك الوعد المذكور بقوله ( وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ) وأن يكون قولك ( الذين اتقو ) المراد منه من اتقى كل الكبائر فاسداً ، فثبت أن التعصب يحمل الرجل العاقل على الكلمات المتناقضة ، بل الحق أن تقول المتقى هو الآتى بالاتقاء . والآتى بالاتقاء فى صورة واحدة آت بمسمى الاتقاء ، وبهذا الحرف قلنا الأمر المطلق لا يفيد التكرار ، ثم ذلك الاتقاء غير مذكور بعينه فى هذه اللفظة فوجب حمله على الاتقاء عن الشىء الذى سبق ذكره وهذا هو الكذب على الله تعالى ، فثبت أن ظاهر الآية يقتضى أن من اتقى عن تلك الصفة وجب دخوله تحت هذا الوعد الكريم .

ثم قال تعالى ( بمفازتهم ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم بمفازاتهم على الجمع ، والباقون بمفازتهم على التوحيد ، وحكى الواحدى عن الفراء أنه قال : كلاهما صواب ، إذ يقال فى الكلام

ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ
أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ
عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

---

قد تبين أمر القوم وأمور القوم ، قال أبو على الفارسى : الإفراد للمصدر ووجه الجمع أن المصادر قد تجمع إذا اختلفت أجناسها ، كقوله تعالى ( وتظنون بالله الظنونا ) ولا شك أن لكل متق نوعا آخر من المفازة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة ، فكأن المعنى أن النجاة فى القيامة حصلت بسبب فوزهم فى الدنيا بالطاعات والخيرات ، فعبر عن الفوز بأوقاتها ومواضعها .

ثم قال ( لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون ) والمراد أنه كالتفسير لتلك النجاة ، كأنه قيل كيف ينجيهم ؟ فقيل ( لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون ) وهذه كلمة جامعة لأنه اذا علم أنه لا يمسه السوء كان فارغ البال بحسب الحال عما وقع فى قلبه بسبب فوات الماضى ، فحينئذ يظهر أنه سلم عن كل الآفات ، ونسأل الله الفوز بهذه الدرجات بمنه وكرمه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب فى القيامة ، وتأكد هذا بقوله ( لا يحزنهم الفزع الأكبر ) .

قوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ، قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ، ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ .

واعلم أنه لما أطال الكلام فى شرح الوعد والوعيد عاد إلى دلائل الإلهية والتوحيد ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا فى سورة الأنعام أن أصحابنا تمسكوا بقوله تعالى ( الله خالق كل شىء ) على أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأطنبنا هناك فى الأسئلة والأجوبة ، فلا فائدة ههنا

فى الإعادة ، إلا أن الكعبى ذكر ههنا كلمات فنذكرها ونجيب عنها ، فقال إن الله تعالى مدح نفسه بقوله ( الله خالق كل شيء ) وليس من المدح أن يخلق الكفر والقبائح فلا يصح أن يحتج المخالف به ، وأيضاً فلم يكن فى صدر هذه الأمة خلاف فى أعمال العباد ، بل كان الخلاف بينهم وبين المجوس والزنادقة فى خلق الأمراض والسباع والهوام ، فأراد الله تعالى أن يبين أنها جمع من خلقه ، وأيضاً لفظة (كل ) قد لا توجب العموم لقوله تعالى ( وأوتيت من كل شيء ) ( تدمر كل شيء ) وأيضاً لو كانت أعمال العباد من خلق الله لما ضافها إليهم بقوله ( كفاراً حسداً من عند أنفسهم ) ولما صح قوله ( ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ) ولما صح قوله ( وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ) فهذا جملة ما ذكره الكعبى فى تفسيره ، وقال الجبائى : الله خالق كل شيء سوى أفعال خلقه التى صح فيها الأمر والنهى واستحقوا بها الثواب والعقاب ، ولو كانت أفعالهم خلقاً لله تعالى ماجاز ذلك فيه كما لا يجوز مثله فى ألوانهم وصورهم ، وقال أبو مسلم : الخلق هو التقدير لا الإيجاد ، فإذا أخبر الله عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلانى فقد قدر ذلك الفعل ، فيصح أن يقال إنه تعالى خلقه وإن لم يكن موجداً له .

واعلم أن الجواب عن هذه الوجوه قد ذكرناه بالاستقصاء فى سورة الأنعام ، فمن أراد الوقوف عليه فليطالع هذا الموضع من هذا الكتاب ، والله أعلم .

أما قوله تعالى ( وهو على كل شيء وكيل ) فالمعنى أن الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع ولا مشارك ، وهذا أيضاً يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، لأن فعل العبد لو وقع بتخليق العبد لكان ذلك الفعل غير موكول إلى الله تعالى ، فلم يكن الله تعالى وكيلا عليه ، وذلك ينافى عموم الآية .

ثم قال تعالى ( له مقاليد السموات والأرض ) والمعنى أنه سبحانه مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية ، لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذى بيده مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان ألقيت مقاليد الملك إليه وهى المفاتيح ، قال صاحب الكشاف : ولا واحد لها من لفظها ، وقيل مقليد ومقاليد ، وقيل مقلاد ومقاليد مثل مفتاح ومفاتيح ، وقيل إقليد وأقاليد ، قال صاحب الكشاف : والكلمة أصلها فارسية ، إلا أن القوم لما عربوها صارت عربية ،

واعلم أن الكلام فى تفسير قوله ( له مقاليد السموات والأرض ) قريب من الكلام فى قوله تعالى ( وعنده مفاتح الغيب ) وقد سبق الاستقصاء هناك ، قيل سأل عثمان رسول الله ﷺ عن تفسير قوله (له مقاليد السموات والأرض) فقال «ياعثمان ما سألنى عنها أحد قبلك ، تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر ، سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير » هكذا نقله صاحب الكشاف .

قوله تعالى : ﴿والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ صريح الآية يقتضى أنه لاخاسر إلا كافر ، وهذا يدل على أن كل من لم يكن كافراً فإنه لابد وأن يحصل له حظ من رحمة الله .

﴿المسألة الثانية﴾ أورد صاحب الكشاف سؤالا ، وهو أنه بم اتصل قوله (والذين كفروا) ؟ وأجاب عنه بأنه اتصل بقوله تعالى ( وينجى الله الذين اتقوا ) أى ينجى الله المتقين بمفازتهم ( والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ) واعترض ما بينهما أنه خالق للأشياء كلها ، وإن ( له مقاليد السموات والأرض ) وأقول هذا عندى ضعيف من وجهين ( الأول ) أن وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد ( الثانى ) أن قوله ( وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ) جملة فعلية ، وقوله ( والذين كفروا بآيات الله هم الخاسرون ) جملة إسمية ، وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لايجوز ، بل الأقرب عندى أن يقال إنه لما وصف الله تعالى نفسه بالصفات الإلهية والجلالية ، وهو كونه خالقاً للأشياء كلها ، وكونه مالكا لمقاليد السموات والارض بأسرها ، قال بعده : (والذين كفروا ) بهذه الآيات الظاهرة الباهرة (أولئك هم الخاسرون) .

ثم قال تعالى ( قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن عامر تأمروننى بنونين ساكنة الياء وكذلك هى فى مصاحف الشام ، قال الواحدى وهو الأصل ، وقرأ ابن كثير تأمرونى بنون مشددة على إسكان الأولى وإدغامها فى الثانية ، وقرأ نافع تأمرونى بنون واحدة خفيفة ، على حذف إحدى النونين والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة .

﴿المسألة الثانية﴾ (أفغير الله) منصوب بأعبد وتأمرونى اعتراض ، ومعناه : أفغير الله أعبد بأمركم ؟ وذلك حين قال له المشركون أسلم ببعض آلهتنا ونؤمن بإلهك ، وأقول نظير هذه الآية ، قوله تعالى ( قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ) وقد ذكرنا فى تلك الآية وجه الحكمة فى تقديم الفعل .

﴿المسألة الثالثة﴾ إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقاً للأشياء وبكون مالكا لمقاليد السموات والأرض ، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لاتضر ولا تنفع ، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة ، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة ، فقد بلغ فى الجهل مبلغاً لامزيد عليه ، فلهذا السبب قال ( أيها الجاهلون ) ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع .

قوله تعالى : ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين﴾ اعلم إن الكلام التام مع الدلائل القوية ، والجواب عن الشبهات فى مسألة الإحباط قد ذكرناه فى سورة البقرة فلا نعيده ، قال صاحب الكشاف قرىء ( ليحبطن عملك ) على

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ

البناء للمفعول وقرىء بالياء والنون أى : ليحبطن الله أو الشرك وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف أوحى إليه وإلى من قبله حال شركه على التعيين ؟ و ( الجواب ) تقدير الآية : أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم لئن أشركت ، كما تقول كسانا حلة أى كل واحد منا .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الفرق بين اللامين ؟ (الجواب) الأولى موطئة للقسم المحذوف والثانية لام الجواب .

﴿ السؤال الثالث ﴾ كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لايشركون ولاتحبط أعمالهم ؟ و ( الجواب ) أن قوله ( لئن أشركت ليحبطن عملك ) قضية شرطية والقضية الشرطية لايلزم من صدقها صدق جزأيها ألا ترى أن قولك لوكانت الخمسة زوجاً لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق ، قال الله تعالى ( لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ) ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما معنى قوله ( ولتكونن من الخاسرين ) ؟ و ( الجواب ) كما أن طاعات الأنبياء والرسل أفضل من طاعات غيرهم ، فكذلك القبائح التى تصدر عنهم فإنها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله تعالى ( إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ) فكان المعنى ضعف الشرك الحاصل منه ، وبتقدير حصوله منه يكون تأثيره فى جانب غضب الله أقوى وأعظم .

واعلم أنه تعالى لما قدم هذه المقدمات ذكر ماهو المقصود فقال ( بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ) ، والمقصود منه ما أمروه به من الإسلام ببعض آلهتهم ، كأنه قال إنكم تأمرونى بأن لاأعبد إلا غير الله لأن قوله ( قل أفغير الله تأمرونى أعبد ) يفيد أنهم عينوا عليه عبادة غير الله ، فقال الله إنهم بئسما قالوا ولكن أنت على الضد مما قالوا ، فلا تعبد إلا الله ، وذلك لأن قوله ( بل الله فاعبد ) يفيد الحصر . ثم قال ( وكن من الشاكرين ) على ماهداك إلى أنه لايجوز إلا عبادة الإله القادر عن الإطلاق العليم الحكيم ، وعلى ماأرشدك إلى أنه يجب الإعراض عن عبادة كل ماسوى الله .

قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدرة والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

---

إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا الرسول بعبادة الأصنام . ثم إنه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئاً آخر سواه ، بين أنهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاركة له المعبودية ، فقال ( وما قدروا الله حق قدره ) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج بعض الناس بهذه الآية على أن الخلق لايعرفون حقيقة الله ، قالوا لأن قوله (وما قدروا الله حق قدره) يفيد هذا المعنى إلا أنا ذكرنا أن هذا صفة حال الكفار فلا يلزم من وصف الكفار بأنهم ماقدروا الله حق قدره وصف المؤمنين بذلك ، فسقط هذا الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله ( وما قدروا الله حق قدره ) أى ماعظموه حق تعظيمه ، وهذه الآية مذكورة فى سور ثلاث ، فى سورة الأنعام ، وفى سورة الحج ، وفى هذه السورة .

واعلم أنه تعالى لما بين أنهم ماعظموه تعظيما لائقاً به أردفه بما يدل على كمال عظمته ونهاية جلالته ، فقال ( والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ) قال القفال ( وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ) كقول القائل وما قدرتنى حق قدرى وأنا الذى فعلت كذا وكذا ، أى لما عرفت أن حالى وصفتى هذا الذى ذكرت ، فوجب أن لاتحطنى عن قدرى ومنزلتى ، ونظيره قوله تعالى ( كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ) أى كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه فكذا ههنا ، والمعنى (وما قدروا الله حق قدره) إذ زعموا أن له شركاء وأنه لايقدر على إحياء الموتى مع أن الأرض والسموات فى قبضته وقدرته ، قال صاحب الكشاف الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته

والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز ، وكذلك ماروى أن يهودياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك ! فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً مما قال ، قال صاحب الكشاف وإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا مايفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول كل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة ، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام ولا تكتنهها الأذهان هينة عليه . قال ولانرى باباً فى علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ، فيقال له هل تسلم أن الأصل فى الكلام حمله على الحقيقه ، وأنه إنما يعدل عن الحقيقة إلى المجاز عند قيام الدلالة على أن حمله على حقيقته ممتنع ، فحينئذ يجب حمله على المجاز ، فإن أنكر هذا الأصل فحينئذ يخرج القرآن بالكلية عن أن يكون حجة ، فان لكل أحد أن يقول المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فأنا أحمل الآية على ذلك المقصود ، ولا ألتفت إلى الظواهر ، مثاله من تمسك بالآيات الواردة فى ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار ، قال المقصود بيان سعادات المطيعين وشقاوة المذنبين ، وأنا أحمل هذه الآيات على هذا المقصود ولا أثبت الأكل والشرب ولا سائر الأحوال الجسمانية ، ومن تمسك بالآيات الواردة فى إثبات وجوب الصلاة فقال المقصود منه إيجاب تنوير القلب بذكر الله ، فأنا أكتفى بهذا القدر ولا أوجب هذه الأعمال المخصوصة ، وإذا عرفت الكلام فى هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الأصولية والفروعية ، وحينئذ يخرج القرآن عن أن يكون حجة فى المسائل الأصولية والفروعية ، وذلك باطل قطعاً ، وأما إن سلم أن الأصل فى علم القرآن أن يعتقد أن الأصل فى الكلام حمله على حقيقته ، فان قام دليل منفصل على أنه يتعذر حمله على حقيقته ، فحينئذ يتعين صرفه إلى مجازه ، فان حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه إلى مجاز معين إلا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين . فنقول ههنا لفظ القبضة ولفظ اليمين حقيقة فى الجارحة المخصوصة ، ولا يمكنك أن تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى إلا إذا أقمت الدلالة على أن حمل هذه الألفاظ على ظواهرها ممتنع فحينئذ يجب حملها على المجازات ، ثم تبين بالدليل أن المعنى الفلانى يصح جعله مجازاً عن تلك الحقيقة ، ثم تبين بالدليل أن هذا المجاز أولى من غيره ، وإذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذى عليه تعويل أهل التحقيق فأنت ما أتيت فى هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب ، بل هو عين ماذكره أهل التحقيق ، فثبت أن الفرح الذى أظهره من أنه اهتدى إلى الطريق الذى لم يعرفه غيره طريق فاسد ، دال على قلة وقوفه على المعانى ، ولنرجع إلى الطريق الحقيقى فنقول لاشك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الأعضاء والجوارح ، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح

لله تعالى ، فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز ، فنقول إنه يقال فلان فى قبضة فلان إذا كان تحت تدبيره وتسخيره . قال تعالى (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) والمراد منه كونه مملوكا له ، ويقال هذه الدار فى يد فلان ، وفلان صاحب اليد ، والمراد من الكل القدرة ، والفقهاء يقولون فى الشروط وقبض فلان كذا وصار فى قبضته ، ولا يريدون إلا خلوص ملكه ، وإذا ثبت تعذر حمل هذه الألفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صوناً لهذه النصوص عن التعطيل ، فهذا هو الكلام الحقيقى فى هذا الباب ، ولنا كتاب مفرد فى إثبات تنزيه الله تعالى عن الجسمية والمكان ، سميناه بتأسيس التقديس ، من أراد الإطناب فى هذا الباب فليرجع إليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى تفسير ألفاظ الآية قوله ( والأرض ) المراد منه الأرضون السبع ، ويدل عليه وجوه ( الأول ) قوله ( جميعاً ) فان هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجمع ونظيره قوله (كل الطعام ) وقوله تعالى ( أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ) وقوله تعالى ( والنخل باسقات ) وقوله تعالى ( إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) فإن هذه الألفاظ الملحة باللفظ المفرد تدل على أن المراد منه الجمع فكذا ههنا ( والثانى ) أنه قال بعده ( والسموات مطويات ) فوجب أن يكون المراد بالأرض الأرضون ( الثالث ) أن الموضع موضع تعظيم وتفخيم فهذا مقتضى المبالغة ، وأما القبضة فهى المرة الواحدة من القبض ، قال تعالى ( فقبضت قبضة من أثر الرسول ) والقبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف ، ويقال أيضاً أعطنى قبضة من كذا ، يريد معنى القبضة تسمية بالمصدر ، والمعنى والأرضون جميعاً قبضته أى ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحد من قبضاته ، يعنى أن الأرضين مع ما لها من العظمة والبسطة لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته ، أما إذا أريد معنى القبضة ، فظاهر لأن المعنى أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة فإن قيل ما وجه قراءة من قرأ قبضته بالنصب ، قلنا جعل القبضة ظرفاً[1] وقوله ( مطويات ) من الطى الذى هو ضد النشر كما قال تعالى ( يوم نطوى السماء كطى السجل ) وعادة طاوى السجل أن يطويه بيمينه ، ثم قال صاحب الكشاف : وقيل قبضته ملكه ويمينه قدرته ، وقيل مطويات بيمينه أى مفنيات بقسمه لانه أقسم أن يقبضها ، ولما ذكر هذه الوجوه عاد إلى القول الأول بأنها وجوه ركيكة ، وأن حمل هذا الكلام على محض التمثيل أولى ، وبالغ فى تقرير هذا الكلام فأطنب ، وأقول إن حال هذا الرجل فى إقدامه على تحسين طريقته ، وتقبيح طريقة القدماء عجيب جداً ، فإنه إن كان مذهبه أنه يجوز ترك الظاهر اللفظ ، والمصير إلى المجاز من غير دليل فهذا طعن فى القرآن وإخراج له عن أن يكون حجة فى شىء ، وإن كان مذهبه أن الأصل فى الكلام الحقيقة ، وأنه لا يجوز العدول عنه إلا لدليل منفل ، فهذا هو الطريقة التى أطبق عليها جمهور المتقدمين ، فأين الكلام الذى يزعم أنه علمه ؟ وأين العلم الذى لم يعرفه غيره ؟ مع أنه وقع فى التأويلات

(١) يريد أنه منصوب نزع على الخافض والتقدير « فى قبضته » .

العسر والكلمات الركيكة ، فإن قالوا المراد أنه لما دل الدليل على أنه ليس المراد من لفظ القبضة واليمين هذه الأعضاء ، وجب علينا أن نكتفي بهذا القدر ولا نشتغل بتعيين المراد ، بل نفوض علمه إلى الله تعالى ، فنقول هذا هو طريق الموحدين الذين يقولون إنا نعلم ليس مراد الله من هذه الألفاظ هذه الأعضاء ، فأما تعيين المراد ، فإنا نفوض ذلك العلم إلى الله تعالى ، وهذا هو طريقة السلف المعرضين عن التأويلات ، فثبت أن هذه التأويلات التي أتى بها هذا الرجل ليس تحتها شيء من الفائدة أصلا ، والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما بين عظمته من الوجه الذي تقدم قال ( سبحانه وتعالى عما يشركون ) يعني أن هذا القادر القاهر العظيم الذي حارت العقول والألباب في وصف عظمته تنزه وتقدس عن أن تجعل الأصنام شركاء له في المعبودية ، فإن قيل السؤال على هذا الكلام من وجوه ( الأول ) أن العرش أعظم من السموات السبع والأرضين السبع ، ثم إنه قال في صفة العرش ( ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ) وإذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم ، فكيف يجوز تقدير عظمة الله بكونه حاملا للسموات والأرض ؟

﴿ السؤال الثاني ﴾ أن قوله (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) شرح حالة لا تحصل إلا في يوم القيامة ، والقوم ما شاهدوا ذلك ، فإن كان هذا الخطاب مع المصدقين للأنبياء فهم يكونون معترفين بأنه لا يجوز القول بجعل الأصنام شركاء لله تعالى ، فلا فائدة في إيراد هذه الحجة عليهم ، وإن كان هذا الخطاب مع المكذبين بالنبوة وهم ينكرون قوله ( والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ) فكيف يمكن الاستدلال به على إبطال القول بالشرك ؟ .

﴿ السؤال الثالث ﴾ حاصل القول في القبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الأجسام العظيمة ، وكما أن حفظها وإمساكها يوم القيامة ليس إلا بقدرة الله فكذلك الان ، فما الفائدة في تخصيص هذه الأحوال بيوم القيامة ؟ .

﴿ الجواب عن الأول ﴾ أن مراتب التعظيم كثيرة فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادراً على حفظ هذه الأجسام العظيمة ، ثم بعد تقرير عظمته بكونه قادراً على إمساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش .

﴿ الجواب عن الثاني ﴾ أن المقصود أن الحق سبحانه هو المتولي لإبقاء السموات والأرضين على وجوه العمارة في هذا الوقت ، وهو المتولي لتخريبها وإفنائها في يوم القيامة فذلك يدل على حصول قدرة تامة على الإيجاد والإعدام ، وتنبيه أيضاً على كونه غنياً على الإطلاق ، فإنه يدل على أنه إذا حاول تخريب الأرض فكأنه يقبض قبضة صغيرة ويريد إفناءها ، وذلك يدل على كمال الاستغناء .

﴿ الجواب عن الثالث ﴾ أنه إنما خصص تلك بيوم القيامة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته في الإيجاد عند عمارة الدنيا ، فكذلك ظهر كمال قدرته عند خراب الدنيا والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما قدر كمال عظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضاً على كمال قدرته وعظمته ، وذلك شرح مقدمات يوم القيامة لأن نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم ، فقال (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) واختلفوا فى الصعقة ، منهم من قال إنها غير الموت بدليل قوله تعالى فى موسى عليه السلام (وخر موسى صعقاً) مع أنه لم يمت ، فهذا هو النفخ الذى يورث الفزع الشديد ، وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد ، وهو المذكور فى سورة النمل فى قوله (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) وعلى هذا القول فنفخ الصور ليس إلا مرتين .

(والقول الثانى) أن الصعقة عبارة عن الموت والقائلون بهذا القول قالوا إنهم يموتون من الفزع وشدة الصوت ، وعلى هذا التقدير فالنفخة تحصل ثلاث مرات (أولها) نفخة الفزع وهى المذكورة فى سورة النمل (والثانية) نفخة الصعق (والثالثة) نفخة القيام وهما مذكورتان فى هذه السورة .

وأما قوله (إلا من شاء الله) ففيه وجوه (الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما : عند نفخة الصعق يموت من فى السموات ومن فى الأرض إلا جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ثم يميت الله ميكائيل وإسرافيل ويبقى جبريل وملك الموت ثم يميت جبريل .

(والقول الثانى) أنهم هم الشهداء لقوله تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون) وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش » .

(القول الثالث) قال جابر هذا المستثنى هو موسى عليه السلام لأنه صعق مرة فلا يصعق ثانياً .

(القول الرابع) أنهم الحور العين وسكان العرش والكرسى .

(والقول الخامس) قال قتادة الله أعلم بأنهم من هم ، وليس فى القرآن والأخبار ما يدل على أنهم من هم .

قوله تعالى : ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ وفيه أبحاث :

﴿الأول﴾ لفظ القرآن دل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الأولى ، لأن لفظ (ثم) يفيد التراخى ، قال الحسن رحمه الله القرآن دل على أن هذه النفخة الأولى ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم «أن بينهما أربعين» ولا أدرى أربعون يوماً أو شهراً أو أربعون سنة أو أربعون ألف سنة .

﴿الثانى﴾ قوله (أخرى) تقدير الكلام ونفخ فى الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه نفخة أخرى ، وإنما حسن الحذف لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومة .

﴿الثالث﴾ قوله (فإذا هم قيام) يعنى قيامهم من القبور يحصل عقيب هذه النفخة الأخيرة

فى الحال من غير تراخ لأن الفاء فى قوله ( فإذاهم ) تدل على التعقيب .

﴿ الرابع ﴾ قوله ( ينظرون ) وفيه وجهان ( الأول ) ينظرون يقلبون أبصارهم فى الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم ( والثانى ) ينظرون ماذا يفعل بهم ، ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والخمود فى مكان لأجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم .

ولما بين الله تعالى هاتين النفختين قال ( وأشرقت الأرض بنور ربها ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الأرض المذكورة ليست هى هذه الأرض التى يقعد عليها الآن بدليل قوله تعالى ( يوم تبدل الأرض غير الأرض ) وبدليل قوله تعالى ( وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ) بل هى أرض أخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المجسمة : إن الله تعالى نور محض ، فإذا حضر الله فى تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الأرض بنور الله ، وأكدوا هذا بقوله تعالى ( الله نور السموات والأرض ) .

واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه ( الأول ) أنا بينا فى تفسير قوله تعالى ( الله نور السموات والأرض ) أنه لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نوراً بمعنى كونه من جنس هذه الأنوار المشاهدة ، وبينا أنه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ النور ههنا على العدل ، فنحتاج ههنا إلى بيان أن لفظ النور قد يستعمل فى هذا المعنى ، ثم إلى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس إلا هذا المعنى ، أما بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للملك العادل أشرقت الآفاق بعدلك ، وأضاءت الدنيا بقسطك ، كما يقولون أظلمت البلاد بجورك ، وقال ﷺ « الظلم ظلمات يوم القيامة » وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط أنه قال ( وجىء بالنبيين والشهداء ) ومعلوم أن المجىء بالشهداء ليس إلا لإظهار العدل ، وأيضاً قال فى آخر الآية ( وهم لا يظلمون ) فدل هذا على أن المراد من ذلك النور إزالة ذلك الظلم ، فكأنه تعالى فتح هذه الآية بإثبات العدل وختمها بنفى الظلم ( والوجه الثانى ) فى الجواب عن الشبهة المذكورة أن قوله تعالى ( وأشرقت الأرض بنور ربها ) يدل على أنه يحصل هناك نور مضاف إلى الله تعالى ، ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى ، لأنه يكفى فى صدق الإضافة أدنى سبب ، فلما كان ذلك النور من خلق الله وشرفه بأن أضافه إلى نفسه كان ذلك النور نور الله ، كقوله : بيت الله ، وناقة الله وهذا الجواب أقوى من الأول ، لأن فى هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة والذهاب إلى المجاز .
( والوجه الثالث ) أنه قد يقال فلان رب هذه الأرض ورب هذه الدار ورب هذه الجارية ، ولا يبعد أن يكون رب هذه الأرض ملكا من الملوك ، وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نوراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى ذكر فى هذه الآية من أحوال ذلك اليوم أشياء : ( أولها ) قوله ( وأشرقت الأرض بنور ربها ) وقد سبق الكلام فيه ( وثانيها ) قوله ( ووضع الكتاب )

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾
قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

---

وفى المراد بالكتاب وجوه ( الاول ) أنه اللوح المحفوظ الذى يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت قيام القيامة ( الثانى ) المراد كتب الأعمال كما قال تعالى فى سورة سبحان ( وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ) وقال أيضاً فى آية أخرى ( مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ) ( وثالثها ) قوله ( وجيء بالنبيين ) والمراد أن يكونوا شهداء على الناس ، قال تعالى ( فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ) وقال تعالى ( يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ) (ورابعها) قوله (والشهداء) والمراد ما قاله فى ( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ) أو أراد بالشهداء المؤمنين ، وقال مقاتل : يعنى الحفظة ، ويدل عليه قوله تعالى ( وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ) وقيل أراد بالشهداء المستشهدين فى سبيل الله ، ولما بين الله تعالى أنه يحضر فى محفل القيامة جميع مايحتاج إليه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات ، بين تعالى أنه يوصل إلى كل أحد حقه ، وعبر تعالى عن هذا المعنى بأربع عبارات ( أولها ) قوله تعالى ( وقضى بينهم بالحق ) ( وثانيها ) قوله ( وهم لا يظلمون ) ( وثالثها ) قوله ( ووفيت كل نفس ما عملت ) أى وفيت كل نفس جزاء ما عملت ، (ورابعها ) قوله ( وهو أعلم بما يفعلون ) يعنى أنه تعالى إذا لم يكن عالماً بكيفيات أحوالهم فلعله لا يقضى بالحق لأجل عدم العلم ، أما إذا كان عالماً بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع دخول الخطأ فى ذلك الحكم ، فثبت أنه تعالى عبر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة ، والمقصود المبالغة فى تقرير أن كل مكلف فإنه يصل إلى حقه .

قوله تعالى :﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال فقال (ووفيت كل نفس ماعملت) بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب ، ثم كيفية أحوال أهل الثواب وختم السورة .

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ

أما شرح أحوال أهل العقاب فهو المذكور فى هذه الآية ، وهو قوله ( وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ) قال ابن زيدان : سوق الذين كفروا إلى جهنم يكون بالعنف والدفع ، والدليل عليه قوله تعالى ( يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ) أى يدفعون دفعاً ، نظيره قوله تعالى ( فذلك الذى يدع اليتيم ) أى يدفعه ، ويدل عليه قوله تعالى ( ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ) .

وأما الزمر ، فهى الأفواج المتفرقة بعض فى إثر بعض ، فبين الله تعالى أنهم يساقون إلى جهنم فإذا جاءوها فتحت أبوابها ، وهذا يدل على أن أبواب جهنم إنما تفتح عند وصول أولئك إليها ، فإذا دخلوا جهنم قال لهم خزنة جهنم ( ألم يأتكم رسل منكم ) أى من جنسكم ( يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ) فإن قيل فلم أضيف اليوم إليهم ؟ قلنا أراد لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار ، لا يوم القيامة ، واستعمال لفظ اليوم والأيام فى أوقات الشدة مستفيض ، فعند هذا تقول الكفار : بلى قد أتونا وتلوا علينا ( ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ) وفى هذه الآية مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تقدير الكلام أنه حقت علينا كلمة العذاب ، ومن حقت عليه كلمة العذاب فكيف يمكنه الخلاص من العذاب ، وهذا صريح فى أن السعيد لا ينقلب شقياً ، والشقى لا ينقلب سعيداً ، وكلمات المعتزلة فى دفع هذا الكلام معلومة ، وأجوبتنا عنها أيضاً معلومة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت الآية على أنه لا وجوب قبل مجىء الشرع ، لأن الملائكة بينوا أنه مابقى لهم علة ولا عذر بعد مجىء الأنبياء عليهم السلام ، ولو لم يكن مجىء الأنبياء شرطاً فى استحقاق العذاب لما بقى فى هذا الكلام فائدة ، ثم إن الملائكة إذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ) قالت المعتزلة : لو كان دخولهم النار لأجل أنه حقت عليهم كلمة العذاب لم يبق لقول الملائكة ( فبئس مثوى المتكبرين ) فائدة ، بل هذا الكلام إنما يبقى مفيداً إذا قلنا إنهم إنما دخلوا النار لأنهم تكبروا على الأنبياء ولم يقبلوا قولهم ، ولم يلتفتوا إلى دلائلهم ، وذلك يدل على صحة قولنا ، والله أعلم بالصواب .

قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقو ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب فى الآية المتقدمة ، شرح أحوال أهل الثواب فى هذه الآية ، فقال ( وسيق الذين اتقو ربهم إلى الجنة زمراً ) فإن قيل السوق فى أهل النار للعذاب معقول ، لأنهم لما أمروا بالذهاب إلى موضع العذاب والشقاوة لابد وأن يساقوا إليه ، وأما أهل الثواب فإذا أمروا بالذهاب إلى موضع الكرامة والراحة والسعادة ، فأى حاجة فيه إلى السوق ؟

والجواب من وجوه ( الأول ) أن المحبة والصداقة باقية بين المتقين يوم القيامة كما قال تعالى : ( الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ) فإذا قيل لواحد منهم إذهب إلى الجنة فيقول : لا أدخلها حتى يدخلها أحبائى وأصدقائى فيتأخرون لهذا السبب ، فحينئذ يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة ( والثانى ) أن الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار ، فتصير شدة استغراقهم فى مشاهدة مواقف الجلال والجمال مانعة لهم عن الرغبة فى الجنة ، فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقو إلى الجنة ( والثالث ) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أكثر أهل الجنة البله وعليون للأبرار » فلهذا السبب يساقون إلى الجنة ( والرابع ) أن أهل الجنة وأهل النار يساقون إلا أن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسير إذ سيق إلى الحبس والقيد ، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على الملوك ، فشتان ما بين السوقين .

ثم قال تعالى ( حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ) الآية ، واعلم أن جملة هذا الكلام شرط واحد مركب من قيود : ( القيد الأول ) هو مجيئهم إلى الجنة ( والقيد الثانى ) قوله تعالى ( وفتحت أبوابها ) فإن قيل قال أهل النار فتحت أبوابها بغير الواو ، وقال ههنا بالواو فما الفرق ؟ قلنا الفرق أن أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، فأما أبواب الجنة ففتحها يكون متقدماً على وصولهم إليها بدليل قوله ( جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ) فلذلك جيء بالواو كأنه قيل : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها . ( القيد الثالث ) قوله ( وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ) فبين تعالى أن خزنة الجنة يذكرون لأهل الثواب هذه الكلمات الثلاث ( فأولها ) قولهم ( سلام عليكم ) وهذا يدل على أنهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات

( وثانيها ) قولهم (طبتم) والمعنى طبتم من دنس المعاصى وطهرتم من خبث الخطايا ( وثالثها ) قولهم ( فادخلوها خالدين ) والفاء فى قوله ( فادخلوها ) يدل على كون ذلك الدخول معللا بالطيب والطهارة ، قالت المعتزلة هذا يدل على أن أحداً لا يدخلها إلا إذا كان طاهراً عن كل المعاصى ، قلنا هذا ضعيف لأنه تعالى يبدل سيئاتهم حسنات ، وحينئذ يصيرون طيبين طاهرين بفضل الله تعالى ، فإن قيل فهذا الذى تقدم ذكره هو الشرط فأين الجواب ؟ قلنا فيه وجهان ( الأول ) أن الجواب محذوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ فى الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره ( الثانى ) أن الجواب هو قوله تعالى ( وقال لهم خزنتها سلام عليكم ) والواو محذوف ، والصحيح هو الأول ، ثم أخبر الله تعالى بأن الملائكة إذا خاطبوا المتقين بهذه الكلمات ، قال المتقون عند ذلك ( الحمد لله الذى صدقنا وعده ) فى قوله ( أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، وأورثنا الأرض ) والمراد بالأرض أرض الجنة ، وإنما عبر عنه بالإرث لوجوه ( الأول ) أن الجنة كانت فى أول الأمر لآدم عليه السلام ، لأنه تعالى قال (فكلا منها رغداً حيث شئتما ) فلما عادت الجنة إلى أولاد آدم كان ذلك سبباً لتسميتها بالإرث ( الثانى ) أن هذا اللفظ مأخوذ من قول القائل : هذا أورث كذا وهذا العمل أورث كذا فلما كانت طاعتهم قد أفادتهم الجنة ، لا جرم قالوا ( وأورثنا الأرض ) والمعنى أن الله تعالى أورثنا الجنة بأن وفقنا للاتيان بأعمال أورثت الجنة ( الثالث ) أن الوارث يتصرف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع فكذلك المؤمنون المتقون يتصرفون فى الجنة كيف شاءوا وأرادوا ، والمشابهة علة حسن المجاز فإن قيل ما معنى قوله (حيث نشاء) وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره ؟ قلنا يكون لكل أحد جنة لا يحتاج معها إلى جنة غيره ، قال حكماء الاسلام : الجنات نوعان ، الجنات الجسمانية والجنات الروحانية فالجنات الجسمانية لاتحتمل المشاركة فيها ، أما الروحانيات فحصولها لواحد لايمنع من حصولها للآخرين ، ولما بين الله تعالى صفة أهل الجنة قال ( فنعم أجر العاملين ) قال مقاتل ليس هذا من كلام أهل الجنة ، بل من كلام الله تعالى لأنه لما حكى ماجرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنة قال بعده ( فنعم أجر العاملين ) ولما قال تعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش ) ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال كما أن دار ثواب المتقين المؤمنين هى الجنة ، فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش وأطرافه ، فلهذا قال (وترى الملائكة حافين من حول العرش) أى محدقين بالعرش . قال الليث : يقال حف القوم بسيدهم يحفون حفاً إذا طافوا به .

إذا عرفت هذا ، فنقول بين تعالى أن دار ثوابهم هو جوانب العرش وأطرافه ثم قال ( يسبحون بحمد ربهم ) وهذا مشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التحميد والتسبيح ، وحينئذ رجع حاصل الكلام إلى أن أعظم درجات الثواب استغراق قلوب العباد فى درجات التنزيه ومنازل التقديس .

ثم قال (وقضى بينهم بالحق) والمعنى أنهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوته ، فلكل واحد

منهم فى درجات المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه ، وهو المراد من قوله ( وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين ) أى الملائكة لما قضى بينهم بالحق قالوا ( الحمد لله رب العالمين ) على قضائه بيننا بالحق ، وههنا دقيقة أعلى مما سبق وهى أنه سبحانه لما قضى بينهم بالحق ، فهم ماحمدوه لأجل ذلك القضاء ، بل حمدوه بصفته الواجبة وهى كونه رباً للعالمين ، فإن من حمد المنعم لأجل أن إنعامه وصل إليه فهو فى الحقيقة ما حمد المنعم وإنما حمد الإنعام ، وأما من حمد المنعم لا لأنه وصل إليه النعمة فهنا قد وصل إلى لجة بحر التوحيد ، هذا إذا قلنا أن قوله (وترى الملائكة حافين من حول العرش) شرح أحوال الملائكة فى الثواب ، أما إذا قلنا أنه من بقية شرح ثواب المؤمنين ، فتقريره أن يقال إن المتقين لما قالوا ( الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ) فقد ظهر منهم أنهم فى الجنة اشتغلوا بحمد الله وبذكره بالمدح والثناء ، فبين تعالى أنه كما أن حرفة المتقين فى الجنة الاشتغال بهذا التحميد والتمجيد . فكذلك حرفة الملائكة الذين هم حافون حول العرش الاشتغال بالتحميد والتسبيح ، ثم إن جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة ، وحينئذ يظهر منه أن المؤمنين المتقين . وأن الملائكة المقربين يصيرون متوافقين على الاستغراق فى تحميد الله وتسبيحه ، فكان ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بذلك التسبيح والتحميد .

ثم قال ( وقضى بينهم بالحق ) أى بين البشر ، ثم قال ( وقيل الحمد لله رب العالمين ) والمعنى أنهم يقدمون التسبيح ، والمراد منه تنزيه الله عن كل مالا يليق بالإلهية .

وأما قوله تعالى ( وقيل الحمد لله رب العالمين ) فالمراد وصفه بصفات الإلهية ، فالتسبيح عبارة عن الاعتراف بتنزيهه عن كل مالا يليق به وهو صفات الجلال ، وقوله ( وقيل الحمد لله رب العالمين ) عبارة عن الإقرار بكونه موصوفاً بصفات الإلهية وهى صفات الإكرام ، ومجموعهما هو المذكور فى قوله ( تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ) وهو الذى كانت الملائكة يذكرونه قبل خلق العالم وهو قولهم ( ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ) وفى قوله ( وقيل الحمد لله رب العالمين ) دقيقة أخرى وهى أنه لم يبين أن ذلك القائل من هو ، والمقصود من هذا الإبهام التنبيه ، على أن خاتمة كلام العقلاء فى الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس إلا أن يقولوا ( الحمد لله رب العالمين) وتأكد هذا بقوله تعالى فى صفة أهل الجنة (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

قال المصنف رحمه الله تعالى : تم تفسير هذه السورة فى ليلة الثلاثاء آخر ذى القعدة من سنة ثلاث وستمائة . يقول مصنف هذا الكتاب الملائكة المقربون عجزوا عن إحصاء ثنائك ، فمن أنا ، والأنبياء المرسلون اعترفوا بالعجز والقصور ، فمن أنا ، وليس معى إلا أن أقول أنت أنت وأنا أنا ، فمنك الرحمة والفضل والجود والإحسان ، ومنى العجز والذلة والخيبة والخسران ، يارحمن ياديان ياحنان يامنان أفض على سجال الرحمة والغفران برحمتك ياأرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين ، وسلم تسليما كثيراً .

# سورة الزُّمَر

ويقال: سورة الغرف. قال وهب بن مُنبِّه: مَن أحبَّ أن يعرفَ قضاءَ الله عز وجل في خَلْقه فَلْيقرَأ سورة الغرف(1). وهي مكيةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. وقال ابن عباس: إلا آيتين نزلتا بالمدينة؛ إحداهما: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الآية: 23] والأُخرى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [53]. وقال آخرون: إلا سبعَ آيات؛ من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشيٍّ وأصحابه على ما يأتي(2).

روى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ «الزمر» وبني إسرائيل(3). وهي خمسٌ وسبعون آية(4). وقيل: اثنتان وسبعون آية(5).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ① إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ③ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ④﴾

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

---

(1) معاني القرآن للنحاس 6/ 147.

(2) النكت والعيون 5/ 113، وينظر زاد المسير 7/ 160.

(3) سنن الترمذي (3405).

(4) تفسير البغوي 4/ 71.

(5) ذكره السيوطي في الإتقان 1/ 214.

ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى: هذا تنزيلٌ، قاله الفراء[١]. وأجاز الكسائي والفراء أيضاً «تَنْزِيلَ» بالنصب على أنه مفعول به[٢]. قال الكسائي: أي: اتَّبِعوا واقرؤوا «تنزِيلَ الكتاب». وقال الفراء: هو على الإغراء، مثل قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٤] أي: الزموا[٣]. والكتاب القرآن سُمِّي بذلك لأنه مكتوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: هذا تنزيلُ الكتاب من الله، وقد أنزلناه بالحقّ؛ أي: بالصِّدق، وليس بباطل وهَزْل.

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾ فيه مسألتان:

**الأولى**: «مُخْلِصاً» نصب على الحال، أي: مُوحِّداً لا تُشرك به شيئاً ﴿لَّهُ ٱلدِّينَۚ﴾ أي: الطاعة. وقيل: العبادة[٤]. وهو مفعول به.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أي: الذي لا يَشوبه شيء. وفي حديث الحسن عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، إني أَتصدَّق بالشيء، وأصنع الشيء أُريد به وجهَ الله وثَناءَ الناس. فقال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يقبلُ اللهُ شيئاً شُورك فيه» ثم تلا رسولُ الله ﷺ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[٥].

وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» و«النساء» و«الكهف» مستوفىً[٦].

**الثانية**: قال ابن العربي[٧]: هذه الآيةُ دليلٌ على وجوب النية الخالصة[٨] في كل عمل، وأعظمُه الوضوء الذي هو شَطْر الإيمان، خلافاً لأبي حنيفة والوليد بن مسلم

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤١٤ .
(٢) قرأ بها عيسى بن عمر وإبراهيم بن أبي عبلة، كما في القراءات الشاذة ص١٣١ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٤ .
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ ، والحديث لم نقف عليه.
(٦) ٤/ ٣٢٣ - ٣٢٤ و٦/ ٢٩٧ وما بعدها و١٣/ ٣٩٨ وما بعدها.
(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٤ .
(٨) قوله: الخالصة، ليس في (م) ولا في أحكام القرآن.

عن مالك اللَّذَيْن يقولان: إن الوضوء يكفي من غير نية، وما كان ليكون من الإيمان شطراً، ولا لِيُخرِجَ الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني الأصنام، والخبر محذوف. أي: قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[1] قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم: مَن ربُّكم وخالقُكم؟ ومَن خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماءً؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم الأصنامَ؟ قالوا: ليُقرِّبونا إلى الله زُلفى، ويشفعوا لنا عنده[2].

قال الكلبي: جواب هذا الكلام في «الأحقاف»: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ [الآية:٢٨] والزُّلفى القُربة؛ أي: لِيقرِّبونا إليه تقريباً، فوضع «زُلْفَى» في موضع المصدر[3].

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد: «والذين اتَّخذُوا مِنْ دُونِهِ أوْلياءَ قالوا ما نَعبُدُهم إلَّا لِيقرِّبونا إلى الله زُلْفَى» وفي حرف أُبَيّ: «والذين اتَّخذُوا مِنْ دُونه أوْلياءَ ما نَعْبُدُكُمْ إلَّا لِتُقرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى» ذكره النحاس[4]. قال: والحكاية في هذا بيِّنة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بين أهل الأديان يومَ القيامة فيُجازي كلّاً بما يستحقّ[5]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أي: مَنْ سبق له القضاء بالكُفر لم يهتدِ؛ أي: للدِّين الذي ارتضاه، وهو دين الإسلام؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣] وفي هذا ردٌّ على القدرية وغيرهم على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: لو أراد

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤.

(٤) في معاني القرآن ٦/ ١٥٠ – ١٥١، وذكرالقراءتين ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥١٨.

(٥) زاد المسير ٧/ ١٦٢.

أن يُسمِّيَ أحداً من خَلْقه بهذا ما جعله عزَّ وجلَّ إليهم. ﴿سُبْحَٰنَهُۥۖ﴾ أي: تنزيهاً له عن[1] الولد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ﴾ أي: هو القادرُ على الكمال، المُستغني عن الصاحبة والولد، ومَن كان هكذا فحقُّه أن يُفرَدَ بالعبادة، لا أنه يُشرَكُ به. ونبَّه بهذا على أن له أن يَتعبَّد العباد بما شاء، وقد فعل.

قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ﴾ قال الضحاك: أي: يُلقي هذا على هذا وهذا على هذا. وهذا على معنى التكوير في اللغة[2]، وهو طرح الشيء بعضه على بعض؛ يقال: كوَّر المَتاع، أي: ألقى بعضَه على بعض؛ ومنه كَوْر العِمامة[3].

وقد رُوي عن ابن عباس [غير] هذا في معنى الآية. قال: ما نقصَ من الليل دخلَ في النهار، وما نقصَ من النهار دخلَ في الليل[4]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١].

وقيل: تكوير الليل على النهار: تَغْشيته إيَّاه حتى يُذهِبَ ضوءَه، ويُغشي النهار

---

(١) في النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس (والكلام منه) ٤/ ٤ : من، والمثبت من (م).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ .

(٣) زاد المسير ٧/ ١٦٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ ، وما بين حاصرتين منه.

على الليل فَيُذهب ظُلمته، وهذا قول قتادة[١]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: بالطُّلوع والغُروب لمنافع العباد. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: في فَلَكه إلى أن تنصرمَ الدنيا، وهو يومُ القيامة حتى[٢] تنفطر السماء وتنتثر الكواكب. وقيل: الأجلُ المسمى هو الوقتُ الذي ينتهي فيه سَيْرُ الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لِغُروبها وطُلوعها.

قال الكلبي: يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يُجاوزانه. وقد تقدَّم بيانُ هذا في سورة «يَس»[٣]. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ «ألا» تنبيه، أي: تنبَّهوا، فإني أنا «العزيزُ» الغالب «الغفَّارُ» الساتر لذنوب خلقه برحمته.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدمَ عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: لِيحصل التناسلُ، وقد مضى هذا في «الأعراف»[٤] وغيرها.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أخبر عن الأزواج بالنُّزول، لأنها تكوَّنت بالنبات، والنبات بالماء المُنزَل. وهذا يُسمَّى التدريج[٥]؛ ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الآية [الأعراف: ٢٦]. وقيل: أنزل: أنشأ وجعل. وقال سعيد بن جُبير: خَلَق. وقيل: إنَّ الله تعالى خَلَق هذه الأنعامَ في الجنة، ثم أنزلها إلى الأرض[٦]؛ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنَّ آدمَ لما هبطَ إلى الأرض أُنزل معه الحديد. وقيل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: أعطاكم. وقيل: جعل الخلق

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١١٥، وأخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٠ بنحوه.

(٢) كذا في النسخ: حتى، وفي هامش (ز): لعلّه حين. قلنا: هو أوجه.

(٣) ١٧/ ٤٥٠ وما بعدها، وسلف قول الكلبي ١٧/ ٤٤٤.

(٤) ٩/ ٤٠٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٥.

إنزالاً؛ لأن الخَلْق إنما يكون بأمر ينزل من السماء. فالمعنى: خلقَ لكم كذا بأمره النازل[١].

قال قتادة: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضَّأْن اثنين، ومن المَعْز اثنين، كل واحد زوج[٢]. وقد تقدّم هذا[٣].

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال قتادة والسّدّي: نُطفةً، ثم علقةً، ثم مُضْغةً، ثم عظماً، ثم لحماً. ابن زيد: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: خلقاً في بطون أُمهاتِكم من بعد خَلْقكم في ظهر آدم. وقيل: في ظهر الأب، ثم خلقاً في بطن الأمّ، ثم خلقاً بعد الوضع. ذكره الماوردي[٤].

﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظُلمة البطن وظُلمة الرحم وظُلمة المَشِيمَة. قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك[٥]. وقال ابن جُبير: ظُلمة المَشيمَة وظُلمة الرَّحِم وظُلمة الليل[٦]. والقول الأول أصح. وقيل: ظلمة صُلْب الرجل وظُلمة بطن المرأة وظُلمة الرَّحِم. وهذا مذهب أبي عُبيدة[٧]. أي: لا تمنعه الظُّلمة كما تمنع المخلوقين[٨]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: الذي خلق هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره[٩].

وقرأ حمزة: «إِمِّهَاتِكُمْ» بكسر الهمزة والميم. والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم. الباقون بضم الهمزة وفتح الميم[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠ بنحوه.
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٣ .
(٣) ٩/ ٧٦ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٥ ، وأقوال قتادة والسدي وابن زيد أخرجها الطبري ٢٠/ ١٦٤ - ١٦٥ .
(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٥ - ١٦٦ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٦ دون نسبة.
(٧) مجاز القرآن ٢/ ١٨٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ١٥٤ .
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ .
(٩) تفسير الطبري ٢٠/ ١٦٧ .
(١٠) قراءة حمزة والكسائي في الوصل. السبعة ص٢٢٧ - ٢٨٨ ، والتيسير ص٩٤ .

**قوله تعالى:** ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑦﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: أن يكفروا، أي: لا يُحبُّ ذلك منهم. وقال ابن عباس والسّدي: معناه: لا يرضى لعباده المؤمنين الكُفر، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢]، وكقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] أي: المؤمنون[١]. وهذا على قول مَن لا يُفرق بين الرِّضا والإرادة.

وقيل: لا يرضى الكُفْرَ وإن أراده؛ فالله تعالى يُريد الكفر من الكافر وبإرادته كَفر، ولايرضاه[٢] ولا يُحِبُّه، فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خَلْقَ إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرِّضا. وهذا مذهبُ أهل السنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى الشُّكر لكم؛ لأنّ «تَشْكُرُوا» يدلُّ عليه. وقد مضَى القولُ في الشُّكر في«البقرة»[٤] وغيرها. ويَرضى بمعنى يُثيب ويُثني، فالرِّضا على هذا إما ثوابُه فيكون صفةَ فعل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، وإما ثناؤه، فهو صفةُ ذات.

و«يَرْضَهْ» بالإسكان في الهاء قرأ أبو جعفر[٥] وأبو عمرو وشيبة وهُبيرة عن عاصم. وأشبع الضَّمَّة ابنُ ذكوان وابنُ كثير وابنُ محيصن والكسائي وورش عن

(١) تفسير البغوي ٧٢/٤ ، وأخرجه بنحوه عنهما الطبري ١٦٨/٢٠ .

(٢) في (م): كفر لا يرضاه.

(٣) ذكر هذه المسألة الرازي في تفسيره ٢٤٦/٢٦ -٢٤٧ .

(٤) ١٠٤/٢ وما بعدها.

(٥) قراءة أبي جعفر في رواية ابن جمّاز.

نافع[١]. واختلس الباقون.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تقدَّم في غير موضع[٢].

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ يعني الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ أي: شدّة من الفقر والبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: راجعاً إليه، مُخْبِتاً مطيعاً له، مُستغيثاً به في إزالة تلك الشِّدَّة عنه.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: أعطاه ومَلَّكه. يقال: خوّلك الله الشيء، أي: ملّكك إياه؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هُنَالِكَ إن يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخوِلوا ... وإن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يُغْلُوا[٣]

وخَوَلُ الرجل: حَشَمُه، الواحد خائل[٤]. قال أبو النَّجم:

أَعْطَى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ ... كُومَ الذُّرى مِن خَوَلِ المُخَوَّلِ[٥]

(١) المشهور عن ورش أنه قرأ بضم الهاء من غير صلة. السبعة ص٥٦٠، والتيسير ص١٨٩، والنشر ١/٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) ٩/١٤٥ و١٣/٤٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/١٥٥، والبيت لزهير، ويروى: هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا يُخْبِلوا.. وقد سلف بهذه الرواية ١/٤٤٨. وقوله: إن يَيْسِروا يُغلوا، أي: إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الجزر فيقامرون عليها، ولا ينحرون إلا غالية. قاله الشنتمري في شرح ديوان زهير ص٢٢.

(٤) الصحاح (خول).

(٥) ديوان أبي النجم ص١٧٥.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربَّه الذي كان يدعوه من قبل في كَشْف الضُّر عنه. فـ «ما» على هذا الوجه لله عز وجل، وهي بمعنى الذي. وقيل: بمعنى مَنْ، كقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] والمعنى واحد. وقيل: نسي الدعاءَ الذي كان يتضرع به إلى الله عز وجل. أي: ترك كونَ الدعاء منه إلى الله، فـ «ما» والفعل على هذا القول مصدر[١]. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أوثاناً وأصناماً. وقال السّدي: يعني: أنداداً من الرجال يعتمدون عليهم في جميع أمورهم[٢]. ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: ليقتديَ به الجُهَّال.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: قُلْ لهذا الإنسان: «تَمَتَّع» وهو أمرُ تهديد، فمتاع الدنيا قليل. ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: مصيرك إلى النار.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ بيَّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضَى ذِكْره. وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائي: «أَمَّنْ» بالتشديد. وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة: «أَمَنْ هو» بالتخفيف على معنى النداء[٣]؛ كأنه قال: يا من هو قانت. قال الفراء[٤]: الألف بمنزلة يا، تقول: يا زيدُ أَقبِلْ، وأَزَيدُ أَقبِلْ. وحُكِيَ ذلك عن سيبويه وجميع النحويين؛ كما قال أوسُ بن حَجَر:

أَبَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بِيَدٍ ... إلَّا يداً ليست لها عَضُدُ[٥]

وقال آخر هو ذو الرُّمّة:

أداراً بِحُزْوَى هِجْتِ لِلعينِ عَبْرةً ... فماءُ الهوى يَرْفضُّ أو يَتَرَقْرَقُ[٦]

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٧٣ بنحوه.

(٣) السبعة ص٥٦١، والتيسير ص١٨٩ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤١٦ .

(٥) ديوان أوس بن حَجَر ص٢١ .

(٦) ديوان ذي الرُّمة ١/ ٤٥٦ . قال شارحه أبو نصر: ماء الهوى، أراد الدمع الذي يدمعه من الهوى، يرفضّ: يسيل متفرقاً.

فالتقدير على هذا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ يا مَنْ هو قانتٌ، إنَّك من أصحاب الجنة؛ كما يقال في الكلام: فلانٌ لا يُصلِّي ولا يصوم، فيا من يُصلِّي ويَصوم أَبْشِرْ؛ فحذف لدلالة الكلام عليه.

وقيل: إنَّ الألفَ في «أَمَنْ» ألفُ استفهام، أي: «أَمَنْ هو قَانتٌ آناءَ الليل» أفضلُ؟ أَمْ مَنْ جعل لله أنداداً؟ والتقدير: الذي هو قانتٌ خيرٌ.

ومَنْ شدَّد «أمَّنْ» فالمعنى: العاصون المتقدِّم ذِكْرهم خيرٌ «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ»؟، فالجملة التي عادلت أَمْ محذوفة، والأصل: أَمْ مَنْ، فأدغمت في الميم. النحاس[1]: وأم بمعنى بل، ومَن بمعنى الذي؛ والتقدير: بل[2] الذي هو قانتٌ أفضلُ ممن ذُكِرَ.

وفي قانت أربعةُ أوجه: أحدها: أنه المُطيع؛ قاله ابن مسعود. الثاني: أنه الخاشعُ في صلاته؛ قاله ابن شهاب. الثالث: أنه القائم في صلاته؛ قاله يحيى بن سلّام. الرابع: بأنه الداعي لربه[3]. وقول ابن مسعود يجمع ذلك. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ قنوتٍ في القرآن فهو طاعةٌ لله عزّ وجلّ»[4]. ورُوي عن جابر عن النبي ﷺ أنه سُئل: أيُّ الصلاة أفضل؟ فقال: «طولُ القنوت»[5] وتأوَّله جماعةٌ من أهل العلم على أنه طُول القيام.

وروى عُبيد الله[6] عن نافع عن ابن عمر سُئل عن القنوت فقال: ما أعرفُ القنوت إلا طولَ القيام، وقراءة القرآن. وقال مجاهد: من القنوت طولُ الركوع وغضُّ البصر، وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضُّوا أبصارَهم، وخضعوا ولم يلتفتوا في

(١) إعراب القرآن ٣/ ٥ - ٦ وما قبله منه بنحوه، وينظر الحجة للفارسي ٦/ ٩٢ - ٩٣.

(٢) في النسخ: أم، والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١١٧.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٢٩) وفي إسناده رِشْدين بن سعد، وهو ضعيف، كما في التقريب وسلف ١٦/ ٤١٦.

(٥) أخرجه مسلم (٧٥٦)، وسلف ٢/ ٣٣٤.

(٦) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ (والكلام منه): عبد الله، والمثبت موافق لمصادر التخريج، وهو عبيد الله بن عمر العمري، والأثر أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٠٦، والطبري ٢٠/ ١٧٦.

صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئاً من أمر الدنيا إلا ناسين.

قال النحاس[١]: أصلُ هذا أن القنوت الطاعة، فكلُّ ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل، فهذه الأشياء كلُّها داخلةٌ في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع: قال لي ابن عمر: قُمْ فصلِّ، فقمتُ أُصلِّي وكان عليَّ ثوبٌ خَلَقٌ، فدعاني فقال لي: أرأيتَ لو وجَّهتك في حاجة، أكنتَ تمضي هكذا؟ فقلت: كنت أتزيَّن، قال: فاللهُ أحقُّ أن تتزيَّن له[٢].

واختلف في تعيين القانت هاهنا، فذكر يحيى بن سلام أنه رسولُ الله ﷺ. وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن عمر: هو عثمانُ ﷺ. وقال مقاتل: إنه عمَّار بن ياسر. الكلبي: صُهَيب وأبو ذرّ وابن مسعود. وعن الكلبي أيضاً أنه مرسلٌ فيمن كان على هذه الحال[٣].

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال الحسن: ساعاته؛ أوله وأوسطه وآخره. وعن ابن عباس: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ جوف الليل[٤]. قال ابن عباس: مَن أحبَّ أن يُهوِّن الله عليه الوقوفَ يومَ القيامة، فَلْيَرَهُ اللهُ في ظُلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمةَ ربِّه[٥]. وقيل: ما بين المغرب والعشاء[٦]. وقول الحسن عامّ.

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ قال سعيد بن جُبير: أي: عذاب الآخرة[٧].

﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ أي: نعيم الجنة. ورُوي عن الحسن أنه سُئل عن رجل يتمادى

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٦، وما قبله منه.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في المصنف (١٣٩٠) و(١٣٩١).

(٣) النكت والعيون ٥/ ١١٧، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٧٣، وزاد المسير ٧/ ١٦٦ - ١٦٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٧.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦.

في المعاصي ويرجو فقال: هذا مَتَمَنٍّ[١].

ولا يقف على قوله: «رَحْمَةَ رَبِّهِ» مَن خفَّف «أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ» على معنى النداء؛ لأن قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متصلٌ إلا أن يُقدَّر في الكلام حذفٌ، وهو أيسر[٢]، على ما تقدَّم بيانُه. قال الزجاج[٣]: أي: كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المُطيع والعاصي.

وقال غيره: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة مَن لم يعلم.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول من المؤمنين.

**قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قل: يا محمد لعبادي المؤمنين: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اتقوا معاصِيَه، والتاء مُبدَلة من واو، وقد تقدم[٤]. وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة[٥]. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني بالحسنة الأُولى الطاعة، وبالثانية الثواب في الجنة. وقيل: المعنى: للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الدنيا، يكون ذلك زيادةً على ثواب الآخرة، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحةُ والعافية والظَّفَر والغَنيمة[٦]. قال القُشَيري: والأول أصحُّ؛ لأن الكافر قد ينال[٧] نِعَمَ الدنيا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢ - ٥٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٧، وما بعده منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧، وتقدم ١/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣ دون نسبة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٨ بنحوه.

(٧) في (م): نال.

قلت: وينالها معه المؤمن ويُزاد الجنةَ إذا شكر تلك النِّعم. وقد تكون الحسنة في الدنيا الثناءَ الحسن، وفي الآخرة الجزاء.

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجِروا فيها ولا تُقيموا مع من يعمل بالمعاصي. وقد مضى القولُ في هذا مستوفى في «النساء»[١]. وقيل: المراد أرضُ الجنة؛ رغَّبهم في سَعَتها وسَعَةِ نعيمها[٢]؛ كما قال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والجنة قد تُسمَّى أرضاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] والأول أظهرُ، فهو أمر بالهجرة. أي: ارحلوا من مكةَ إلى حيث تأْمَنوا[٣].

الماوردي[٤]: ويَحتمِلُ أن يُريدَ بسعة الأرض سَعَةَ الرِّزق؛ لأنه يرزقُهم من الأرض فيكون معناه: ورِزْقُ الله واسعٌ، وهو أشبهُ؛ لأنه أخرج سعتها مُخْرَجَ الامتنان.

قلت: فتكون الآيةُ دليلاً على الانتقال من الأرض الغالية إلى الأرض الراخية؛ كما قال سفيان الثوري: كن في موضعٍ تملأ فيه جِرابك خبزاً بدرهم.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير. وقيل: يُزاد على الثواب؛ لأنه لو أُعطيَ بقدر ما عَمِلَ لكان بحساب. وقيل: «بغير حسابٍ» أي: بغير متابعة ولا مُطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا[٥].

و«الصَّابِرُونَ» هنا الصائمون؛ دليله قولُه عليه الصلاة والسلام مُخبراً عن الله عزَّ وجلَّ: «الصومُ لي وأنا أَجزي به»[٦]. قال أهل العلم: كلُّ أجرٍ يُكال كيلاً ويُوزَن

---

(١) ٧/ ٦٥ وما بعدها.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١١٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٥٣ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧ .

(٦) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، وسلف ٢/ ٦٧ .

وزناً إلا الصبر[(١)]، فإنه يُحْثَى حَثْواً ويُغرَف غَرْفاً؛ وحُكي عن علي ﷺ.

وقال مالك بن أنس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: هو الصبرُ على فجائع الدنيا وأحزانها. ولا شكَّ أن كل مَن سلَّم فيما أصابه، وترك ما نُهي عنه، فلا مقدارَ لأجره[(٢)].

وقال قتادة: لا والله، ما هناك مِكيال ولا ميزان؛ حدثني أنس أن رسولَ الله ﷺ قال: «تُنصَبُ الموازين، فَيُؤتَى بأهل الصَّدَقة فَيُوفَّون أُجورَهم بالموازين، وكذلك الصلاة والحج، ويُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان ولا يُنشر لهم ديوان، ويُصَبُّ عليهم الأجر بغير حساب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهلُ العافية في الدنيا أن أجسادهم تُقرَض بالمقاريض مما يذهبُ به أهل البلاء من الفضل»[(٣)].

وعن الحسن بن علي[(٤)] رضي الله عنهما قال: سمعتُ جدي رسول الله ﷺ يقول: «أدِّ الفرائضَ تكن من أعبدِ الناس، وعليك بالقُنوع تكن من أغنى الناس، يا بُنيّ، إن في الجنة شجرةً يقال لها: شجرة البلوى، يُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، يُصبُّ عليهم الأجر صبّاً، ثم تلا النبيُّ ﷺ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»[(٥)].

ولفظ صابر يُمدح به، وإنما هو لمن صَبَر عن المعاصي، وإذا أردتَ أنه صبر على

---

(١) في النسخ: الصوم، والمثبت موافق لمعنى ما في المصادر. ينظر النكت والعيون ٥/ ١١٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٧٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٤٤ - ١٦٤٥ .

(٣) قول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ١٧٩ ، وحديث أنس ﷺ أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٣٢٣ .

(٤) في (د) و(ز) و(ف) و(م): الحسين بن علي، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لمصادر الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٦٠) دون قوله: «. . إن في الجنة شجرة. .» إلى آخره، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٣٥: وفيه سعد بن طريف، وهو ضعيف جداً. قلنا: قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: متروك، ورماه ابن حبان بالوضع. وقوله منه: «أدِّ الفرائض تكن من أعبد الناس، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس» أخرجه الدارقطني في العلل ٥/ ٨٤ من حديث ابن مسعود ﷺ، وقال الدارقطني: رفعه وهم، والصحيح من قول ابن مسعود ﷺ.

المصيبة قلت: صابر على كذا؛ قاله النحاس[١]. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[٢].

**قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ تقدَّم أولَ السورة ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأُمة، وكذلك كان؛ فإنه كان أولَ من خالفَ دينَ آبائه، وخلع الأصنام وحطَّمها، وأسلم لله وآمنَ به، ودعا إليه ﷺ.

واللام في قوله: «لِأَنْ أَكُونَ» صلة زائدة؛ قاله الجُرجاني وغيره. وقيل: لام أجْل. وفي الكلام حذف، أي: أُمرت بالعبادة «لِأَنْ أكُونَ أَوَّلَ المسلمين».

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد عذابَ يوم القيامة. وقاله حين دعاه قومُه إلى دين آبائه؛ قاله أكثرُ أهل التفسير[٣].

وقال أبو حمزة الثُّمالي وابن المسيَّب: هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فكانت هذه الآيةُ من قبل أن يُغفر ذنبُ النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ «اللهَ» نصب بـ «أَعْبُدُ»[٤] ﴿مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ طاعتي وعبادتي. ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ أمرُ تهديد ووعيد وتوبيخ؛ كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. وقيل: منسوخة بآية السيف[٥].

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٧.

(٢) ٢/ ٤٦٣ وما بعدها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧.

(٥) زاد المسير ٧/ ١٦٩، قال ابن الجوزي: وهذا باطل، لأنه لو كان أمراً، كان منسوخاً، فأما أن يكون بمعنى الوعيد فلا وجه لنسخه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قال ميمون بن مِهْران عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وقد خلق اللهُ له زوجةً في الجنة، فإذا دخل النارَ خَسِرَ نَفْسَه وأهلَه(١). وفي رواية عن ابن عباس: فمن عَمِلَ بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبلَ ذلك(٢)، وهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ سمَّى ما تحتهم ظُللاً؛ لأنها تُظِلُّ مَن تحتهم، وهذه الآية نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾(٣) [الأعراف: ٤١]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ قال ابن عباس: أولياءه. ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: يا أوليائي فخافون. وقيل: هو عامٌّ في المؤمن والكافر. وقيل: خاصٌّ بالكفار.

**قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ قال الأخفش(٤): الطاغوت جمع، ويجوز أن تكون واحدةً مؤنثة. وقد تقدم(٥). أي: تباعدوا من الطاغوت، وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها. قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هو الأوثان. وقيل: إنه الكاهن. وقيل: إنه اسمٌ أعجمي مثل:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٦٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨.

(٥) ٦/ ٤٦١.

طالوت وجالوت وهاروت، ماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطُّغيان[١]، و«أن»في موضع نصب بدلاً من الطاغوت، تقديره: والذين اجتنبوا عبادةَ الطاغوت. ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: رَجَعوا إلى عبادته وطاعته. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الحياة الدنيا بالجنة في العُقبى.

رُوي أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير ﷺ؛ سألوا أبا بكر ﷺ فأخبرهم بإيمانه فآمنوا. وقيل: نزلت في زيد بن عمرو ابن نُفيل وأبي ذرّ وغيرهما ممن وحّد الله تعالى قبل مبعث النبي ﷺ[٢].

وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس: هو الرجلُ يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكفُّ عن القبيح فلا يتحدَّث به[٣]. وقيل: يستمعون القرآنَ وغيره فيتَّبعون القرآن[٤]. وقيل: يستمعون القرآن وأقوالَ الرسول فيتَّبعون أحسنه، أي: محكمه فيعملون به. وقيل: يستمعون عَزْماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص. وقيل: يستمعون العقوبةَ الواجبةَ لهم والعفوَ فيأخذون بالعفو[٥].

وقيل: إنَّ أحسنَ القول على من جعل الآية فيمن وحَّد الله قبلَ الإسلام «لا إله إلا الله».

وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت في زيد بن عمرو بن نُفيل وأبي ذرّ الغفاري وسلمان الفارسي، اجتنَبوا الطاغوتَ أن يعبدوها في جاهليتهم، واتَّبعوا أحسنَ ما صار من القول إليهم[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٢٠ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٠ ، وقول مجاهد وابن زيد أخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٥ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٢١ بنحوه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٦٣ .

(٥) المصدر السابق.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٢١ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٥ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ لما يرضاه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: الذين انتفعوا بعقولهم.

**قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾**

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ كان النبي ﷺ يَحرِصُ على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشَّقاوة، فنزلت هذه الآية. قال ابن عباس: يُريد أبا لهب وولده ومَن تخلَّف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان(1). وكرَّر الاستفهام في قوله: «أَفَأَنْتَ» تأكيداً لِطُول الكلام، وكذا قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] على ما تقدَّم. والمعنى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أفأنت تُنقذه. والكلام شرط وجوابه. وجيء بالاستفهام؛ ليدلَّ على التوقيف والتقرير. وقال الفراء(2): المعنى: أفأنتَ تُنقذ من حقَّت عليه كلمةُ العذاب. والمعنى واحد. وقيل: إنَّ في الكلام حذفاً، والتقدير: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب ينجو منه، وما بعده مُستأنَف.

وقال: «أفمن حَقَّ عليه» وقال في موضع آخر: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [يونس: ٣٣] لأن الفعلَ إذا تقدَّم ووقع بينه وبين الموصوف به حائلٌ جاز التذكير والتأنيث، على أن التأنيثَ هنا ليس بحقيقي، بل الكلمة في معنى الكلام والقول؛ أي: أفمن حقَّ عليه قول العذاب.

**قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ٢٠﴾**

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ لما بيَّن أن للكفار ظُللاً من النار مِن فوقهم

---

(1) تفسير البغوي ٤/ ٧٥ بنحوه.

(2) في معاني القرآن ٢/ ٤١٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ١٦٣ - ١٦٤، وما قبله وما بعده فيه بنحوه.

ومن تحتهم بيَّن أن للمتقين غُرَفاً فوقَها غرف؛ لأن الجنةَ درجاتٌ يعلو بعضُها بعضاً و«لَكِن» ليس للاستدراك؛ لأنه لم يأت نفي، كقوله: ما رأيتُ زيداً لكن عَمراً، بل هو لترك قصةٍ إلى قصة مُخالفةٍ للأولى، كقولك: جاءني زيدٌ لكن عمرو لم يأتِ.

﴿غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ قال ابن عباس: مِن زَبَرجد وياقوت ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: هي جامعةٌ لأسباب النُّزهة.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر؛ لأن معنى «لهم غُرَفٌ»: وَعَدَهم الله ذلك وعداً. ويجوز الرفع بمعنى: ذلك وَعْدُ الله[1]. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: ما وعدَ الفريقين.

**قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: إنه لا يُخلف الميعاد في إحياء الخَلْق، والتمييز بين المؤمن والكافر، وهو قادرٌ على ذلك كما أنه قادرٌ على إنزال الماء من السماء.

«أنزلَ مِنَ السَّماءِ» أي: من السَّحاب «ماءً» أي: المطر ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي: فأدخله في الأرض وأسكنه فيها؛ كما قال: ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨]. ﴿يَنَـٰبِيعَ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَع يَنْبُع ويَنْبَع ويَنْبِعُ، بالرفع والنصب والخفض ـ النحاس[2]: وحكى لنا ابنُ كَيْسان في قول الشاعر:

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ[3]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ٨، وما قبله منه.

(٣) قائله عنترة، وهو من معلقته. الديوان ص٢٢. وعجزه: زيَّافة مثل الفنيق المُكْدَم. والذِّفرى من القفا: الموضع الذي يعرق من الإبل خلفَ الأذن، والغضوب: الناقة العبوس، والجَسْرة: الماضية في سيرها، والزيَّافة: مبالغة زائف؛ إذا تبختر في مشيه، والفنيق: الفحل. والمُكْدَم: الذي لا يُؤذى ولا يُركَب لكرامته على أهله. خزانة الأدب ١/ ١٢٤ - ١٢٥.

أنَّ معناه: يَنْبَع، فأشبع الفتحةَ فصارتْ ألفاً ـ نُبوعاً: خرج. واليَنْبوع عينُ الماء والجمع الينابيع[١]. وقد مضى في «سبحان»[٢].

«ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ» أي: بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿زَرْعًا﴾ هو للجنس، أي: زروعاً شتى لها ألوانٌ مختلفة، حُمرة وصُفرة وزُرقة وخُضرة ونوراً. قال الشعبي والضحاك: كلُّ ماء في الأرض فمن السماء نزل، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة، ثم تقسم منها العيون والرَّكايا. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ييبس. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ أي: بعد خُضرته ﴿مُصْفَرًّا﴾[٣].

قال المبرد: قال الأصمعي: يقال: هاجت الأرض تهيجُ إذا أدبر نَبْتُها وولَّى. قال: وكذلك هاج النبتُ. قال: وكذلك قال غير الأصمعي[٤].

وقال الجوهري[٥]: هاج النبتُ هِياجاً، أي: يَبِسَ. وأرضٌ هائجة يَبِسَ بَقْلُها أو اصفرَّ، وأهاجت الريحُ النَّبْتَ: أيبسَتْه، وأهيجنا الأرضَ، أي: وجدْناها هائجةَ النبات، وهاج هائجه، أي: ثار غضبه، وهدأ هائجه، أي: سكنت فَوْرته.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتاً مُكَسَّراً، من: تحطَّم العودُ، إذا تَفتَّتَ من اليبس[٦]. والمعنى: أن مَن قَدَر على هذا قَدَر على الإعادة. وقيل: هو مَثَلٌ ضربه الله للقرآن ولصدور مَن في الأرض، أي: أنزل من السماء قرآناً فسلكه في قلوب المؤمنين ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ديناً مُختلفاً بعضُه أفضلُ من بعض، فأما المؤمن فيزداد إيماناً ويقيناً، وأما الذي في قلبه مرضٌ فإنه يهيج كما يهيج الزرع. وقيل: هو مثلٌ ضربه الله للدنيا؛ أي: كما يتغير النبت الأخضر فيصفرّ كذلك الدنيا بعد بَهْجتها. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

---

(١) الصحاح (نبع).

(٢) ١٣/ ١٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٧٦ بنحوه، وقول الشعبي أخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨ - ٩ .

(٥) في الصحاح (هيج).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ .

**قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ شرحَ: فتح ووسَّع. قال ابن عباس: وسَّع صدره للإسلام حتى ثبتَ فيه. وقال السدي: وسَّع صَدْره بالإسلام للفرح به والطُّمأنينة إليه؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشَّرح قبلَ الإسلام[١].

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على هُدىً من ربّه كمن طبع على قلبه وأقساه. ودلَّ على هذا المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾[٢]. قال المبرد: يقال: قسا القلبُ، إذا صَلُب، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها. وقلبٌ قاسٍ، أي: صُلْب لا يرقّ ولا يَلين[٣]. والمراد بمن شرح الله صَدْرَه هاهنا فيما ذكر المفسرون عليٌّ وحمزةُ رضي الله عنهما[٤]. وحكى النقَّاش أنه عمرُ بن الخطاب ﷺ. وقال مقاتل: عمار بن ياسر. وعنه أيضاً والكلبي: رسولُ الله ﷺ[٥].

والآية عامةٌ فيمن شرح اللهُ صَدْره بِخَلْق الإيمان فيه.

وروى [عمرو بن] مُرَّة [عن أبي عبيدة][٦] عن ابن مسعود قال: قلنا: يا رسولَ الله، قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرح وانفتح»قلنا: يا رسولَ الله، وما علامةُ ذلك؟. قال: «الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢١ ، ونسب القول الأول لابن عباس رضي الله عنهما والسدي، ولم ينسب الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٢٢ .

(٦) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج، وينظر التعليق التالي.

قبلَ نُزوله»[١]، وخرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث ابن عمر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي: المؤمنين أكيسُ؟ قال: «أكثرُهم للموت ذِكْراً، وأحسنُهم له استعداداً، وإذا دخل النورُ في القلب انفسح واستوسع» قالوا: فما آيةُ ذلك يا نبيَّ الله؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت»[٢] فذكر ﷺ خِصالاً ثلاثة، ولا شكَّ أن من كانت فيه هذه الخِصال فهو الكامل الإيمان، فإنَّ الإنابةَ إنما هي أعمال البر؛ لأن دارَ الخُلود إنما وضعت جزاءً لأعمال البر، ألا ترى كيف ذكره الله في مواضعَ في تنزيله، ثم قال بعقب ذلك: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] فالجنةُ جزاء الأعمال؛ فإذا انكمش العبدُ في أعمال البر فهو إنابتُه إلى دار الخلود، وإذا خَمَد حِرْصه عن الدنيا، ولَها عن طلبها، وأَقبل على ما يُغنيه منها فاكتفى به وقَنِعَ، فقد تجافى عن دار الغرور. وإذا أَحكم أموره بالتقوى فكان ناظراً في كل أمر، واقفاً متأدِّباً مُتثبِّتاً حَذِراً يتورَّع عما يُريبه إلى ما لا يُريبه، فقد استعدَّ للموت. فهذه علامتُهم في الظاهر. وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا، ورؤية الدنيا أنها دارُ الغرور، وإنما صارت له هذه الرؤيةُ بالنور الذي وَلَج القلب[٣].

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قيل: المراد أبو لهب وولده، ومعنى: «مِنْ ذِكْرِ اللهِ» أن قلوبهم تزداد قسوةً من سماع ذِكْره. وقيل: إن «مِن» بمعنى عن والمعنى: قَسَتْ عن قَبول ذِكْر الله. وهذا اختيار الطبري[٤].

---

(١) وهو حديث ضعيف جداً، قال الدارقطني في العلل٥/ ١٨٩ : يرويه عمرو بن مرة، واختلف عنه... وذكر عدة طرق له ثم قال: وكلها وهم، والصواب: عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ، كذلك قاله الثوري، وعبد الله بن المسور هذا متروك. اهـ قلنا: وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه ابن مسعود ﷺ، وقد سلف الحديث ٩/ ٢٣ ، ينظر ما ذكرناه ثمة.

(٢) نوادر الأصول ص١٢٥ - ١٢٦ . وأخرجه مختصراً ابن ماجه (٤٢٥٩) وفي إسناده نافع بن عبد الله عن فروة بن قيس، وهما مجهولان كما في التقريب.

(٣) نوادر الأصول ص١٢٧ .

(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩٠ ، وينظر زاد المسير ٧/ ١٧٤ .

وعن أبي سعيد الخُدري أن رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: اطلُبوا الحوائج من السُّمَحاء، فإني جعلتُ فيهم رحمتي، ولا تطلبوها من القاسية قُلوبهم، فإني جعلتُ فيهم سَخَطي»(١).

وقال مالك بن دينار: ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظَمَ من قسوة قلب، وما غَضِبَ اللهُ على قوم إلا نَزَعَ الرحمةَ من قلوبهم(٢).

**قوله تعالى:** ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

**فيه ثلاث مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن لما قال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ بيَّن أن أحسنَ ما يُسمع ما أنزله الله، وهو القرآن. قال سعدُ بن أبي وقَّاص: قال أصحابُ رسول الله ﷺ: لو حدَّثتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ فقالوا: لو قصصتَ علينا فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] فقالوا: لو ذكَّرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية(٣) [الحديد: ١٦].

وعن ابن مسعود ﷺ أن أصحابَ رسول الله ﷺ مَلُّوا مَلَّة فقالوا له: حدِّثنا، فنزلتْ(٤).

---

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ٢٨٦، بلفظ: «إن الله يقول: اطلبوا الفضل من الرُّحَماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم...». وفي إسناده محمد بن مروان السدي كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات، لا يحل كتابة حديثه إلا على جهة الاعتبار، قاله ابن حبان، وينظر لسان الميزان ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧، وتفسير البغوي ٤/ ٧٦.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٤٠٨، وسلف ١١/ ٢٤٠ دون قولهم: لو ذكّرتنا...

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٨ - ٢١٩.

والحديث ما يُحدِّثُ به المُحدِّث. وسُمِّي القرآن حديثاً؛ لأن رسولَ الله ﷺ كان يُحدِّث به أصحابَه وقومَه، وهو كقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩] وقوله: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤].

قال القشيري: وتوهَّم قومٌ أن الحديثَ من الحُدوث، فليدلَّ على أن كلامه مُحدَث، وهو وهم؛ لأنه لا يُريد لفظَ الحديث على ما في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وقد قالوا: إنَّ الحُدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المَتْلوّ، وهو كالذِّكر مع المذكور، إذا ذكرنا أسماءَ الربِّ تعالى.

﴿كِتَٰبًا﴾ نصب على البدل من «أَحْسَنَ الحَدِيثِ» ويَحتمل أن يكون حالاً منه. ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ يُشبه بعضُه بعضاً في الحُسن والحِكمة ويُصدِّق بعضُه بعضاً[1]، ليس فيه تناقضٌ ولا اختلاف. وقال قتادة: يُشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف. وقيل: يُشبه كُتبَ الله المُنزلة على أنبيائه؛ لما يتضمَّنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإنْ كان أعمَّ وأعجزَ[2]. ثم وصفه فقال: ﴿مَّثَانِىَ﴾ تُثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، وثُني للتلاوة فلا يُمَلّ.

﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عند آية الرحمة. وقيل: إلى العمل بكتاب الله والتصديق به. وقيل: «إلى ذِكْرِ اللهِ» يعني الإسلام.

**الثانية**: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: كان أصحابُ النبي ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن كما نَعَتَهم الله؛ تدمع أعينُهم وتقشعرُّ جلودهم. قيل لها: فإن أناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خَرَّ أحدُهم مَغْشِياً عليه. فقالت: أعوذُ بالله

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٢٢، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ١٩١.

من الشيطان الرجيم.

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجُمحي: مرَّ ابنُ عمر برجل من أهل القرآن ساقط فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قُرئ عليه القرآن وسَمِعَ ذِكْر الله سقط. فقال ابن عمر: إنا لَنخشى الله وما نسقط. ثم قال: إن الشيطانَ يدخلُ في جوف أحدِهم؛ ما كان هذا صنيعَ أصحاب محمد ﷺ[1].

وقال عمر بن عبد العزيز: ذُكر عند ابن سيرين الذين يُصرعون إذا قُرئ عليهم القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدُهم على ظهر بيت باسطاً رجليه، ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإنْ رمى بنفسه فهو صادق[2].

وقال أبو عِمران الجوني: وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذاتَ يوم فشقّ رجلٌ قميصه، فأوحى الله إلى موسى: قل لصاحب القميص: لا يشقَّ قميصَه، فإني لا أُحِبُّ المُبذرين؛ يشرح لي عن قلبه[3].

**الثالثة**: قال زيد بن أسلم: قرأ أُبيّ بن كعب عند النبي ﷺ ومعه أصحابه[4] فرقّوا، فقال النبيُّ ﷺ: «اغتنموا الدُّعاء عند الرِّقة، فإنها رحمةٌ»[5]. وعن العباس أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: «إذا اقشعرَّ جلدُ المؤمن من مَخافةِ الله تحاتَّتْ عنه خطاياه كما يَتحاتُّ عن الشجرة البالية ورقُها»[6].

وعن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما اقشعرَّ جلدُ عبدٍ من خَشيةِ الله إلا حرَّمه اللهُ على النار»[7]. وعن شهر بن حَوْشَب عن أُمِّ الدرداء قالت: إنما الوجل في

(١) أخرج الخبرين البغوي في تفسيره ٤/ ٧٧، وذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٨.
(٢) المصدران السابقان دون ذكر عمر بن عبد العزيز ﷺ، ولم نقف عليه من قوله.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣١٤ - ٣١٥.
(٤) قوله: ومعه أصحابه، من (م).
(٥) أخرجه الشهاب في مسنده (٦٩٢) وهو مرسل، فإن زيداً لم يدرك أُبيّاً ﷺ.
(٦) أخرجه البزار في مسنده (١٣٢٢).
(٧) لم نقف عليه.

قلب الرجل كاحتراق السَّعفة، أما تَجِدُ إلا قُشَعْريرة؟ قلت: بلى؛ قالت: فادعُ اللهَ، فإن الدعاء عند ذلك مُستجاب[١]. وعن ثابت البُنَاني قال: قال فلان: إني لأعلمُ متى يُستجاب لي. قالوا: ومن أين تعلم ذلك؟ قال: إذا اقشعرَّ جلدي، ووَجِلَ قلبي، وفاضتْ عيناي، فذلك حين يُستجاب لي[٢].

يقال: اقشعرّ جلدُ الرجل اقشعراراً فهو مُقْشَعِرّ، والجمع قشاعر، فَتُحذَف الميم، لأنها زائدة؛ يقال: أخذَتْه قُشَعْريرة[٣]. قال امرؤ القيس:

فبِتُّ أكابِدُ ليلَ التِّمَا ... مِ والقلبُ مِن خشيةٍ مُقْشَعِرّ[٤]

وقيل: إن القرآنَ لما كان في غاية الجَزالة والبلاغة، فكانوا إذا رَأَوْا عَجْزَهم عن معارضته، اقشعرَّت الجلودُ منه إعظاماً له، وتَعجُّباً من حُسن ترصيفه[٥] وتَهَيُّباً لِمَا فيه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فالتصدُّع قريبٌ من الاقشعرار، والخُشوع قريبٌ من قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ومعنى لين القلب رِقَّته وطمأنينته وسُكونه.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن هُدَى الله. وقيل: أي: الذي وهبه اللهُ لهؤلاء من خَشية عقابه ورجاء ثوابه هُدَى الله[٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مَن خَذَله فلا مُرشِدَ له. وهو يردُّ على القَدَرية وغيرهم. وقد مضى معنى هذا كلِّه مستوفىً في غير موضع، والحمد لله.

ووقف ابن كثير وابن مُحيصن على قوله: «هادٍ» في الموضعين بالياء، الباقون بغير ياء[٧].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٣٨).
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١١٣٩)، وذكره الحكيم في نوادر الأصول ص١١٤ .
(٣) الصحاح (قشعر).
(٤) ديوان امرئ القيس ص١٥٨ . قال شارحه: ليل التِّمام: أطول ليل في الشتاء.
(٥) في (م): ترصيعه.
(٦) المحرر الوجيز ٤/٥٢٨ ، وزاد المسير ٧/١٧٨ بمعناه.
(٧) السبعة ص٣٦٠ ، والتيسير ص١٣٣ .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال عطاء وابن زيد: يُرْمَى به مكتوفاً في النار، فأوّل شيء تَمَسُّ منه النار وجهه. وقال مجاهد: يُجَرُّ على وجهه في النار. وقال مقاتل: هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولةً يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت، فتشتعل النار في الحجر وهو مُعلّق عنقه، فحرُّها ووَهجها على وجهه؛ لا يُطيق دَفْعها عن وجهه من أجل الأغلال[١].

والخبر محذوف. قال الأخفش[٢]: أي: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أفضلُ أَمْ من سَعِدَ، مثل: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: وتقول الخَزنة للكافرين: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاءَ كَسْبِكُم من المعاصي. ومثله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تقدّم معناه[٣]. وقال المبرد: يقال لكلِّ ما نال الجارحة من شيء: قد ذاقته، أي: وصل إليها كما تَصِلُ الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما. قال: والخِزي المكروه[٤]، والخَزاية من الاستحياء[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٧.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٩.

(٣) ٢/ ٣٢٤.

(٤) في (م): من المكروه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ - ١٠.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

**قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل مثل يحتاجون إليه؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] وقيل: أي: ما ذكرنا[١] من إهلاك الأمم السالفة مَثَلٌ لهؤلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتّعظون.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال. قال الأخفش[٢]: لأن قوله جلّ وعزّ: «في هذا القرآن» معرفة. وقال علي بن سليمان: «عَرَبيّاً» نصب على الحال، و«قُرْآناً» توطئة للحال كما تقول: مررتُ بزيد رجلاً صالحاً، فقولك: صالحاً هو المنصوبُ على الحال. وقال الزجاج[٣]: «عَرَبِيّاً» منصوب على الحال و«قُرْآناً» توكيد.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ النحاس[٤]: أحسنُ ما قيل فيه قول الضحاك: قال: غير مختلف. وهو قول ابن عباس، ذكره الثعلبي[٥]. وعن ابن عباس أيضاً: غير مخلوق، ذكره المهدوي[٦] وقاله السدي فيما ذكره الثعلبي. وقال عثمان بن عفان: غير مُتضاد. وقال مجاهد: غير ذي لَبْس. وقال بكر بن عبد الله المُزَني: غير ذي لَحْن[٧]. وقيل: غير ذي شكٍّ. قاله السُّدي فيما ذكره الماوردي[٨]. قال:

---

(١) في (م): ما ذكرناه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠ وما بعده منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ١٠ ، وما قبله منه.

(٥) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ .

(٦) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٧٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ .

(٨) في النكت والعيون ٥/ ١٢٤ .

وقـد أتـاكَ يـقِـيـنٌ غـيـرُ ذي عِـوَجٍ      مِـن الإلـهِ وقـولٌ غـيـرُ مـكـذوبِ[١]

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكُفرَ والكذب.

**قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ قال الكسائي: نصب «رَجُلاً» لأنه ترجمةٌ للمَثَل وتفسيرٌ له[٢]، وإن شئتَ نصبته بنزع الخافض، مجازه: ضرب الله مثلاً برجل ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾[٣].

قال الفرّاء[٤]: أي: مختلفون. وقال المبرّد: أي: متعاسرون، من: شَكِسَ يَشْكَسُ شَكَساً، فهو شَكِسٌ، مثل: عَسِرَ يَعْسَرُ عَسَراً، فهو عَسِرٌ، يقال: رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرِسٌ وضَبِسٌ. ويقال: رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ، أي: شَرِسٌ عَسِر شَكِسٌ؛ قاله الجوهري[٥].

الزمخشري[٦]: والتشاكُسُ والتشاخُسُ الاختلافُ. يقال: تشاكَسَتْ أحوالُه وتشاخَسَتْ أسنانُه.

ويقال: شاكسني فلان، أي: ما كسني وشاحّني في حقِّي. قال الجوهري[٧]: رجل شَكْس ـ بالتسكين ـ أي: صَعْب الخُلُق. قال الراجز:

شَـكْـسٌ عَـبُـوسٌ عَـنْـبَـسٌ عَـذَوَّرُ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٩٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ .

(٤) معاني القرآن ٢/ ٤١٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠ وما بعده منه.

(٥) في الصحاح (ضبس).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٩٧ .

(٧) في الصحاح (شكس).

وقوم شُكْسٌ، مثال: رَجلٌ صَدْق، وقوم صُدْق. وقد شَكِس ـ بالكسر ـ شَكَاسةً. وحكى الفراء[١]: رجل شَكِسٌ. وهو القياس، وهذا مَثَلُ مَنْ عَبَدَ آلهةً كثيرة.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً لِسيِّد واحد، وهو مَثَلُ مَنْ يعبد اللهَ وحدَه. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هذا الذي يخدُم جماعةَ شُركاءَ، أخلاقُهم مختلفة، ونيَّاتهم مُتباينة، لا يلقاه رجلٌ إلا جرَّه واستخدمه؛ فهو يَلقى منهم العَناء والنَّصَب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كلِّه لا يُرضي واحداً منهم بخدمته لِكَثْرة الحقوق في رقبته، والذي يخدُم واحداً لا يُنازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحدَه عَرَفَ ذلك له؛ وإن أخطأ صَفَحَ عن خطئه، فأيهما أقلُّ تعباً أو على هُدى مستقيم[٢].

وقراءة أهل الكوفة وأهل المدينة: «وَرَجُلاً سَلَماً» وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجَحْدَري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب: «وَرَجُلاً سَالِماً»[٣] واختاره أبو عُبيد لِصحة التفسير فيه. قال: لأن السالمَ الخالصُ ضدُّ المُشتَرك، والسَّلم ضِدّ الحرب، ولا موضعَ للحربِ هنا.

النحاس[٤]: وهذا الاحتجاجُ لا يلزم، لأن الحرفَ إذا كان له مَعنيان لم يُحمل إلا على أولاهما، فهذا وإن كان السَّلمُ ضدَّ الحرب فله موضعٌ آخر؛ كما يقال: لك في هذا المنزل شُركاء فصار سَلَماً لك. ويلزمه أيضاً في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال: شيء سالم، أي: لا عاهةَ به. والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة.

واختار أبو حاتم قراءةَ أهل المدينة «سَلَماً» قال: وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد بن جُبير وعكرمة وأبو العالية ونصر: «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام[٥].

---

(١) نقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (شكس).

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٢٤ ، والكشاف ٣/ ٣٩٦ - ٣٩٧ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٩-١٨٠ .

(٣) السبعة ص ٥٦٢ ، والتيسير ص١٨٩ ، والنشر ٢/ ٣٦٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ١٠ - ١١ ، وما قبله منه.

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠ عن سعيد بن جبير.

وسِلْماً وسَلَماً مصدران، والتقدير: ورجلاً ذا سلم فحذف المضاف. و«مَثَلاً» صفةً، على التمييز، والمعنى: هل تستوي صِفتاهما وحالاهما. وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لِبيان الجنس[١]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ فيتبعونه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقرأ ابن مُحيصن وابن أبي عَبْلة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «إنَّكَ مَائِتٌ وإنَّهُمْ مَائِتُونَ» وهي قراءةٌ حسنةٌ، وبها قرأ عبدالله ابن الزُّبير[٢]. النحاس[٣]: ومثل هذه الألف تُحذف في الشواد[٤]، و«مائت» في المستقبل كثيرٌ في كلام العرب؛ ومثلُه: ما كان مريضاً وإنه لمارض من هذا الطعام.

وقال الحسن والفراء والكسائي: الميّت بالتشديد: من لم يَمُتْ وسيموت، والمَيْت بالتخفيف: مَنْ فارقته الروح؛ فلذلك لم تُخفف هنا[٥]. قال قتادة: نُعِيتْ إلى النبي ﷺ نَفْسُه، ونُعِيَتْ إليكم أنفسُكم[٦]. وقال ثابت البُناني: نَعَى رجلٌ إلى صِلَة ابن أَشْيَم أخاً له فوافقه يأكل، فقال: ادْنُ فَكُلْ، فقد نُعِيَ إليَّ أخي منذ حين؛ قال: وكيف وأنا أوّل من أتاك بالخبر. قال: إن الله تعالى نعاه إليّ فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٧].

وهو خطابٌ للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم؛ فاحتمل خمسةَ أوجه: أحدها أن

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١ .

(٣) إعراب القرآن ٤/ ١١ ، وما قبله منه.

(٤) في (د) و(ز) و(م): الشواذ، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن.

(٥) ذكر قول الفراء والكسائي البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ .

(٦) ذكره العيني في عمدة القاري ١٨/ ٦٠ .

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٣٨ . وصلة بن أشْيَم: أبو الصهباء، العدوي، البصري، زوج العالمة معاذة العدوية، مات سنة (٦٢هـ). السير ٣/ ٤٩٧ .

يكون ذلك تحذيراً من الآخرة. الثاني: أن يُذكِّره حثّاً على العمل. الثالث: أن يُذكِّره توطئة للموت. الرابع: لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأُمَمُ في غيره، حتى إن عمرَ ﷺ لما أنكر موتَه احتجَّ أبو بكر ﷺ بهذه الآية فأمسك. الخامس: لِيُعْلمه أن الله تعالى قد سوَّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره؛ لِتكثر فيه السَّلوة وتقلَّ فيه الحَسْرة(١).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم؛ قاله ابن عباس(٢) وغيره. وفي خبر فيه طول: إن الخصومةَ تبلغ يومَ القيامة إلى أن يُحاجَّ الروحُ الجسد(٣).

وقال الزبير: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله، أيُكَرَّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواصِّ الذنوب؟ قال: «نعم، لَيُكرَّرنَّ عليكم حتى يؤدَّى إلى كل ذي حقٍّ حقَّه» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد(٤).

وقال ابن عمر: لقد عِشنا بُرهةً من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابَيْن ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فقلنا: وكيف نختصمُ ونبينا واحد وديننا واحد، حتى رأيتُ بعضنا يضربُ وجوهَ بعض بالسيف؛ فعرفتُ أنها فينا نزلت(٥).

وقال أبو سعيد الخُدري: كنا نقول: ربنا واحد، وديننا واحد، ونبيُّنا واحد فما هذه الخصومة. فلما كان يوم صِفِّين وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٥ ، وخبر إنكار عمر ﷺ موتَ النبي ﷺ عند البخاري (١٢٤١) وسلف ٥/ ٣٤٢ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠١ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠ .

(٤) أخرجه أحمد (١٤٣٤) بهذا اللفظ، وأخرجه الترمذي (٣٢٣٦) بنحوه مختصراً.

(٥) ذكره بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ ، وأخرجه بنحوه النسائي في الكبرى (١١٣٨٣)، والطبري ٢٠/ ٢٠٢ ، وقوله: حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف. يعني فتنة مقتل عثمان ﷺ.

وقال إبراهيم النَّخَعي: لما نزلت هذه الآية جعل أصحابُ رسول الله ﷺ يقولون: ما خصومتنا بيننا؟ فلما قُتل عثمان ﷺ قالوا: هذه خصومتنا بيننا(١).

وقيل: تخاصُمهم هو تحاكُمهم إلى الله تعالى، فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مَظْلِمته، ويردُّها في حسنات مَن وَجَبتْ له.

وهذا عامٌّ في جميع المظالم، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المُفْلس؟» قالوا: المُفْلس فينا مَن لا درهمَ له ولا مَتاع. قال: «إنَّ المفلسَ من أمّتي مَن يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دم هذا، وضرب هذا، فيعطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإنْ فَنِيتْ حسناتُه قبل أن يُقْضَى(٢) ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحت عليه، ثم طُرِحَ في النار» خرجه مسلم(٣). وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «آل عمران».

وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «من كانت له مَظْلِمةٌ لأحد(٤) من عِرْضه أو شيء فَلْيتحلله منه اليومَ قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرهم، إن كان له عملٌ صالح أُخِذَ منه بقدر مَظْلِمته وإن لم تكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئات صاحبه فحمل عليه»(٥) وفي الحديث المسند: أوّلُ ما تقع الخُصومات في الدنيا(٦). وقد ذكرنا هذا الباب كلَّه في «التذكرة» مستوفى(٧).

---

(١) ذكر هذا الخبر والذي قبله البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ . وقول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٢ .

(٢) في النسخ: قبل انقضاء، والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح مسلم، والحديث منه كما سيأتي.

(٣) الحديث (٢٥٨١)، وسلف ٥/ ٤١٤ .

(٤) في النسخ: من كانت له عنده لأخيه مظلمة. والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح البخاري.

(٥) صحيح البخاري (٢٤٤٩) وسلف ٢/ ٧٦ .

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (برواية نعيم بن حماد) (٣٨٨) من قول ابن مسعود ﷺ مطولاً بلفظ: إن الله يجمع الناس في صعيد واحد... ثم يكون أول ما يبدؤون من الخصومات في الدنيا، فيؤتى بالقاتل والمقتول...

(٧) ص٢٦٧ .

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزعم أنَّ له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ يعني القرآن، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ استفهامُ تقرير ﴿مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: مقامٌ للجاحدين[١]، وهو مشتقٌّ من: ثَوَى بالمكان، إذا أقام به يَثْوِي ثَوَاء وثُوِيّاً، مثل: مَضَى مَضَاء ومُضِيّاً[٢]، ولو كان من أثْوَى لكان مُثْوًى. وهذا يدلّ على أن ثَوَى هي اللغةُ الفصيحة. وحكى أبو عُبيدة[٣]: أثوى، وأنشد قول الأعشى:

أَثْـوَى وقَـصَّـر لَـيْـلَـةً لِـيُـزَوَّدا ومَضَى وأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدا[٤]

والأصمعيُّ لا يعرف إلا ثَوَى، ويروي البيت: أَثَوَى، على الاستفهام. وأَثْوَيتُ غيري يتعدَّى ولا يتعدَّى[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٦]، واختلف في الذي جاء بالصدقِ وصَدَّقَ بِهِ؛ فقال عليٌّ ﷺ: «الذي جاءَ بالصِّدْق» النبيُّ ﷺ، «وَصدَّقَ بِهِ» أبو بكر ﷺ[٧]. وقال مجاهد: النبيُّ عليه الصلاة والسلام وعليّ ﷺ[٨]. السّدي: الذي جاء بالصِّدق جبريلُ ﷺ، والذي صدَّق به

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٩ .
(٢) الصحاح (ثوي).
(٣) في النسخ: أبو عبيد، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١ ، والكلام منه.
وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٠٧ .
(٤) ديوان الأعشى ص٢٧٧ .
(٥) الصحاح (ثوي).
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ .
(٧) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٤ .
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١ .

محمدٌ ﷺ[١]. وقال ابن زيد ومقاتل وقتادة: «الذي جاءَ بِالصِّدْق» النبيُّ ﷺ «وَصَدَّقَ به» المؤمنون. واستدلوا على ذلك بقوله: «أولئك هم المُتَّقُونَ»[٢]، كما قال: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال النَّخَعي ومجاهد: «الذي جاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّقَ به» المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يومَ القيامة فيقولون: هذا الذي أعطيتمُونا قد اتَّبعنا ما فيه[٣]؛ فيكون «الذي» على هذا بمعنى جمع، كما تكون مَنْ بمعنى جمع، وقيل: بل حُذفت منه النون لِطُول الاسم. وتأوَّله الشعبي على أنه واحد، وقال: «الذي جاءَ بِالصِّدْقِ» محمد ﷺ، وصدَّق به محمد ﷺ[٤]، فيكون على هذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يُعظَّم: هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا.

وقيل: إن ذلك عامٌّ في كل مَن دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قاله ابن عباس وغيره، واختاره الطبري[٥].

وفي قراءة ابن مسعود: «والذي جَاؤُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ»[٦] وهذه قراءة على التفسير. وفي قراءة أبي صالح الكوفي: «والذي جاءَ بِالصِّدْق وصَدَقَ به» مُخَفَّفاً على معنى: وصَدَقَ بمجيئه به، أي: صَدَقَ في طاعة الله عز وجل[٧]، وقد مضى في «البقرة» الكلامُ في «الَّذِي» وأنه يكون واحداً ويكون جمعاً[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٩ ، وقول قتادة وابن زيد أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٥ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٦ عن مجاهد.

(٤) قوله وصدَّق به محمد ﷺ، ليس في (د) و(ز) و(م)، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ وعبارته: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وصدَّق به أبو بكر الصديق ﷺ والصحابة. والمثبت من (ظ) ونسخة من إعراب القرآن للنحاس أشار إليها محققه، وهو الصواب.

(٥) في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٦ ، وأخرج قول ابن عباس ﷺ ٢٠/ ٢٠٤ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣١ ، والدر المصون ٩/ ٤٢٧ ، ووقع في القراءات الشاذة: جاء، بدل: جاؤوا.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ ، وقراءة أبي صالح في المحتسب ٢/ ٢٣٧ .

(٨) ١/ ٣٢٠ - ٣٢١ .

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من النعيم في الجنة، كما يقال: لك إكرامٌ عندي؛ أي: يَنالك: مني ذلك. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الثَّناء في الدنيا والثوابُ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: صَدَّقوا «لِيُكَفِّرَ اللهُ عنهم» ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: يُكرمهم ولا يُؤاخذهم بما عملوا قبلَ الإسلام ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: يُثيبهم على الطاعات في الدنيا ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ حُذفت الياء من «كاف» لِسُكونها وسكون التنوين بعدها؛ وكان الأصل ألا تُحذف في الوقف لِزوال التنوين، إلا أنها حُذفت لِيُعْلَمَ أنها كذلك في الوصل. ومن العرب من يُثبتها في الوقف على الأصل فيقول: كافي[(١)].

وقراءة العامة: «عَبْدَهُ» بالتوحيد؛ يعني محمداً ﷺ يَكفيه اللهُ وعيدَ المشركين وكَيْدَهم. وقرأ حمزة والكسائي: «عِبَادَهُ»[(٢)] وهم الأنبياء، أو الأنبياء والمؤمنون بهم. واختار أبو عُبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[(٣)]. ويَحتمِلُ أن يكون العبدُ لفظ الجنس؛ كقوله عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] وعلى هذا تكون القراءةُ الأولى راجعةً إلى الثانية.

والكفاية [من][(٤)] شر الأصنام، فإنهم كانوا يُخوِّفون المؤمنين بالأصنام، حتى قال إبراهيم عليه السلام. ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢.
(٢) السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٨٨.
(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٨١.
(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

﴿بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال الجُرجاني: إنَّ الله كافٍ عبدَه المؤمن وعبدَه الكافر، هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وذلك أنهم خوَّفوا النبيَّ ﷺ مَضَرَّةَ الأوثان، فقالوا: أتسبُّ آلهتَنا؟ لئن لم تَكُفَّ عن ذِكْرِها لَتَخْبِلَنَّكَ أو تُصيبنَّك بسوء[1].

وقال قتادة: مشى خالدُ بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرَها بالفأس، فقال له سادِنها: أُحَذِّرُكَها يا خالد، فإن لها شدّةً لا يقوم لها شيء، فَعَمَدَ خالد إلى العُزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس[2]. وتخويفُهم لخالد تخويفٌ للنبيِّ ﷺ؛ لأنه الذي وجَّه خالداً.

ويدخل في الآية تخويفُهم النبيّ ﷺ بِكَثْرة جَمْعهم وقُوَّتِهم؛ كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ تقدَّم. ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ممن عاداه أو عادى رُسُلَه.

**قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولئن سألتَهم يا محمد ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ بيَّنَ أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقِرُّون بأنَّ الخالقَ هو الله، وإذا

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٢ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٠.

كان الله هو الخالقَ فكيف يُخوِّفونَك بآلهتهم التي هي مخلوقةٌ لله تعالى، وأنت رسولُ اللهِ الذي خلقها وخلقَ السماواتِ والأرضَ؟!.

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ أي: قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا: «أَفرأَيْتُمْ» ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ يعني هذه الأصنام ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ نعمة ورَخاء ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ قال مقاتل: فسألهم النبيُّ ﷺ فسكتوا[١]. وقال غيره: قالوا: لا تَدْفَعُ شيئاً قدَّره الله، ولكنها تشفع، فنزلت: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه؛ يعني فسيقولون: لا، فـ«قُلْ» أنت: «حَسْبِيَ اللهُ» أي: عليه توكَّلتُ، أي: اعتمدتُ و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعتمد المعتمدون[٢]. وقد تقدّم الكلام في التوكل[٣].

وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا عاصماً: «كَاشفَاتُ ضُرِّه» بغير تنوين[٤]. وقرأ أبو عمرو وشيبة ـ وهي المعروفة من قراءة الحسن ـ وعاصم[٥]: «هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ»، «مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ» بالتنوين على الأصل[٦]، وهو اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم؛ لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال، وإذا كان كذلك كان التنوين أجودَ. قال الشاعر:

الضاربون عُمَيْراً عن بيوتهم ... بالليل يوم عُمَير ظالمٌ عادي[٧]

ولو كان ماضياً لم يَجُزْ فيه التنوين، وحذفُ التنوين على التخفيف[٨]، فإذا

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٠ .

(٢) الكلام السالف في تفسير الطبري ٢٠/ ٢١١-٢١٢ بنحوه.

(٣) ٥/ ٢٩١ و٣٨٥ .

(٤) السبعة ص٥٦٢ ، والتيسير ص١٩٠ ، وقراءة عاصم المشهورة عنه بغير تنوين، وقرأ بها ابن عامر أيضاً.

(٥) هذه رواية الكسائي عن أبي بكر عن عاصم، كما في السبعة ص٥٦٢ ، وهو غير المشهورة عنه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣ .

(٧) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٨٨ ، وفي الحُلل للبطليوسي ص١١٩ .

(٨) في (ف) و(م): التحقيق، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣ ، والكلام منه.

حذفت التنوين لم يَبْقَ بين الاسمين حاجزٌ، فخفضت الثاني بالإضافة. وحذفُ التنوين كثيرٌ في كلام العرب موجودٌ حسن؛ قال الله تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:٩٥] وقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ [القمر:٢٧] قال سيبويه: ومثل ذلك ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة:١] وأنشد سيبويه[(١)]:

هل أَنْتَ باعِثُ دِينارٍ لحاجتِنا ... أو عَبْدَ رَبٍّ أَخا عَوْنِ بنِ مِخْراقِ[(٢)]

وقال النابغة:

احْكُمْ كَحُكْمِ فتاةِ الحَيِّ إذْ نَظَرَتْ ... إلى حَمَام شِراعٍ وارِدِ الثَّمَدِ[(٣)]

معناه: وارِدٍ الثَّمَدَ، فحذف التنوين؛ مثل «كَاشِفَاتُ ضُرِّه»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي: على مكانتي، أي: على جهتي التي تمكَّنتْ عندي[(٥)] ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقرأ أبو بكر: «مَكَانَاتِكُمْ» وقد مضى في «الأنعام»[(٦)]. ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يُهينه ويُذِلُّه، أي: في الدنيا، وذلك بالجوع والسيف. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تقدَّم الكلامُ في هذه الآيةِ مستوفىً في غير موضع[(٧)].

---

(١) في الكتاب ١/ ١٧١ .

(٢) قال البغدادي في الخزانة ٨/ ٢١٩ : والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، وقال ابن خلف: وقيل: هو لجابر بن رألان السِّنبسي، وسِنبس: أبو حي من طيئ، ونسبه غير خَدمة سيبويه إلى جرير، وإلى تأبط شرًّا، وإلى أنه مصنوع. ا.هـ .

(٣) ديوان النابغة ص٣٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣-١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤ .

(٦) ٩/ ٣٥ ، وقراءة أبي بكر في السبعة ص٢٦٩ ، والتيسير ص١٠٧ .

(٧) ١١/ ٦٠ .

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه أربع مسائل:

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يَقْبِضها عند فَناء آجالها ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ اختلف فيه. فقيل: يَقْبِضها عن التصرف مع بقاء أرواحها في أجسادها. ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي النائمة، فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها؛ قاله ابن عيسى[1]. وقال الفراء[2]: المعنى: ويَقْبِض التي لم تَمُتْ في منامها عند انقضاء أَجَلها. قال: وقد يكون تَوَفِّيها نَوْمَها؛ فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمتْ وفاتُها نومُها.

وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواحَ الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعُها الرُّجوعَ إلى الأجساد أَمْسك الله أرواحَ الأموات عنده، وأرسل أرواحَ الأحياء إلى أحسادها.

وقال سعيد بن جُبير: إن الله يقبض أرواحَ الأموات إذا ماتوا وأرواحَ الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فَيُعيدها[3].

قال علي ﷺ: فما رأته نَفْسُ النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها تلقيها الشياطين، وتُخيِّل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة[4]. وقال ابن زيد: النوم وفاةٌ والموتُ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٨.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٠.

(٣) في (م): أي: يعيدها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٢٨ - ١٢٩، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٥.

وفاة[١]. وعن النبي ﷺ قال: «كما تنامون فكذلك تموتون، وكما توقظون فكذلك تُبعثون»[٢]. وقال عمر: النوم أخو الموت. ورُوي مرفوعاً من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسولَ الله، أينام أهلُ الجنة؟ قال: «لا، النومُ أخو الموت، والجنةُ لا موتَ فيها» خرجه الدارقطني[٣]. وقال ابن عباس: في ابن آدم نفسٌ وروح بينهما مثلُ شعاع الشمس، فالنفسُ التي بها العقل والتمييز، والروحُ التي بها النَّفَسُ والتحريك، فإذا نام العبدُ قبضَ اللهُ نَفْسَه ولم يقبضْ رُوحَه[٤]. وهذا قولُ ابن الأنباري والزجاج[٥].

قال القشيري أبو نصر: وفي هذا بُعْدٌ، إذ المفهوم من الآية أنّ النَّفْسَ المقبوضة في الحالين شيء واحد؛ ولهذا قال: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ فإذاً يقبِضُ اللهُ الروحَ في حالين، في حالة النوم وحالة الموت، فما قبضَه في حال النوم فمعناه أنه يَغْمُرُه بما يَحْبِسُه عن التصرف، فكأنه شيء مقبوض، وما قبضَه في حال الموت فهو يُمسكه ولا يُرسله إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: يُزيل الحابسَ عنه فيعود كما كان. فَتَوفِّي الأنفس في حال النوم بإزالة الحِسّ وخَلْق الغَفْلة والآفة في مَحَلّ الإدراك. وتوفِّيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالةِ الحِسّ بالكُلِّية.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بألا يَخلُقَ فيها الإدراكَ، كيف وقد خلقَ فيها الموت؟ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ بأنْ يُعيدَ إليها الإحساسَ.

**الثانية**: وقد اختلف الناسُ من هذه الآية في النفس والروح؛ هل هما شيءٌ واحد أو شيئان على ما ذكرنا. والأظهر أنهما شيءٌ واحد، وهو الذي تدلُّ عليه

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٦ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) لم نقف عليه عند الدارقطني، وسلف ٥/ ١٥٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٤ بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٦ .

الآثار الصحاح على ما نذكره في هذا الباب، من ذلك حديث أُمِّ سلمة قالت: دخل رسولُ الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقَّ بصرُه فأغمضه، ثم قال: «إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِض تَبِعه البصرُ» وحديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألم تروا الإنسانَ إذا مات شَخَصَ بَصرُه» قال: «فذلك حين يَتْبع بَصَرُه نَفْسَه» خرجهما مسلم(١).

وعنه عن النبي ﷺ قال: «تحضرُ الملائكةُ فإذا كان الرجلُ صالحاً قالوا: اخرجي أيتها النَّفْسُ الطَّيِّبة كانت في الجسدِ الطَّيِّب، اخرجي حميدةً، وأَبشري برَوْح ورَيْحان وربٍّ راضٍ غيرِ غَضْبان، فلا يزالُ يقال لها ذلك حتى تخرجَ، ثم يُعرج بها إلى السماء» وذكر الحديث، وإسناده صحيح، خرجه ابن ماجه(٢)؛ وقد ذكرناه في «التذكرة»(٣).

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: «إذا خَرجَتْ روحُ المؤمن تلقَّاها مَلَكان يَصْعَدان بها». وذكر الحديث(٤).

وقال بلال في حديث الوادي: أخذ بنَفْسي يا رسول الله الذي أَخَذَ بنفسك(٥).

وقال رسولُ الله ﷺ مقابلاً له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي: «يا أيها الناس، إن الله قبضَ أرواحَنا، ولو شاء ردَّها إلينا في حينٍ غيرِ هذا»(٦).

**الثالثة**: والصحيح فيه أنه جسمٌ لطيفٌ مُشابِكٌ للأجسام المحسوسة، يُجذَب ويُخْرج وفي أكفانه يُلَف ويُدرَج، وبه إلى السماء يُعرَج، لا يموت ولا يفنى، وهو مما له أوّل وليس له آخر، وهو بعينين ويدين، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة؛ كما في حديث

---

(١) برقم (٩٢٠) و(٩٢١)، والحديث الأول أخرجه أحمد (٢٦٥٤٣).

(٢) الحديث (٤٢٦٢)، وهو في مسند أحمد (٨٧٦٩).

(٣) ص٥٠ .

(٤) صحيح مسلم (٢٨٧٢).

(٥) أخرجه مسلم (٦٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه مالك ١/ ١٤ بهذا اللفظ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٦١١)، والبخاري (٥٩٥) من حديث أبي قتادة ﷺ.

أبي هريرة. وهذه صفةُ الأجسام لا صفة الأعراض؛ وقد ذكرنا الأخبارَ بهذا كلِّه في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»[١]. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣] يعني النَّفْس إلى خروجها من الجسد؛ وهذه صفةُ الجسم. والله أعلم.

**الرابعة**: خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أوى أحدُكم إلى فِراشه فَلْيأخُذْ داخِلةَ إزاره فلينفُضْ بها فِراشَه وَلْيُسَمِّ اللهَ، فإنه لا يعلم ما خَلَفَهُ بعده[٢] على فراشه، فإذا أرادَ أن يضطجعَ فَلْيضطجِعْ على شِقِّه الأيمن، وليقل: سبحانك ربي، بك[٣] وضعتُ جنبي وبك أرفعه، إن أمسكتَ نَفْسي فاغفِرْ لها». وقال البخاري وابن ماجه والترمذي: «فارحمها» بدل«فاغفر لها»، «وإنْ أَرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» زاد الترمذي «وإذا استيقظ فليقل: الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردَّ عليَّ روحي، وأَذِنَ لي بذِكْره»[٤].

وخرج البخاري عن حُذَيْفة قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أخذ مَضْجعه من الليل وضعَ يدَه تحت خدِّه؛ ثم يقول: «اللهم باسمك أموتُ وأحيا» وإذا استيقظ قال «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتَنا وإليه النُّشور»[٥].

قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمَّى الفاعل «الموْتَ» نصباً؛ أي: قضى الله عليها، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عُبيد؛ لقوله في أول الآية: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ فهو يقضي عليها.

---

(١) ص٥٧ وما بعدها.

(٢) في النسخ: بعد، والمثبت من صحيح مسلم.

(٣) قوله: بك، ليس في (د) و(ز) و(م)، وفي (ف): لك وأثبتناه من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٦٣٢٠)، وصحيح مسلم(٢٧١٤)، وسنن ابن ماجه (٣٨٧٤) وسنن الترمذي (٣٤٠١). وهو في مسند أحمد (٧٨١١)، وقوله: بداخلة إزاره: أي: بالطرف الذي يلي الجسد. قاله السندي في حاشية مسند أحمد.

(٥) صحيح البخاري (٦٣١٤)، وهو في مسند أحمد (٢٣٢٨٦).

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائي: «قُضِيَ عليها الموتُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله[١]. النحاس[٢]: والمعنى واحدٌ غير أن القراءةَ الأُولى أبينُ وأشبهُ بنسق الكلام؛ لأنهم قد أجمعوا على «وَيُرْسِلُ» ولم يقرؤوا: «ويُرسَل».

وفي الآية تنبيهٌ على عظيم قُدرته وانفراده بالألوهية، وأنه يفعل ما يشاء، ويُحيِي ويُميت، لا يقدر على ذلك سواه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني في قبض الله نَفْسَ الميت والنائم، وإرساله نَفْسَ النائم وحَبْسه نَفْسَ الميت ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال الأصمعي: سمعتُ معتمراً يقول: روحُ الإنسان مثلُ كُبَّة الغَزْل، فترسل الروح، فتمضي ثم تمضي، ثم تُطوى فتجيء فتدخل، فمعنى الآية أنه يُرسَل من الروح شيء في حال النوم ومعظمُها في البدن متصلٌ بما يخرج منها اتصالاً خفيّاً، فإذا استيقظ المرءُ جذب معظمَ روحه ما انبسط منها فعاد. وقيل غير هذا؛ وفي التنزيل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] أي: لا يعلم حقيقته إلا الله. وقد تقدّم في «سبحان».

**قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أي: بل اتَّخذوا، يعني: الأصنام، وفي الكلام ما يتضمَّن لم؛ أي: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لم يتفكَّروا، ولكنهم اتَّخذوا آلهتهم شُفعاء.

---

(١) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ١٤، وما قبله منه.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: أتتخذونهم شُفعاءَ وإن كانوا لا يَملِكون شيئاً من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنها جمادات[١]. وهذا استفهامُ إنكار.

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ نصٌّ في أن الشفاعةَ لله وحدَه كما قال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٤] فلا شافعَ إلا من شفاعته ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

«جَميعاً» نصب على الحال. فإن قيل: «جَميعاً» إنما يكون للاثنين فصاعداً والشفاعة واحدة. فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدَّى عن الاثنين والجميع[٢] ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه، وعلى الحال عند يونس. ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ قال المبرد: انقبضت[٣]. وهو قول ابن عباس ومجاهد[٤]. وقال قتادة: نفرتْ واستكبرتْ وكَفرتْ وتعصَّتْ[٥]. وقال المُؤَرِّج: أنكرت. وأصلُ الاشمئزاز النُّفور والازورار. قال عمرو بن كُلْثوم:

إذا عَضَّ الـثِّـقَـافُ بِـهـا اشْـمَـأَزَّتْ ... وَوَلَّـتْـهُـمْ عَـشَـوْزَنَـةً زَبُـونـا[٦]

وقال أبو زيد: اشمأزَّ الرجلُ: ذُعِرَ من الفَزَع، وهو المذعور[٧]. وكان المشركون إذا قيل لهم: لا إله إلا الله نفروا وكفروا[٨]، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعني

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٨١ بنحوه.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨.
(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٦ بنحوه.
(٦) معلقة عمرو بن كلثوم (بشرح ابن كيسان) ص٨٥. قال الشارح: الثِّقاف: الخشبة التي تُقوَّم بها الرماح، والعَشَوْزنة: الناقة السيئة الخلق التي تزبن من يحتلبها، أي: تدفعه بيدها ورجلها.
(٧) الصحاح (شمز).
(٨) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٦.

الأوثان حين ألقى الشيطان في أُمنية النبي ﷺ عند قراءته سورة «والنجم»: تلك الغَرانيقُ العُلَى وإن شفاعتَهم تُرْتَجى. قاله جماعةُ المفسرين[1]. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يظهر في وجوههم البِشر والسُّرور.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نصب لأنه نداء مضاف، وكذا ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتاً[2].

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي «صحيح» مسلم: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشةَ رضي الله عنها: بأي شيء كان النبيُّ ﷺ يستفتح صلاتَه إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاتَه: «اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ اهدني لما اختُلف فيه من الحقّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[3].

ولمَّا بلغ الربيع بن خُثيم[4] قَتْلَ الحسين بن علي ﷺ قرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٨١ بنحوه، وقصة الغرانيق باطلة موضوعة، وسلفت ١٤/ ٤٢٧ ، ينظر الكلام عليها ثمة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ .

(٣) صحيح مسلم (٧٧٠)، وأخرجه أحمد (٢٥٢٢٥).

(٤) في (د) و(ظ) و(ف) و(م): خيثم، والمثبت من (ز) وكتب الرجال.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[١].

وقال سعيد بن جُبير: إني لأعرفُ آيةً ما قرأها أحدٌ قطُّ فسألَ اللهَ شيئاً إلاَّ أعطاه إيَّاه؛ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كذَّبوا وأَشركوا ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: من سوء عذاب ذلك اليوم. وقد مضى هذا في سورة «آل عمران» و«الرعد»[٣].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ من أجلِّ ما رُوي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال: عَمِلوا أعمالاً توهَّموا أنها حسناتٌ فإذا هي سيئات. وقاله السدي. وقيل: عملوا أعمالاً توهَّموا أنهم يتوبون منها قبلَ الموت، فأدركهم الموتُ قبل أن يتوبوا، وقد كانوا ظنُّوا أنهم ينجون بالتوبة. ويجوز أن يكونوا توهَّموا أنه يُغفر لهم من غير توبة فـ ﴿بَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ من دخول النار[٤].

وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويلٌ لأهل الرِّياء، ويلٌ لأهل الرِّياء، هذه آيتُهم وقصَّتُهم. وقال عكرمة بن عمار[٥]: جَزِعَ محمدُ بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آيةً من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١١١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٣) ٥/ ١٩٨ وما بعدها و١٢/ ٥٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ دون قوله: وقاله السدي، وذكره عن السدي البغوي في تفسيره ٤/ ٨٢ .

(٥) أبو عمار العجلي، البصري، الحافظ، من حملة الحجة وأوعية الصدق، مات سنة (١٥٩هـ). السير ٧/ ١٣٤ . وقوله هذا في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٥ ، وقول سفيان الذي قبله فيه وفي الكشاف ٣/ ٤٠١ .

لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ فأنا أخشى أن يبدوَ لي ما لم أكن أحتسب.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: عقابُ ما كسبوا من الكُفر والمعاصي. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ونزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ قيل: إنها نزلت في أبي[1] حُذَيفة بن المغيرة.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال قتادة: «على عِلْم»[2] عندي بوجوه المكاسب، وعنه أيضاً «على عِلْم» على خير عندي. وقيل: «على عِلْم» أي: على علم من الله بفضلي. وقال الحسن: «على عِلْم» أي: بعلم علَّمني اللهُ إيَّاه[3]. وقيل: المعنى أنه قال: قد علمتُ أني إذا أُوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلةً؛ فقال الله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: بل النِّعم التي أُوتيتَها فتنةٌ تُختبر بها[4].

قال الفراء[5]: أنَّثَ «هي» لِتأنيث الفتنة، ولو كان: بل هو فتنة لجاز. النحاس: التقدير: بل أُعطِيتَهُ فتنةً.

---

(١) لفظة: أبي، ليست في (م). والكلام من النكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٢) قوله قال: قتادة: «على علم» من (م).

(٣) الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٦ ، والنكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس٦/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٥ .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن إعطاءهم المالَ اختبار.

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أنَّثَ على تأنيث الكلمة[1] ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني الكفار قبلَهم، كقارون وغيره حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «ما» للجحد، أي: لم تُغن عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من عذاب الله شيئاً[2]. وقيل: أي: فما الذي أغنى أموالهم؟ ف «ما» استفهام.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئات أعمالهم. وقد يُسمَّى جزاء السيئة سيئةً. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ الأمة ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: بالجوع والسيف. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين الله ولا سابقيه. وقد تقدّم[3].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خصَّ المؤمن بالذِّكر؛ لأنه هو الذي يتدبَّر الآياتِ وينتفع بها. ويعلم أن سَعةَ الرِّزق قد يكون مكراً واستدراجاً، وتقتيره رِفعةً وإعظاماً.

**قوله تعالى:** ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإنْ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٨٢ بنحوه.

(٣) ٩/ ٣٥ و١١/ ٨ .

شئتَ حذفتَ الياء؛ لأن النداء موضع حذف. النحاس[١]: ومن أجلّ ما رُوي فيه ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: لما اجتمعنا على الهجرة، اتَّعَدْتُ أنا وهشام بن العاصي بن وائل السَّهْمي وعَيَّاش بن أبي ربيعة بن عُتْبة[٢]، فقلنا: الموعد أَضاةَ[٣] بني غفار، وقلنا: من تأخَّر منا فقد حُبِس فَلْيمضِ صاحبُه، فأصبحتُ أنا وعيَّاش بن عُتبة، وحُبس عنا هشام، وإذا به قد فُتن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عَرَفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله ﷺ، ثم افتتنوا لبلاءٍ لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قال عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثتُها إلى هشام. قال هشام: فلما قدمَتْ عليَّ خرجت بها إلى ذي طُوًى، فقلت: اللهم فَهِّمْنيها، فَعَرَفْتُ أنها نزلت فينا، فرجَعْتُ فجلست على بعيري، فلحقتُ برسول الله ﷺ[٤].

وعن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كان قومٌ من المشركين قَتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبيّ ﷺ، أو بعثوا إليه: إنَّ ما تدعو إليه لحسن، لو تُخبرنا[٥] أن لنا توبةً؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٦]

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ١٦ ، وما قبله منه.

(٢) كذا في النسخ: عيَّاش بن أبي ربيعة بن عتبة، وفي إعراب القرآن للنحاس: عيَّاش بن عتبة، والذي في المصادر: عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله القرشي المخزومي. الإصابة ٧/ ١٨٤ ، والقصة فيها في ترجمة هشام بن العاص ١٠/ ٢٤٦ وصحَّح الحافظ ابن حجر إسنادها.

(٣) الأضاة: الغدير. اللسان (أضي).

(٤) السيرة النبوية ١/ ٤٧٥ - ٤٧٦ ، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٠-٣٩١ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): أو تخبرنا، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦ .

ذكره البخاري بمعناه[١]. وقد مضى في آخر «الفرقان»[٢].

وعن ابن عباس أيضاً نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ أن مَن عَبَدَ الأوثانَ وقتلَ النَّفس التي حرَّم الله لم يُغفر له، وكيف نُهاجر ونُسْلم وقد عَبَدنا مع الله إلهاً آخرَ، وقتلنا النَّفْس التي حرَّم الله؟! فأنزل الله هذه الآية[٣].

وقيل: إنها نزلتْ في قوم من المسلمين أَسرفوا على أنفسهم في العبادة، وخافوا ألّا يتقبلَ منهم لذنوب سبقتْ لهم في الجاهلية.

وقال ابن عباس أيضاً وعطاء: نزلت في وحشيّ قاتل حمزةَ؛ لأنه ظنَّ أن الله لا يقبل إسلامَه. وروى ابن جُريج عن عطاء عن ابن عباس قال: أَتَى وَحْشيٌّ إلى النبيّ ﷺ؛ فقال: يا محمد، أتيتُك مُستجيراً فأَجِرْني حتى أسمعَ كلامَ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: «قد كنتُ أُحِبُّ أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مُستجيراً فأنت في جواري حتى تسمعَ كلامَ الله» قال: فإني أشركتُ بالله وقتلتُ النفس التي حرم الله وزنيتُ، هل يقبلُ الله مني توبة؟ فصمتَ رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى آخر الآية، فتلاها عليه؛ فقال: أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمعَ كلام الله. فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فدعا به فتلاها عليه؛ قال: فلعلي ممن لا يشاء، أنا في جوارك حتى أسمع كلامَ الله. فنزلت: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ فقال: نعم، الآن لا أرى شرطاً. فأسلم[٤].

---

(١) الحديث (٤٨١٠)، والسائل هو وحشي بن حرب قاتل حمزة رضي الله عنهما فيما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٥٠.

(٢) ١٥/ ٤٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٢٤، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٨٩.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٧١٤٠)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٤٩ - ٣٥٠.

وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شَهْر بن حَوْشَب عن أسماء أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ: «قُلْ يا عبادِيَ الذين أَسْرَفُوا على أنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جمِيعاً ولا يُبالي، إنَّه هو الغَفُورُ الرحيمُ»[١]. وفي مصحف ابن مسعود: «إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً لِمَنْ يشاءُ»[٢].

قال أبو جعفر النحاس[٣]: وهاتان القراءتان على التفسير، أي: يغفر الله لمن يشاء. وقد عرَّف الله عز وجل من شاء أن يغفر له، وهو التائب أو من عمل صغيرةً ولم تكن له كبيرة، ودلّ على أنه يريد التائب ما بعده «وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ» فالتائب مغفور له ذنوبُه جميعاً، يدل على ذلك ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢] فهذا لا إشكالَ فيه.

وقال عليّ بن أبي طالب: ما في القرآن آيةٌ أوسعَ من هذه الآية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[٤] وقد مضى هذا في «سبحان»[٥].

وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجى آية في القرآن، فردَّ عليهم ابن عباس وقال: أرجى آية في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[٦] وقد مضى في «الرعد» [الآية: ٦].

وقُرئ: «لا تَقْنِطُوا» بكسر النون وفتحها[٧]. وقد مضى في «الحجر» بيانه[٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة. لمَّا بيَّن أن من تاب

(١) أخرجه الدوري في قراءات النبي ﷺ (٦٠)، والترمذي (٣٢٣٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ثابت عن شهر بن حوشب. وأسماء: هي بنت يزيد أم سلمة الأنصارية رضي الله عنها.

(٢) ذكره ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٤/ ١٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣١ .

(٥) ١٠/ ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦ .

(٧) قرأ بكسر النون أبو عمرو والكسائي، والباقون بفتحها. السبعة ص٣٦٧ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٨) ١٢/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

من الشِّرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابةُ الرجوع إلى الله بالإخلاص. ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي: اخضعوا له وأطيعوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تُمنعون من عذابه. ورُوي من حديث جابر أن رسولَ الله ﷺ قال: «مِن السعادة أن يُطيل اللهُ عُمُرَ المرء في طاعة الله[1] ويرزقه الإنابةَ، وإنَّ من الشَّقاوة أن يعملَ المرءُ ويُعجب بعمله»[2].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ «أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ» هو القرآن، وكلُّه حسنٌ، والمعنى ما قال الحسن: التزموا طاعتَه، واجتنبوا معصيتَه. وقال السدّي: الأحسنُ ما أمر الله به في كتابه[3].

وقال ابن زيد: يعني المُحكمات، وكِلُوا عِلْمَ المُتشابه إلى عالمه. وقيل: أنزل الله كُتباً: التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن، وأمر باتّباعه، فهو الأحسن، وهو المُعجِز. وقيل: هذا أحسنُ، لأنه ناسخٌ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة. وقيل: يعني العفو؛ لأن الله تعالى خيَّر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بين العفو والقِصاص. وقيل: ما علَّم الله النبيَّ عليه الصلاة والسلام وليس بقرآن فهو حسن، وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن. وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ﴾ «أَنْ» في موضع نصب، أي: كراهةَ «أَنْ تقولَ» وعند الكوفيين: لئلا تقول[4]، وعند البصريين حَذَرَ «أَنْ تقولَ». وقيل: أي:

---

(١) في (م): الطاعة.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٨٩)، وفي إسناده كثير بن زيد الأسلمي. ضعَّفه أكثرهم. كما في الميزان ٣/ ٤٠٤ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٨٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

من قبل «أَنْ تقولَ نَفْسٌ» لأنه قال قبل هذا: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾[1].

الزمخشري[2]: فإنْ قلتَ: لم نُكِّرتْ؟ قلت: لأن المُرادَ بها بعضُ الأنفس، وهي نفسُ الكافر. ويجوز أن يُريد نفساً متميزة من الأنفس، إمّا بلجاج في الكفر شديد، أو بعقاب عظيم. ويجوز أن يُراد التكثير كما قال الأعشى:

وربَّ بَقيعٍ لو هَتَفْتُ بِجَوِّهِ أتاني كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرأسَ مُغْضَبا[3]

وهو يريد أفواجاً من الكرام ينصرونه، لا كريماً واحداً، ونظيره: رُبَّ بلدٍ قطعتُ، وربَّ بطلٍ قارعتُ، ولا يقصد إلا التكثير[4].

«يا حَسْرَتا» والأصل «يا حَسْرَتي» فأُبدل من الياء ألف؛ لأنها أخفُّ وأمكن في الاستغاثة بمد الصوت[5]، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء:

يا مَرْحَباهِ بحمار ناجِيَهْ إذا أتَى قَرَّبْتُه لِلسَّانِيَهْ[6]

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدلَّ على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر: «يا حَسْرتايَ»[7]. والحَسْرة الندامة.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن: في طاعة الله[8]. وقال الضحاك: أي: في ذكر الله عزّ وجلّ. قال: يعني القرآن والعمل به[9]. وقال أبو عُبيدة: «في جَنْب

---

(١) زاد المسير ٧/ ١٩٢ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٣) ديوان الأعشى ص١٦٥ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٢ ، وفيه: ناهيه، بدل ناجيه. والرجز في الخزانة ٢/ ٣٨٧ . وفيها: السانية: الدلو العظيمة وأداتها.

(٧) النشر ٢/ ٣٦٢ .

(٨) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٥ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

الله» أي: في ثواب الله[١]. وقال الفراء: الجَنْب القُرب والجوار؛ يقال: فلان يعيشُ في جَنْبِ فلان، أي: في جِواره؛ ومنه ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦] أي: على ما فرَّطْتُ في طلب جِواره وقُربه، وهو الجنة[٢]. وقال الزجاج[٣]: أي: على ما فرَّطتُ في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه.

والعرب تُسمِّي السببَ والطريق إلى الشيء جَنْباً؛ تقول: تجرعتُ في جَنْبك غصصاً؛ أي: لأجلك وسببك ولأجل مَرْضاتك. وقيل: «في جَنْبِ اللهِ» أي: في الجانب الذي يؤدِّي إلى رضا الله عزّ وجلّ وثوابه، والعرب تُسمِّي الجانبَ جَنْباً[٤]، قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُوداً لِذاكَ القَلْبُ ... النَّاسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ[٥]

يعني: الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفةَ: أي: تركتُ من أمر الله؛ يقال: ما فعلت ذلك في جَنْب حاجتي؛ قال كُثَيِّر:

ألا تَتَّقِينَ اللهَ في جَنْبِ عاشِقٍ ... له كَبِدٌ حرَّى عليكِ تَقَطَّعُ[٦]

وكذا قال مجاهد؛ أي: ضيعت من أمر الله[٧]. ويُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جلسَ رجلٌ مَجْلِساً، ولا مَشَى ممشى، ولا اضطجع مُضطجعاً لم يذكُرِ اللهَ عزَّ وجلَّ فيه إلا كان عليه تِرَةً يومَ القيامة» أي: حسرةً؛ خرجه أبو داود بمعناه[٨]. وقال إبراهيم التيمي: من الحَسَرات يومَ القيامة أن يرى الرجلُ مالَه الذي آتاه اللهُ في الدنيا يومَ

---

(١) في مجاز القرآن، ٢/ ١٩٠ لأبي عبيدة: «في جنب الله» وفي ذات الله واحد.

(٢) ذكره عن الفراء ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٩٢ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٩ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٥ .

(٥) لم نقف على قائل هذا الرجز، وأورد البيت الثاني الأخفش في معاني القرآن ١/ ٤٤٦ .

(٦) ديوان كُثَيِّر ص١٧٧ ، وفيه: حبّ، بدل: جنب، وتصدّع، بدل: تقطّع.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨ بنحوه.

(٨) سنن أبي داود (٤٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٩٥٨٣) بنحوه، واللفظ الذي أورده المصنف في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

القيامة في ميزان غيره قد وَرِثه وعَمِلَ فيه بالحق، كان له أجرُه وعلى الآخر وِزْرُه، ومن الحَسَرات أن يرى الرجلُ عبدَه الذي خوَّله الله إياه في الدنيا أقربَ منزلةً من الله عزّ وجلّ، أو يرى رجلاً يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يومَ القيامة وعَمِيَ هو[1].

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المُستهزئين بالقرآن وبالرسول في الدنيا بأولياء الله، قال قتادة: لم يَكْفِهِ أن ضيَّع طاعةَ الله حتى سَخِرَ من أهلها[2].

ومحلّ «إن كنت» النصب على الحال؛ كأنه قال: فرَّطْتُ وأنا ساخر؛ أي: فرَّطت في حال سُخريتي[3]. وقيل: وما كنت إلا في سُخرية ولعب وباطل؛ أي: ما كان سعيي إلا في عبادة غيرِ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ هذه النَّفس ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي: أرشدني إلى دينه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الشِّركَ والمعاصي. وهذا القولُ: لو أن الله هداني لاهتديت، قولُ صِدْق. وهو قريبٌ من احتجاج المشركين فيما أخبر الربُّ جلّ وعزّ عنهم في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] فهي كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل؛ كما قال عليٌّ ﷺ لمَّا قال قائلٌ من الخوارج: لا حكم إلا لله[4].

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ يعني هذه النَّفس ﴿حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رَجْعة. ﴿فَأَكُونَ﴾ نصب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفاً على «كَرَّةً» لأن معناه: أنْ أكرَّ؛ كما قال الشاعر:

لَـلُـبْـسُ عَـبَـاءَةٍ وتَـقَـرَّ عَـيْـنِـي أَحَـبُّ إلـيَّ مِـنْ لُـبْـسِ الـشُّـفُـوفِ[5]

وأنشد الفراء:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٣٤ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٤) أخرجه مسلم (١٠٦٦): (١٥٧).

(٥) قائلته ميسون بنت بحدل الكلبية، وسلف الشطر الأول ٨/ ٥٠ ، ينظر تخريجه ثمة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨ .

فما لكَ مِنها غيرُ ذِكْرى وخَشْيَةٍ وتسألَ عن رُكْبَانِها أين يَمَّمُوا[١]

فنصب وتسألَ على موضع الذِّكرى؛ لأن معنى الكلام: فمالكَ منها إلا أن تذكرَ. ومنه: لَلُبْسُ عباءة وتَقَرَّ؛ أي: لأنْ أَلْبَسَ عباءةً وتقرَّ.

وقال أبو صالح: كان رجلٌ عالم في بني إسرائيل وجد رقعة: إنَّ العبدَ لَيعملُ الزمانَ الطويل بطاعة الله، فيختمُ له عملَه بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجلَ لَيعمل الزمنَ الطويل بمعصية الله، ثم يختمُ له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال: ولأي شيء أُتعِبُ نفسي، فترك عملَه وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال له إبليس: لك عمرٌ طويل، فتمتَّعْ في الدنيا ثم تتوب، فأخذ في الفسوق وأنفق مالَه في الفجور، فأتاه ملكُ الموت في ألذِّ ما كان، فقال: يا حسرتا على ما فرَّطتُ في جَنْب الله؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا ينفعه النَّدم؛ فأنزل الله خبره في القرآن[٢].

وقال قتادة: هؤلاء أصناف؛ صِنْفٌ منهم قال: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وصنفٌ منهم قال: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وقال آخر: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٣]. فقال الله تعالى ردّاً لِكلامهم: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾.

قال الزجاج[٤]: «بلى» جوابُ النفي، وليس في الكلام لفظُ النفي، ولكن معنى «لو أنَّ الله هَدَانِي» ما هداني، وكأن هذا القائلَ قال: ما هُدِيت؛ فقيل: بلى، قد بُيِّن لك طريق الهُدى، فكنت بحيث لو أردتَ أن تُؤمِنَ أمكنك أن تُؤمن.

«آيَاتِي» أي: القرآن. وقيل: عنى بالآياتِ المُعجزاتِ؛ أي: وَضَحَ الدليل فأنكرتَه وكذَّبته ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ أي: تكبَّرت عن الإيمان ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وقال: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ﴾ وهو خِطاب الذَّكر؛ لأن النَّفس تقع على الذَّكر

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٣، وفيه: وحسبة، بدل: وخشية. ولم نهتد إلى قائله.

(٢) ذكر القصة بنحوها ومختصرة الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٠٤ ولم ينسبها.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٣٦.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٩ - ٣٦٠.

والأُنثى. يقال: ثلاثة أنفس. وقال المبرّد: تقول العرب: نفسٌ واحدٌ، أي: إنسان واحد.

وروى الربيع بن أنس عن أُمِّ سَلَمة عن النبي ﷺ قرأ: «قد جاءَتْكِ آياتي فَكَذَّبْتِ بهَا واستَكْبَرْتِ وكنت من الكافرين»[1].

وقرأ الأعمش: «بلى قد جاءَتْهُ آيَاتي»[2] وهذا يدلُّ على التذكير. والربيع بن أنس لم يَلْحَقْ أُمَّ سَلَمةَ إلا أن القراءةَ جائزة؛ لأن النَّفس تقع للمذكَّر والمؤنث. وقد أنكر هذه القرءاةَ بعضُهم وقال: يجب إذا كسر التاء أن تقول: وكنتِ من الكوافر أو من الكافرات.

قال النحاس[3]: وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبلَه «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ ولم يقل: من السواخر، ولا من الساخرات. والتقدير في العربية على كسر التاء: «واستَكْبَرْتِ وكنتِ» من الجمع[4] الساخرين، أو من الناسِ الساخرين، أو من القوم الساخرين.

**قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: مما حاط بهم من غضب الله ونقمته. وقال الأخفش[5]: «تَرَى» غير عامل في قوله:

---

(١) أخرجها الدوري في قراءات النبي ﷺ (٩٩)، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣١، والكلام من معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨ .

(٣) في معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٧ - ١٨٨ ، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: الجميع، والمثبت من (م).

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٢ .

«وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ» إنما هو ابتداءٌ وخبر.

الزمخشري[١]: جملة في موضع الحال إنْ كان «تَرَى» من رؤية البصر، ومفعولٌ ثانٍ إنْ كان من رؤية القلب.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وبيَّن رسولُ الله ﷺ معنى الكِبْر فقال عليه الصلاة والسلام: «سَفَهُ الحقِّ وغَمْصُ الناس» أي: احتقارهم. وقد مضى في «البقرة»[٢] وغيرها.

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «يُحشَرُ المُتكبِّرون يومَ القيامة كالذَّرِّ يلحقهم الصَّغار حتى يُؤتى بهم إلى سجن جهنم»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقُرئ: «ويُنْجي»[٤] أي: من الشِّرك والمعاصي. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ على التوحيد قراءة العامة؛ لأنها مصدر. وقرأ الكوفيون: «بمَفَازَاتهِمْ»[٥]، وهو جائز كما تقول: بسعاداتهم.

وعن النبي ﷺ تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة، قال: «يَحشُر اللهُ مع كلِّ امرئ عملَه، فيكون عملُ المؤمن معه في أحسن صورة وأطيبِ ريح، فكلما كان رُعبٌ أو خَوْفٌ قال له: لا تُرَعْ، فما أنت بالمُراد به، ولا أنت بالمَعْنيِّ به، فإذا كَثُرَ ذلك عليه قال: فما أحسنك، فمن أنت؟! فيقول: أما تَعرفني، أنا عَمَلُكَ الصالح حملتَني على ثِقَلي، فوالله لأحملنَّكَ ولأدفعنَّ عنك، فهي التي قال الله: ﴿وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[٦].

---

(١) الكشاف ٣/٤٠٦.

(٢) ١/٤٤١، والحديث أخرجه أحمد (٦٥٨٣) مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «.. الكِبْر بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس».

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. والكلام السالف من إعراب القرآن للنحاس ٤/١٩.

(٤) قرأ بها يعقوب في رواية روح. النشر ٢/٢٥٩.

(٥) قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «بمفازاتهم» بالألف على الجمع، والباقون بغير ألف على التوحيد. السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، ونقله المصنف من إعراب القرآن للنحاس ٤/١٩.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ﴾ أي: حافظ وقائم به. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ واحدُها مِقْليد. وقيل: مِقْلاد، وأكثر ما يُستعمل فيه إقليد. والمَقاليد المفاتيح؛ عن ابن عباس وغيره. وقال السُّدي: خزائن السماوات والأرض[١]. وقال غيره: خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات[٢]. وفيه لغةٌ أخرى: أقاليد، وعليها يكون واحدُها إقليد[٣].

قال الجوهري[٤]: والإقليد المِفْتاح، والمِقْلَد مِفْتاحٌ كالمِنْجل، ربما يُقلد به الكلأ كما يُقلد القَتُّ إذا جعل حِبالاً؛ أي: يُفتل، والجمع المَقاليد. وأقلدَ البحرُ على خلقٍ كثير، أي: غرَّقهم، كأنه أُغلقَ عليهم.

وخرَّج البيهقي عن ابن عمر أن عثمانَ بن عفان ﷺ سأل رسولَ الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ فقال رسولُ الله ﷺ: «ما سألني عنها أحدٌ؛ لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، يُحيي ويُميت؛ بيده الخير وهو على كل شيء قدير»[٥]. ذكره الثعلبي في «تفسيره»، وزاد: «مَنْ قالها إذا أصبح أو أمسى عشرَ مرات أعطاه الله ستَّ خِصال: أولها: يُحرَس من إبليس، والثانية: يحضره اثنا عشر ألف ملك، والثالثة: يُعطى قنطاراً من الأجر، والرابعة: تُرفع له درجة، والخامسة: يُزوِّجه الله من الحور العين، والسادسة: يكون له من الأجر كمن قرأ القرآنَ والتوراةَ والإنجيل والزَّبور، وله أيضاً من الأجر كمن حجَّ واعتمر فَقُبلت

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٩ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠ ، وقولا ابن عباس رضي الله عنهما والسدي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٢٤٢ .

(٢) زاد المسير ٧/ ١٩٤ .

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٢ .

(٤) في الصحاح (قلد).

(٥) الأسماء والصفات للبيهقي (١٩)، وينظر التعليق التالي.

حجَّته وعُمرته، فإنْ مات من ليلته مات شهيداً»[١].

وروى الحارث[٢] عن عليٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن تفسير المقاليد فقال: «يا عليّ، لقد سألتَ عن عظيم، المقاليد: هو أن تقول عشراً إذا أصبحت وعشراً إذا أمسيت: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وأستغفر الله، ولا قوّة إلا بالله الأوّلِ والآخرِ والظاهرِ والباطنِ، له الملك وله الحمد، بيده الخيرُ وهو على كلِّ شيء قدير» من قالها عشراً إذا أصبح وعشراً إذا أمسى أعطاه الله خِصالاً ستّاً: أولها يَحْرُسه من الشيطان وجنودِه، فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية: يُعطى قِنطاراً في الجنة هو أثقلُ في ميزانه من جبل أحد، والثالثة: تُرفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار، والرابعة: يُزوِّجه الله من الحور العين، والخامسة: يشهده اثنا عشرَ ألف مَلَك يكتبونها له في رَقٍّ منشور ويشهدون له بها يومَ القيامة، والسادسة: يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حجَّ واعتمر فَقَبِلَ اللهُ حِجَّته وعُمرتَه، وإنْ مات من يومه أو ليلته أو شهره طُبِعَ بطابَع الشهداء.

وقيل: المقاليد الطاعة يقال: ألقى إلى فلان بالمقاليد، أي: أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية: له طاعةُ من في السماوات والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالقرآن والحُجَج والدلالات. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ وذلك حين دعوا النبيَّ ﷺ إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، وقالوا: هو دينُ آبائك.

---

(١) أخرجه بتمامه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٩٦ - ٩٧ ، وقال: وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله ﷺ، لأنه مُنزَّه عن الكلام الركيك والمعنى البعيد. قال الذهبي في الميزان ٤/ ٨٤ - ٨٥ بعد أن أورد الحديث: هذا موضوع فيما أرى، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١١٢ : غريب، فيه نكارة شديدة، وفي صحته نظر.

(٢) هو الحارث بن عبد الله الهمداني الأعور، كذّبه الشعبي وابن المديني، وكان ابن سيرين يرى أن عامَّة ما يرويه عن علي ﷺ باطل. ميزان الاعتدال ١/ ٤٣٦ .

و«غير» نصب بـ «أَعْبُدُ» على تقدير: أَعبدُ غيرَ اللهِ فيما تأمرونني. ويجوز أن ينتصب بـ «تَأْمُرُونِّي» على حَذْف حرف الجرّ؛ التقدير: أتأمرونِّي بغير الله أن أعبُدَه، لأنّ أن مُقَدرة، وأنْ والفعل مصدر، وهي بدل من غير؛ التقدير: أتأمرونّي بعبادة غير الله[١].

وقرأ نافع: «تَأْمُرُونيَ» بنون واحدة مخففَّة وفتح الياء. وقرأ ابن عامر: «تَأْمُرُونَنِي» بنونين مُخفَّفتين على الأصل. الباقون بنون واحدة مُشدَّدة على الإدغام[٢]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة. وقرأ نافع على حذف النون الثانية، وإنما كانت المحذوفة الثانية؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها، وأيضاً حذفُ الأُولى لا يجوز؛ لأنها دلالةُ الرفع. وقد مضى في «الأنعام» بيانُه عند قوله تعالى: «أَتُحَاجُّونِّي»[٣].

«أَعْبُدُ» أي: أن أعبدَ، فلما حذف «أن» رفع؛ قاله الكسائي[٤]. ومنه قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَذا الزاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى[٥]

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ: «أَعْبُدَ» بالنصب.

**قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ قيل: إنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً؛ والتقدير: لقد أُوحي إليك لئن أشركتَ، وأُوحي إلى الذين من قبلك

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٣٢ .

(٢) السبعة ص٥٦٣ ، والتيسير ص١٩٠ .

(٣) ٨/ ٤٤٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠ .

(٥) قائله طرفة، وسلف بتمامه ١٤/ ١٨ .

كذلك. وقيل: هو على بابه[١]؛ قال مقاتل: أي: أُوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد، والتوحيد محذوف. ثم قال: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ» يا محمد ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وهو خِطابٌ للنبي ﷺ خاصَّةً. وقيل: الخِطاب له والمُراد أُمته؛ إذْ قد عَلِمَ اللهُ أنه لا يُشرك، ولا يقع منه إشراك. والإحباطُ الإبطالُ والفساد. قال القُشيري: فمن ارتدَّ لم تنفعه طاعاته السابقة، ولكن إحباط الرِّدة العملَ مشروطٌ بالوفاة على الكُفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة:٢١٧] فالمُطلق ها هنا محمولٌ على المُقيّد؛ ولهذا قلنا: مَن حَجَّ ثم ارتدَّ؛ ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادةُ الحجِّ.

قلت: هذا مذهب الشافعي. وعند مالك تجب عليه الإعادة، وقد مضى في «البقرة» بيانُ هذا مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ النحاس[٣]: في كتابي عن أبي إسحاق[٤] لفظ اسم الله عز وجل منصوب بـ «اعبُدْ» قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين.

قال النحاس: وقال الفراء[٥] يكون منصوباً بإضمار فعل. وحكاه المهدوي عن الكسائي. فأما الفاء، فقال الزجاج: إنها للمجازاة. وقال الأخفش: هي زائدة.

وقال ابن عباس: «فاعْبُدْ» أي: فوحِّد. وقال غيره: «بَلِ اللهَ» فأَطِعْ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمه بخلاف المشركين[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٠ بنحوه.

(٢) ٣/ ٤٣٠ .

(٣) إعراب القرآن ٤/ ٢١ .

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٦١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٤ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥٦ بنحوه.

**قوله تعالى:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ قال المبرد: ما عظَّموه حقَّ عَظَمته من قولك: فلانٌ عظيم القدر. قال النحاس[١]: والمعنى على هذا: وما عظَّموه حقَّ عَظَمته إذ[٢] عبدوا معه غيره، وهو خالقُ الأشياء ومالكها. ثم أخبر عن قُدرته وعَظَمته، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

ثم نزّه نفسَه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وفي الترمذي عن عبد الله قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، إنَّ الله يُمسك السماوات على إصبع [والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع] والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدَتْ نواجِذُه، ثم قال: «ومَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

وفي البخاري ومسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَقْبضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامة ويطوي السماءَ بيمينه، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أين مُلوكَ الأرض»[٤]. وفي الترمذي: عن عائشة أنها سألت رسولَ الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قالت: قلت: فأين الناسُ يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على جِسْر جهنم» في رواية «على الصِّراطِ يا عائشة» قال:

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٢١ - ٢٢ ، وما قبله منه.

(٢) في (م): إذا، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٨)، وأخرجه أحمد (٤٠٨٧)، والبخاري (٧٤١٤)، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٦٥١٩)، وصحيح مسلم (٢٧٨٧)، وأخرجه أحمد (٨٨٦٣).

حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[١].

وقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ﴾، و«يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ» عبارة عن قُدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته[٢]؛ يقال: ما فلان إلا في قبضتي بمعنى: ما فلان إلا في قُدرتي، والناس يقولون: الأشياء في قبضته، يريدون في مُلكه وقُدرته. وقد يكون معنى القَبْض والطَّي إفناءَ الشيء وإذهابَه فقوله جلّ وعزّ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون المرادُ به: والأرض جميعاً ذاهبةٌ فانيةٌ يومَ القيامة. والمراد بالأرض الأَرَضون السَّبع؛ يشهد لذلك شاهدان: قوله: «والأَرْضُ جميعاً»، ولأن الموضعَ موضعُ تفخيم، فهو مُقتضٍ للمبالغة. وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ ليس يريد به طيّاً بعلاج وانتصاب، وإنما المرادُ بذلك الفَناء والذَّهاب؛ يقال: قد انطوى عنَّا ما كنا فيه وجاءنا غيره. وانطوى عنَّا دهرٌ بمعنى المُضِيّ والذهاب. واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القُدرة والمُلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ [الروم:٢٨] يريد به الملك؛ وقال ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ [الحاقة:٤٥] أي: بالقوّة والقُدرة، أي: لأخذنا قوتَه وقُدرتَه. قال الفرّاء[٣] والمبرد: اليمين القوّة والقدرة. وأنشدا:

إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدِ ... تَلَقَّاها عَرابةُ بِاليَمِينِ[٤]

قال آخر:

ولمّا رَأَيتُ الشَّمْسَ أَشْرَق نورُها ... تَناولتُ مِنها حاجتي بِيَمينِ

قتلتُ شُنَيْفاً ثم فارانَ بَعده ... وكان على الآيات غيرَ أمينِ

وإنما خصَّ يوم القيامة بالذِّكر وإن كانت قُدرته شاملةً لكل شيء أيضاً؛ لأن

(١) سنن الترمذي (٣٢٤١) و(٣٢٤٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٥٦) و(٢٤٠٦٩).

(٢) الصواب إثبات صفة القبضة لله عز وجل من غير تشبيه ولا تأويل ولا تمثيل.

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة البيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ١٥٩ - ١٦٠، والكلام السالف منه.

(٤) قائله الشماخ بن ضرار، وسلف ٦/ ٣٨.

الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] وقال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ حسب ما تقدَّم في «الفاتحة»[١] ولذلك قال في الحديث: «ثم يقول: أنا الملكُ، أين ملوكُ الأرض» وقد زدنا هذا الباب في «التذكرة» بياناً[٢]، وتكلَّمنا على ذكر الشِّمال في حديث ابن عمر قوله: «ثم يطوي الأرضَ بشماله»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ بيَّن ما يكون بعد قبض الأرض وطيِّ السماء، وهو النفخ في الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخَلْق في الأُولى منهما ويحيون في الثانية، وقد مضَى الكلامُ في هذا في «النمل» و«الأنعام» أيضاً[٤]. والذي ينفخ في الصور هو إسرافيلُ عليه السلام. وقد قيل: إنه يكون معه جبريلُ؛ لحديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ صاحِبَي الصور بأيديهما ـ أو في أيديهما ـ قرنان يُلاحظان النَّظر متى يُؤْمران» خرجه ابن ماجه في «السنن»[٥].

وفي كتاب أبي داود: عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسولُ الله ﷺ صاحبَ الصُّور، وقال: «عن يمينه جبرائيلُ وعن يساره ميكائيلُ»[٦].

واختلف في المُستثنى مَنْ هم. فقيل: هم الشهداء مُتقلِّدين أسيافَهم حولَ العرش. روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة فيما ذكر القشيري[٧]، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي.

---

(١) ١/ ٢١٥ وما بعدها.

(٢) ص١٩٠.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) وفيه: الأرضين، بدل: الأرض.

(٤) ١٣/ ٢٣٩ وما بعدها، ٨/ ٤٣٠ وما بعدها.

(٥) الحديث (٤٢٧٣)، وفي إسناده الحجاج بن أرطاة وعطية العوفي، وكلاهما ضعيف. تهذيب التهذيب ١/ ٣٥٦ و٣/ ١١٤.

(٦) سنن أبي داود (٣٩٩٩)، وأخرجه أحمد (١١٠٦٩)، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف كما ذكرنا في التعليق السابق.

(٧) وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٧).

وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام.ورُوي من حديث أنس أن النبي ﷺ تلا ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقالوا: يا نبيَّ الله، مَنْ هم الذين استثنى الله تعالى؟ قال: «هم جبريلُ وميكائيل وإسرافيلُ ومَلَك الموت، فيقول الله تعالى لمَلَك الموت: يا مَلَكَ الموت، مَن بقي من خَلْقي، وهو أعلمُ فيقول: يا رب، بقي جبريلُ وميكائيل وإسرافيل وعبدُك الضعيف مَلَكُ الموت، فيقول الله تعالى: خُذْ نَفْسَ إسرافيلَ وميكائيلَ، فَيَخِرَّان ميتين كالطَّوْدين العظيمين، فيقول: مُتْ يا مَلَك الموت، فيموت، فيقول الله تعالى لجبريل: يا جبريل، مَن بقي، فيقول: تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام، وجهُك الباقي الدائم وجبريلُ الميتُ الفاني، فيقول الله تعالى: يا جبريل، لا بدَّ من موتك فيقع ساجداً يخفقُ بجناحيه يقول: سبحانك ربي، تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام» فقال النبي ﷺ: «إنَّ فَضْلَ خَلْقه على خَلْق ميكائيل كالطَّود العظيم على الظَّرِب من الظِّراب» ذكره الثعلبي[1]. وذكره النحاس أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، عن يزيد الرَّقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ في قوله جلّ وعزّ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال: «جبريلُ وميكائيلُ وحَمَلَةُ العرش ومَلَك الموت وإسرافيل»[2].

وفي هذا الخبر[3] أنَّ آخرَهم موتاً جبريل عليه وعليهم السلام، وحديث أبي هريرة في الشهداء أصحُّ على ما تقدَّم في «النمل»[4].

وقال الضحاك: هو رضوان والحور ومالك والزَّبانية. وقيل: عقاربُ أهل النار وحيَّاتُها.

---

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٨) وسنده ضعيف فيما قاله الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٧١. والظَّرِب: الجبل الصغير. القاموس (ظرب).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٩٣ - ١٩٤، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥٤ من طريق محمد بن إسحاق به ويزيد الرَّقاشي ضعيف كما في تهذيب التهذيب ٤/ ٤٠٣.

(٣) في (م): الحديث.

(٤) ١٣/ ٢٤١.

وقال الحسن: هو اللهُ الواحد القهّار وما يدعُ أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقَه الموت(١). وقال قتادة: اللهُ أعلمُ بِثُنْياه(٢).

وقيل: الاستثناء في قوله: «إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ» يرجع إلى مَنْ مات قبلَ النفخةِ الأولى؛ أي: فيموت مَن في السماوات والأرض إلا من سبق موتُه؛ لأنهم كانوا قد ماتوا.

وفي «الصحيحين» وابن ماجه ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة قال: قال رجلٌ من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البَشر؛ فرفع رجلٌ من الأنصار يدَه فَلَطمه؛ قال: تقولُ هذا وفينا رسولُ الله ﷺ. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «قال الله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فأكون أوَّلَ من رفع رأسَه، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أرَفَعَ رأسَه قبلي أو كان ممن استثنى اللهُ؟ ومن قال: أنا خيرٌ من يونس بن متّى فقد كذب»(٣) وخرَّجه الترمذي أيضاً وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح(٤).

قال القشيري: ومَن حمل الاستثناءَ على موسى والشهداء فهؤلاءِ قد ماتوا غير أنهم أحياءٌ عند الله. فيجوز أن تكون الصَّعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكونَ بالموت، ولا يبعدُ أن يكونَ الموتُ والحياة، فكلٌّ ذلك مما يُجوِّزه العقلُ، والأمر في وقوعه موقوفٌ على خبر صدق.

قلت: جاء في بعض طرق أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا تُخيِّروني

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٣٦ مختصراً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥٨ .

(٣) صحيح البخاري (٣٤١٤) و(٣٤١٥)، وصحيح مسلم (٢٣٧٣)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٤)، وأخرجه أحمد (٩٨٢١).

(٤) سنن الترمذي (٣٢٤٥).

على موسى، فإنَّ الناسَ يَصْعَقون، فأكونُ أوّلَ من يُفيق، فإذا موسى باطِشٌ بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي أَمْ كان ممن استثنى الله؟» خرجه مسلم[١]. ونحوه عن أبي سعيد الخدري[٢]؛ والإفاقةُ إنما تكون عن غشيةٍ وزوالِ عقل، لا عن موت بردٌّ الحياة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أي: فإذا الأمواتُ من أهل الأرض والسماء أحياء بُعثوا من قبورهم، وأُعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يُؤمرون. وقيل: قيامٌ على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وُعدوا به. وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي: ينتظرون ما يفعل بهم.

وأجاز الكسائي قياماً بالنصب؛ كما تقول: خرجتُ فإذا زيدٌ جالساً[٣].

**قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إشراقُها إضاءتها؛ يقال: أَشرقت الشمسُ إذا أضاءتْ، وشَرَقت إذا طَلَعتْ. ومعنى: «بِنُورِ رَبِّها» بعدل ربِّها؛ قاله الحسن[٤] وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربِّها؛ والمعنى واحد؛ أي: أنارتْ وأضاءتْ بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظُّلم ظُلُماتٌ والعَدْل نور.

وقيل: إن الله يخلقُ نوراً يومَ القيامة يُلبسه وجهَ الأرض فَتُشرق الأرضُ به.

وقال ابن عباس: النور المذكور ها هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نورٌ

---

(١) الحديث (٢٣٧٣): (١٦٠)، وهو في صحيح البخاري (٢٤١١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١٧)، ومسلم (٢٣٧٤).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/١٣٦ .

يخلقه اللهُ فيضيء به الأرض. وروي أن الأرضَ يومئذ من فضة تُشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء. والمعنى: أنها أشرقتْ بنورٍ خَلَقه الله تعالى، فأضاف النورَ إليه على حدِّ إضافة المُلك إلى المالك. وقيل: إنه اليومُ الذي يقضي فيه بين خلقه؛ لأنه نهارٌ لا ليلَ معه.

وقرأ ابن عباس وعُبيد بن عُمير: «وأُشْرِقَتِ الأَرْضُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله[١]، وهي قراءة على التفسير.

وقد ضلَّ قومٌ ها هنا فتوهَّموا أن الله عزّ وجلّ من جنس النور والضِّياء المحسوس، وهو مُتعالٍ عن مُشابهة[٢] المحسوسات، بل هو مُنوِّر السماوات والأرض، فمنه كلُّ نور خلقاً وإنشاء.

وقال أبو جعفر النحاس[٣]: وقوله عز وجل ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يُبيّن هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح: «تنظرون إلى الله عزّ وجلّ لا تُضامون في رؤيته»[٤] وهو يُروى على أربعة أوجه: لا تُضامُون، ولا تضارُون، ولا تضامُّون، ولا تضارُّون؛ فمعنى «لاتُضامُون» لا يلحقكم ضَيْم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك. و«لا تُضارُون» لا يلحقكم ضَيْر. و«لا تَضامُّون» لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يُريه. و«لا تضارُّون» لا يُخالف بعضُكم بعضاً؛ يقال: ضارَّه مُضارَّة وضِراراً، أي: خالفه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، والمحتسب ٢/ ٢٣٩ .

(٢) في النسخ الخطية: مباينة. وهو خطأ.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ١٩٥ - ١٩٦ .

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ بلفظ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر، لا تُضامون في رؤيته...» وسلف ٤/ ١٨٠ . وأخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مطولاً وفيهما: «.. ما تُضارّون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تُضارّون في رؤية أحدهما..» يعني الشمس والقمر، وهو في مسند أحمد (١٩١٩٠) و(١١١٢١) ينظر أحاديث الباب ثمة.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قال ابن عباس: يريد اللَّوح المحفوظ[١]. وقال قتادة: يُريد الكتب[٢] والصُّحف التي فيها أعمال بني آدم، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله[٣]. ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أُممهم.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين شَهِدوا على الأُمم من أُمة محمد ﷺ[٤]؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل: المرادُ بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يومَ القيامة لمن ذبَّ عن دين الله؛ قاله السُّدي. وقال ابن زيد: هم الحَفَظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] فالسائق يسوقُها إلى الحساب والشهيدُ يشهد عليها، وهو المَلَكُ المُوكَّل بالإنسان، على ما يأتي بيانُه في «ق».

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق والعَدْل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال سعيد بن جُبير: لا ينقص من حسناتهم ولا يُزاد على سيئاتهم[٥]. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شرٍّ. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا، ولا حاجةَ به عزَّ وجلَّ إلى كتابٍ ولا شاهد، ومع ذلك فتشهد الكُتب والشهود إلزاماً لِلحُجَّة.

**قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ هذا بيانُ توفية كلِّ نفس

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٢ دون نسبة، وقال: وهذا شاذ، وليس فيه معنى التوعّد، وهو مقصد الآية.

(٢) في (م): الكتاب.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٣٦ ، وزاد المسير ٧/ ١٩٨ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٨ وزاد المسير ٧/ ١٩٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣٧ .

عملها، فيساقُ الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة. والزُّمَر: الجماعاتُ، واحدتها زُمْرة، كظُلْمة وغُرْفة. وقال الأخفش وأبو عبيدة[١]: «زُمَراً» جماعاتٍ متفرقةً بعضها إثر بعض. قال الشاعر:

وتَـرى الـنَّـاسَ إلـى مَـنْـزِلـهِ زُمَـراً[٢] تـنْـتَـابُـه بَـعْـدَ زُمَـر

وقال آخر:

حتّـى احـزَأَلَّـتْ زُمَـرٌ بـعـد زُمَـرْ[٣]

وقيل: دفعاً وزجراً بصوت كصوت المزمار[٤].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ جواب إذا، وهي سبعةُ أبواب. وقد مضى في «الحجر»[٥].

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ واحدهم خازن، نحو سَدَنة وسادِن، يقولون لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ أي: الكُتب المُنزلة على الأنبياء، ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ﴾ أي: يُخوِّفونكم ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: قد جاءتنا، وهذا اعترافٌ منهم بقيام الحُجَّة عليهم، ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا جهنم. وقد مضى الكلامُ في

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٩١، وقول الأخفش ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٨.

(٢) في النسخ الخطية: زمرة، والمثبت من (م). والبيت لم نقف عليه.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤١٠، والسمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٤٤٦، وقوله: احزألَّت، جاء في اللسان (حزل): احزألَّت الإبل، إذا اجتمعت ثم ارتفعت عن متن من الأرض في ذهابها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٧.

(٥) ١٢/ ٢١٧ وما بعدها.

أبوابها. قال وهب: تستقبلُهم الزَّبانية بمقامعَ من نار، فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع في الدَّفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعةَ ومُضر. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقدَّم بيانُه[١].

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ يعني من الشهداء والزُّهَّاد والعلماء والقُرَّاء وغيرهم، ممن اتَّقى الله تعالى وعَمِلَ بطاعته. وقال في حقِّ الفريقين: «وَسِيق» بلفظ واحد، فسوقُ أهل النار طَرْدُهم إليها بالخِزْي والهَوان، كما يُفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سِيقوا إلى حَبْس أو قتل، وسَوْقُ أهل الجِنان سوقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرِّضوان؛ لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين كما يُفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السَّوقين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قيل: الواو ها هنا للعطف عطف على جملة، والجواب محذوف. قال المبرد: أي: سعدوا وفُتحت، وحذفُ الجواب بليغٌ في كلام العرب. وأنشد:

فلو أنَّها نَفْسٌ تَموتُ جَميعةً ... ولكنَّها نَفْسٌ تَساقَطُ أنْفُسا[٢]

فحذف جواب لو، والتقدير: لكان أروح.

وقال الزجاج[٣]: «حتى إذا جاءُوها» دخلوها، وهو قريبٌ من الأول. وقيل:

---

(١) ١٢/٣١٧.

(٢) قائله امرؤ القيس، وسلف ١٢/ ٧١، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ - ٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٤.

الواو زائدة. قاله الكوفيون، وهو خطأ عند البصريين(١).

وقد قيل: إن زيادةَ الواو دليلٌ على أن الأبوابَ فُتحت لهم قبلَ أن يأتوا، لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير: حتى إذا جاءوها وأبوابُها مفتحة، بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ وحذف الواو في قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفُتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً لهم. ذكره المهدوي، وحكى معناه النحاس قبلَه. قال النحاس(٢): فأما الحِكمة في إثبات الواو في الثاني وحَذْفِها من الأول، فقد تكلَّم فيه بعضُ أهل العلم بقول لا أعلمُ أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عزّ وجلّ في أهل النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ دلَّ بهذا على أنها كانت مغلقةً، ولما قال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ دلَّ بهذا على أنها كانت مُفتحةً قبل أن يجيئوها؛ والله أعلم.

وقيل: إنها واو الثمانية. وذلك من عادة قريش أنهم يَعُدُّون من الواحد فيقولون: خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، فإذا بلغوا السبعة قالوا: وثمانية. قاله أبو بكر بن عياش(٣).

قال الله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧] وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] ثم قال في الثامن: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] وقال ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] وقد مضى القول في هذا في «براءة» مستوفى، وفي «الكهف» أيضاً(٤).

قلت: وقد استدلَّ بهذا مَن قال: إن أبوابَ الجنة ثمانية؛ وذكروا حديثَ عمر بن الخطاب، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منكم مِن أحدٍ يتوضأ فَيُبْلِغُ ـ أو فَيُسْبِغ ـ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ٢٣.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٠٠، ونسبه للثعلبي.

(٤) ١٠/ ٣٩٧ و١٣/ ٢٤٦.

الوضوء، ثم قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدُه ورسوله إلا فُتحت له أبوابُ الجنة الثمانية يدخلُ من أيِّها شاء» خرَّجه مسلم وغيره[1]. وقد خرج الترمذي حديثَ عمر هذا وقال فيه: «فُتِحَ له من أبواب الجنة ثمانيةُ أبواب يومَ القيامة»[2] بزيادة «مِن»، وهو يدلُّ على أن أبوابَ الجنة أكثرُ من ثمانية. وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة»[3] وانتهى عددُها إلى ثلاثةَ عشرَ باباً، وذكرنا هناك عِظَم أبوابها وسَعتها حَسَبَ ما ورد في الحديث من ذلك، فمن أراده وَقَفَ عليه هناك.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ قيل: الواو مُلغاة تقديره: حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها «قال لهم خزَنَتُها»[4].

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: في الدنيا. قال مجاهد: بطاعة الله. وقيل: بالعمل الصالح. حكاه النقاش، والمعنى واحد[5]. وقال مقاتل: إذا قطعوا جسرَ جهنم حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، بمعنى التحية ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[6].

قلت: خرج البخاري حديثَ القنطرة هذا في «جامعه» من حديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَخْلُص المؤمنون من النار فَيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده، لأَحدهم أهدى

(١) صحيح مسلم (٢٣٤)، وأخرجه أحمد (١٧٣١٤).

(٢) سنن الترمذي (٥٥) والمثبت في مطبوعه مثل رواية مسلم السالفة، وذكر محققو سنن الترمذي أنه في أكثر النسخ: ثمانية أبواب من الجنة.

(٣) ص٤٥٥ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣٨ .

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٩ بنحوه ونسبه لقتادة.

بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»[١].

وحكى النقَّاش: إنَّ على باب الجنة شجرةً ينبع من ساقها عينان، يشرب المؤمنون من أحداهما فتطهر أجوافُهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] ثم يغتسلون من الأخرى فتطيبُ أبشارهم، فعندها يقول لهم خزنتُها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وهذا يُروى معناه عن عليٍّ ﷺ[٢].

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: إذا دخلوا الجنة قالوا هذا، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة. قيل: إنهم وَرِثوا الأرضَ التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسُّدي وأكثرُ المفسرين وقيل: إنها أرضُ الدنيا على التقديم والتأخير[٣].

قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ قيل: هو من قولهم، أي: نعم الثوابُ هذا. وقيل: هو مِن قول الله تعالى؛ أي: نعم ثواب المُحسنين هذا الذي أعطيتُهم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يا محمد ﴿حَآفِّينَ﴾ أي: مُحدِقين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ في ذلك اليوم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُتلذِّذين بذلك لا مُتعبدين به؛ أي: يُصلّون حولَ العرش شُكراً لربهم. والحافُّون أُخِذَ من حافَّات الشيء ونواحيه. قال الأخفش: واحدُهم حافٌّ. وقال الفرَّاء: لا واحدَ له إذْ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين[٥].

ودخلت «مِن» على «حَوْل» لأنه ظرف، والفعل يتعدَّى إلى الظرف بحرف وبغير

(١) صحيح البخاري (٦٥٣٥)، وأخرجه أحمد (١١٠٩٥).

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٦٦ - ٢٦٧ عن علي ﷺ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٣٨ عن مقاتل.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٧ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣ .

(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ٢٣ عن مقاتل.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣ .

حرف. وقال الأخفش[١]: «مِنْ» زائدة، أي: حافّين حولَ العرش. وهو كقولك: ما جاءني من أحد، فمن توكيد.

الثعلبي: والعرب تُدخل الباء أحياناً في التسبيح وتحذفها أحياناً، فيقولون: سبِّح بحمدِ ربِّك، وسبِّح حمداً لله؛ قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بين أهل الجنة والنار. وقيل: قُضي بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء وبين أُممهم بالحقّ والعَدْل[٢].

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يقول المؤمنون: الحمدُ لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونَصَرنا على مَن ظَلَمنا.

وقال قتادة في هذه الآية: افتتح اللهُ أولَ الخَلْق بالحمد لله، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وختم بالحمد، فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]. فلزم الاقتداء به، والأخذ في ابتداء كلِّ أمر بحمده وخاتمته بحمده.

وقيل: إن قول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من قول الملائكة، فعلى هذا يكون حَمْدُهم لله تعالى على عَدْله وقضائه[٤]. ورُوِيَ من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر سورة «الزمر» فتحرَّك المِنبر مرَّتين[٥].

تم تفسير سورة «الزمر».

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٣ .

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٢ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٩ .

(٥) أخرجه أحمد (٥٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٨) بنحوه، وأورده بلفظ المصنف الذهبي في الميزان ٢/ ٣٧٨ وفي إسناده عبّاد بن ميسرة، ضعَّفه أحمد ويحيى فيما قاله الذهبي.

## تفسير سورة الزمر

وهى مكية .

قال النسائى: حدثنا محمد بن النضر بن مساور، حدثنا حماد، عن مروان أبى لبابة[١]، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

**﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾ .**

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن العظيم ـ من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: **﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾** [الشعراء: ١٩٢ـ ١٩٥]. وقال: **﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾** [فصلت: ٤١، ٤٢]. وقال هاهنا: **﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾** أى: المنيع الجناب، **﴿الْحَكِيمِ﴾** أى: فى أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره.

**﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾** أى: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له [وحده][٣]، وأنه[٤] ليس له شريك ولا عديل ولا نديد؛ ولهذا قال: **﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾** أى: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له.

وقال قتادة فى قوله: **﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾**: شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر تعالى عن عُبَّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾** أى: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم، فعبدوا[٥] تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله فى

(١) فى ت: «روى النسائى بإسناده عن عائشة» .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٤).

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «فإنه» . (٥) فى أ: «فعدوا».

نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر[١] الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.

قال قتادة، والسدى، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أى: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك[٢]، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهى عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزى كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ[٣] لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أى: لا يرشد إلى الهداية من قصده[٤] الكذب والافتراء على الله، وقلبه كفار يجحد بآياته [وحججه][٥] وبراهينه.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة، والمعاندون[٦] من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى، فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون[٧]. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم[٨] فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغنى عما سواه، الذى قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

---

(١) فى س، أ: «أمور». (٢) فى أ: « لك لبيك». (٣) فى أ: «نقول».
(٤) فى أ: «قصد». (٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «المعاندين».
(٧) فى س: «تزعمون». (٨) فى أ: «بجهلهم».

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) ﴾.

يخبر تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أى: سخرهما يجريان[1] متعاقبين لا يقران[2]، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، كقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة. ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم، عليه السلام، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهى حواء، عليهما السلام، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أى: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهى المذكورة فى سورة الأنعام: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ[3] فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أى: قدركم[4] فى بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾أى: يكون أحدكم أولا نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ يعنى: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[5] ـ التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد ـ وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، والسدى، وابن[6] زيد [وغيرهم][7].

وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم [8]، هو الرب له الملك والتصرف[9] فى جميع ذلك، ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: الذى لا تنبغى

---

(١) فى س: «تجريان».
(٢) فى أ: «لا يفتران».
(٣) فى ت، س: «يذرأكم».
(٤) فى ت، س: «يخلقكم»، وفى أ: «يذرأكم».
(٥) فى ت، س: «الشيمة».
(٦) فى ت، س: «وأبو».
(٧) زيادة من ت.
(٨) فى أ: «آباءكم وإياكم».
(٩) فى أ: «والتصريف».

العبادة إلا له وحده، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذْهَبُ بعقولكم؟!

﴿ إن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن نفسه تعالى: أنه[1] الغنى عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وفى صحيح مسلم: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئا»[2].

وقوله ﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحبه منكم ويزدكم[3] من فضله.

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئا، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أي: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: فى حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي: فى حال العافية يشرك بالله، ويجعل له[4] أندادا. ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلا. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩) ﴾.

---

(١) فى ت، أ: «بأنه».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «ويزيدكم». (٤) فى ت: «لله».

يقول تعالى: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له[١] أندادا؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال هاهنا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أى: فى حال سجوده وفى حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون.

قال الثورى، عن فراس، عن الشعبى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: القانت: المطيع لله ولرسوله.

وقال ابن عباس، والحسن، والسدى، وابن زيد: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: جوف الليل.

وقال الثورى، عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء.

وقال الحسن، وقتادة: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أى: فى حال عبادته خائف راج[٢]، ولابد فى العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال[٣] الإمام عبد بن حميد فى مسنده.

حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك[٤]؟» قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو، وأمنه الذى يخافه».

ورواه الترمذى والنسائى فى «اليوم والليلة»، وابن ماجه، من حديث سيَّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، به[٥]. وقال الترمذى: «غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن أنس، عن النبى ﷺ مرسلا».

وقال[٦] ابن أبى حاتم، حدثنا عمر بن شبَّة[٧]، عن عبيدة النميرى، حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى الخزَّاز، حدثنا[٨] يحيى البكَّاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان، رضى الله عنه.

وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن فى ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه، رضى الله عنه[٩]، وقال الشاعر[١٠].

---

(١) فى أ: «لله». (٢) فى ت: «خائفا راجيا». (٣) فى ت: «روى»

(٤) فى أ: «تحذر».

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣٦٨) وسنن الترمذى برقم (٩٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٦١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠١).

(٦) فى ت: «روى». (٧) فى أ: «شيبة». (٨) فى ت: «عن».

(٩) فى ت: «عنهما».

(١٠) هو حسان بن ثابت الأنصارى، والبيت فى ديوانه (ص ٢٤٨).

ضَحُّوا بأشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعِ الليلَ تَسْبيحا وقُرآنا

وقال[١] الإمام أحمد: كتب إلى الربيع بن نافع: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة[٢]، عن تميم الدارى قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بمائة آية فى ليلة، كتب له قنوت ليلة».

وكذا رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حميد، به[٣].

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

**﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢)﴾.**

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أى: لمن أحسن العمل فى هذه الدنيا حسنة فى دنياهم وأخراهم.

وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان.

وقال شريك، عن منصور، عن عطاء فى قوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال الأوزاعى: ليس يوزن لهم ولا يكال[٤]، إنما يغرف لهم غرفا.

وقال ابن جريج: بلغنى أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون[٥] على ذلك.

وقال السدى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يعنى فى الجنة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال السدى: يعنى من أمته ﷺ.

**﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا**

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «بإسناده».
(٣) المسند (٤/١٠٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٥٥٣).
(٤) فى ت، أ: «يكال لهم». (٥) فى ت: «يزدادون».

**ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)﴾.**

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾، وهو يوم القيامة. وهذا شَرْط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ** ﴾، وهذا أيضا تهديد وتَبَرٍّ[١] منهم، ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ** ﴾ أى: إنما الخاسرون كل الخسران[٢] ﴿ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أى: تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا، سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿ **ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ أى: هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح.

ثم وصف حالهم فى النار فقال: ﴿ **لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** ﴾، كما قال: ﴿ **لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿ **يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقوله: ﴿ **ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ** ﴾ أى: إنما يَقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم.

وقوله: ﴿ **يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ** ﴾ أى: اخشوا بأسى وسطوتى، وعذابى ونقمتى.

**﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٨)﴾**

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا** ﴾ نزلت فى زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبى ذر، وسلمان الفارسى.

والصحيح أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

ثم قال: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ أى: يفهمونه ويعملون بما فيه، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة: ﴿ **فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ** ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله فى الدنيا والآخرة[٣]، أى: ذوو العقول الصحيحة، والفطَر المستقيمة.

**﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)﴾.**

---

(١) فى أ: «وتبرى». (٢) فى ت، س: «الخاسرون». (٣) فى س: «والأخرى».

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شَقِى تَقْدرُ تُنْقذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أى: لا يهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضلل الله فلا هادى له، ومن يهده فلا مضل له.

ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف فى الجنة، وهى القصور الشاهقة، ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ ،أى: طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عباد بن يعقوب الأسدى، حدثنا محمد بن فضيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن على، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفاً يُرَى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها». فقال أعرابى: لمن هى يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام».

ورواه الترمذى من حديث عبد الرحمن بن إسحاق(١)، وقال: «حسن غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبَل حفظه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبى كثير، عن ابن مُعانق ـ أو: أبى مُعَانق ـ عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفة(٢) يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام».

تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن مُعَانق الأشعرى، عن أبى مالك، به(٣).

وقال(٤) الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبى حازم(٥)، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء». قال: فحدثتُ بذلك النعمان بن أبى عياش، فقال: سمعت أبا سعيد الخدرى يقول: «كما تراءون الكوكب الدرى(٦) فى الأفق الشرقى أو الغربى».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث أبى حازم(٧)، وأخرجاه أيضاً فى الصحيحين من حديث مالك، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا فَزارة، أخبرنى فُلَيح، عن هلال بن على، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدرى الغارب فى الأفق الطالع، فى تفاضل أهل الدرجات». فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال: «بلى، والذى نفسى بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل».

---

(١) زوائد عبد الله على المسند (١/ ١٥٥) وسنن الترمذى برقم (١٩٨٤).
(٢) فى س، أ: «غرفة».
(٣) المسند (٥/ ٣٤٣).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت: «بإسناده».
(٦) فى س، أ: «الذى».
(٧) المسند (٥/ ٣٤٠) وصحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠).
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١).

ورواه الترمذى عن سُويد[١]، عن ابن المبارك، عن فُلَيح، به[٢]، وقال: حسن صحيح.

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو كامل[٤] قالا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائى، حدثنا أبو المدلَّه ـ مولى أم المؤمنين ـ أنه سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشَممْنَا النساء والأولاد. قال: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم فى بيوتكم. ولو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حَدّثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةُ ذهب ولَبِنَةُ فضّة، وملاطها المسك الأذْفَر، وحَصْباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يَبْأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا تُرَدّ دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تُحمَل على الغَمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»[٥].

وروى الترمذى، وابنُ ماجه بعضَه، من حديث سعد[٦] أبى مجاهد الطائى ـ وكان ثقة ـ عن أبى المُدلَّه ـ وكان ثقة ـ به[٧].

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: تسلك[٨] الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤوا[٩] وأين أرادوا، ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى ذكرناه وَعْدٌ وعَدَه الله عباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾.

يخبر تعالى: أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن فى الأرض، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبعهُ عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾.

قال[١٠] ابن أبى حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبوقتيبة عتبة بن يقظان، عن عكرمة[١١]، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾، قال: ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق فى الأرض

(١) فى أ: «يزيد».
(٢) المسند (٢/ ٣٣٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٥٦).
(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى أ: «وأبو عامر».
(٥) المسند (٢/ ٣٠٤).
(٦) فى أ: «سعيد».
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٩٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٥٢) قال الترمذى: «هذا حديث حسن»، ثم أشار إلى رواية أحمد المطولة.
(٨) فى ت: «تلك». (٩) فى أ: «يشاؤون». (١٠) فى ت: «روى». (١١) فى ت: «بسنده».

تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾، فمن سره أن يعود الملح عذاب فليصعده.

وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى: أن كل ماء فى الأرض فأصله من السماء.

وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعنى: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن فى قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أى: بعد نضارته وشبابه يكتهل [(١)] ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾، قد خالطه اليُبْس، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أى: ثم يعود يابسا يتحطم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ أى: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَضِرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزا شوهاء، والشاب يعود شيخا هَرِما كبيرا ضعيفا [قد خالطه اليبس][(٢)]، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعا وثمارا، ثم يكون بعد ذلك حُطاما، كما قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: فلا تلين عند ذكره[(٣)]، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم، ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

**﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾.**

هذا مَدْحٌ من الله ـ عز وجل ـ لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ قال مجاهد: يعنى القرآن كله متشابه مثانى.

وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف.

وقال الضحاك: ﴿ مَّثَانِيَ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل.

وقال عكرمة، والحسن: ثنّى الله فيه القضاء ـ زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفى السورة الأخرى آية تشبهها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَّثَانِيَ﴾: مُرَدَّد، رُدِّد موسى فى القرآن، وصالح وهود

(١) فى ت، أ: «يتكهل». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «ذكر الله».

والأنبياء، عليهم السلام، فى أمكنة كثيرة.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مَثَانِيَ﴾ قال: القرآن يشبه بعضه بعضا، ويُرَدُّ[1] بعضه على بعض.

وقال بعض العلماء: ويُرْوى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾: أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ فى معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشىء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثانى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وكقوله: ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، إلى أن قال: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] ، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص: ٤٩]. إلى أن قال: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من[2] المثانى، أى: فى معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور فى قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ذلك معنى آخر.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته[3] ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار[4] من وجوه:

**أحدها**: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نَغَمات لأبيات، من أصوات القَيْنات.

**الثانى**: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] أى: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم [أى يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعا له][5].

**الثالث**: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، رضى الله عنهم، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك؛ ولهذا فازوا بالقِدح المُعَلّى فى الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَر قال: تلا قتادة، رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

---

(١) فى أ: «يردد». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى ت: «من رحمة الله».
(٤) فى ت، س، أ: «الفجار». (٥) زيادة من أ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكى أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا فى أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السُّدِّى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: إلى وعد الله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويُقَرَّعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، كمن يأتى آمنا يوم القيامة؟! كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، وقال [تعالى][1]: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، واكتفى فى هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر[2]:

فَمَا أَدْرى إذَا يَمَّمْتُ أَرْضاً أريدُ الخيرَ: أيّهما يَلينى؟

يعنى: الخير أو الشر.

وقوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

وقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفى[3] المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء، والذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم فى الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾.

---

(١) زيادة من ت.

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢/٩٨).

(٣) فى س، أ: «يشفى».

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى: بينا للناس فيه بضرب الأمثال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ، فإن المثل يُقرِّب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أى: تعلمونه من أنفسكم، وقال: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أى: هو قرآن بلسان عربى مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله [عز وجل][1] كذلك، وأنزله بذلك، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما[2] فيه من الوعد[3].

ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أى: يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أى: خالصا لرجل، لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ أى: لا يستوى هذا وهذا. كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثلُ ظاهرا بَيِّنا جليا، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا يشركون بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق [رضى الله عنه][4] عند موت الرسول[5] ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية ـ وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ـ فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة.

قال[6] ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن ابن حاطب ـ يعنى يحيى بن عبد الرحمن ـ عن ابن الزبير، عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال: «نعم». قال: إن الأمر إذاً لشديد.

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، أ: «لما». (٣) فى ت، أ: «الوعيد».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «رسول الله». (٦) فى ت: «روى».

[التكاثر: ٨] قال الزبير: أى رسول الله، أى نعيم نسأل عنه؟ وإنما ـ يعنى: هما[١] الأسودان: التمر والماء ـ قال: «أما إن ذلك سيكون».

وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه، من حديث سفيان، به[٢]. وقال الترمذى: حسن.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا ابن نمير، حدثنا محمد ـ يعنى ابن عمرو ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام[٣] قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: أى رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم، حتى يُؤدَّى إلى كل ذى حق حقه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

ورواه الترمذى من حديث محمد بن عمرو، به[٤] وقال: حسن صحيح.

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهِيعة، عن أبى عُشَّانة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران». تفرد به أحمد[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم[٧]، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليختصم[٨]، حتى الشاتان فيما انتطحتا» تفرد به أحمد[٩].

وفى المسند عن أبى ذر، رضى الله عنه [أنه][١٠] قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدرى فيم ينتطحان يا أبا ذر؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدرى وسيحكم بينهما»[١١].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا حيان بن أغلب، حدثنا أبى، حدثنا ثابت عن أنس[١٢] [رضى الله عنه][١٣]، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الخائن[١٤] يوم القيامة، فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه، فيقال له: سد ركنا من أركان جهنم».

ثم قال: الأغلب بن تميم ليس بالحافظ[١٥].

---

(١) فى أ: «بهما».

(٢) المسند (١/ ١٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٥٩).

(٣) فى م: «العوام رضى الله عنه».

(٤) المسند (١/ ١٦٧) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٦).

(٥) فى ت: «وروى».

(٦) المسند (٤/ ١٥١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ٣٠٣) من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبى عشانة به.

(٧) فى ت: «وروى أيضا». (٨) فى أ: «يختصم».

(٩) المسند (٣/ ٢٩) ودراج أبو السمح عن أبى الهيثم ضعيف.

(١٠) زيادة من ت.

(١١) المسند (٥/ ١٦٢).

(١٢) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أنس». (١٣) زيادة من أ. (١٤) فى أ: «الجائر».

(١٥) مسند البزار برقم (١٦٤٤) «كشف الأستار» ولفظه: «يجاء بالإمام الجائر يوم القيامة فيخاصمه الرعية، فيفلحوا عليه.» ثم ذكر بقية الحديث كما هو هنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[(١)]: **﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾**، يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدى الضال، والضعيف المستكبر[(٢)].

وقد روى ابن منده فى كتاب «الروح»، عن ابن عباس أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت. فيبعث الله ملكا يفصل بينهما، فيقول [لهما][(٣)]: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستانا، فقال المقعد للضرير: إنى أرى هاهنا ثمارا، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: اركبنى فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدى؟ فيقولان: كلاهما. فيقول لهما الملك. فإنكما قد حكمتما على أنفسكما. يعنى: أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عَوْسَجة، حدثنا ضرار، حدثنا أبو سلمة الخزاعى منصور بن سلمة، حدثنا القمى ـ يعنى يعقوب بن عبد الله ـ عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عمر[(٤)] [رضى الله عنهما][(٥)] قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم فى أى شىء نزلت: **﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾** [قال][(٦)]: قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر: هذا الذى وعدنا ربنا ـ عز وجل ـ نختصم فيه.

ورواه النسائى عن محمد بن عامر، عن منصور بن سلمة، به[(٧)].

وقال أبو العالية [فى قوله][(٨)]: **﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾** قال: يعنى أهل القبلة.

وقال ابن زيد: يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر.

وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله أعلم.

**﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾**.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدا ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله، صلوات الله [وسلامه][(٩)] عليهم أجمعين، ولهذا قال: **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾** أى: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفى الباطل،

---

(١) فى ت: «عنه».
(٢) فى أ: «المتكبر».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى ابن عمر».
(٥) زيادة من أ.
(٦) زيادة من أ.
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٧).
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩) زيادة من أ.

كذب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق؛ ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن[1] زيد: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾: هو الرسول.

وقال السدى: هو جبريل عليه السلام، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: محمدا ﷺ.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: رسول الله ﷺ.

وقرأ الربيع بن أنس: «الذين جاؤوا [2]بالصدق» يعنى: الأنبياء، «وصدقوا به» يعنى: الأتباع.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيؤون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا، فعملنا فيه بما أمرتمونا.

وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق[3]، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: المسلمون[4].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك.

﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعنى: فى الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

**﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾**
**وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ**
**السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ**
**كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ**
**الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ**
**عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .**

---

(١) فى أ: «وأبو». (٢) فى أ: «والذى جاء».
(٣) فى أ: «جاء بالحق». (٤) فى ت، س، أ: «قال المسلمون».

يقول تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ـ وقرأ بعضم: «عباده» ـ يعنى أنه تعالى يكفى من عبده وتوكل عليه.

وقال[١] ابن أبى حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله[٢] ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا أبوهانئ، عن أبى على عمرو بن مالك الجنبى[٣]، عن فضالة بن عبيد الأنصارى؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقَنَعَ به».

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث حيوة بن شريح، عن أبى هانئ الخولانى، به[٤]. وقال الترمذى: صحيح.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعنى: المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها[٥] من دونه؛ جهلا منهم وضلالا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ أى: منيع الجناب لا يضام، من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذى لا أعز منه، ولا أشد انتقاما منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعنى: [أن][٦] المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما[٧] لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ أى: لا تستطيع شيئا من الأمر[٨].

وذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديث قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعانى، عن[٩] ابن عباس مرفوعا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر فى اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[١٠].

﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: الله كافىّ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود، عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى أ: «عبد الله». (٣) فى أ: «الحسينى».
(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٢٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ٣٠٦) من طريق عبد الله بن وهب عن أبى هانئ به.
(٥) فى أ: «يدعون بها». (٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت، س، أ: «ممن».
(٨) فى ت: «الأمور». (٩) فى ت: «حديثا بسنده إلى».
(١٠) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٣) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١٦) من طريق الليث بن سعد عن قيس بن الحجاج به، قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا عبد الله بن بكر[(١)] السهمي، حدثنا محمد بن حاتم، عن أبي المقدام ـ مولى آل عثمان ـ عن محمد بن كعب القرظي، حدثنا ابن عباس[(٢)] [رضي الله عنهما][(٣)] ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق [منه][(٤)] بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس، فليتق الله»[(٥)].

وقوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: على طريقتي ومنهجي، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾.

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[الرعد: ٤٠].

ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠، ٦١]. فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره. وفي صحيحي البخاري ومسلم من حديث عبيد الله[(٦)] بن عمر، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه،

---

(١) في أ: «بكير». (٢) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده إلى ابن عباس».
(٣) زيادة من ت. (٤) زيادة من ت، س، أ.
(٥) ورواه أبو نعيم في الحلية (٣/٢١٨) من طرق عن أبي المقدام به، ورواه ابن عدي في الكامل (٥/٢٤١) من طريق شيبان عن عيسى ابن ميمون عن محمد بن كعب القرظي به.
(٦) في أ: «عبد الله».

الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلْيَنْفُضْه بداخلة إزاره، فإنه لا يدرى ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»(١).

وقال بعض السلف [رحمهم الله](٢): يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ التى قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى.

قال السدى: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

**﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾.**

يقول تعالى ذاما للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهى لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير(٣).

ثم قال: قل: أى يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه(٤) شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: هو المتصرف فى جميع ذلك. ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزى كلا بعمله.

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضا: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أى: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ قال مجاهد: ﴿ اشْمَأَزَّتْ ﴾: انقبضت.

وقال السدى: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥]، أى: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم(٥) لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى: يفرحون ويسرون.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧١٤).

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى س: «بكبير».

(٤) فى ت: «ما اتخذوا».

(٥) فى ت: «بقلوبهم».

**﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) ﴾.**

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم فى حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد، **﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** أى: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذى خلق السموات والأرض وفطرها، أى: جعلها على غير مثال سبق، **﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** أى: السر والعلانية، **﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾** أى: فى دنياهم[(١)]، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم.

وقال[(٢)] مسلم فى صحيحه: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا يحيى بن أبى كثير، حدثنى أبو سلمة[(٣)] بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة [رضى الله عنها][(٤)]: بأى شىء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»[(٥)].

وقال[(٦)] الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، وأخبرنا سهيل بن أبى صالح وعبد الله ابن عثمان بن خُثَيم، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود[(٧)] أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إنى أعهد إليك فى هذه الدنيا[(٨)] أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، فإنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لى عندك عهدا تُوَفِّينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله، عز وجل، لملائكته يوم القيامة: إن عبدى قد عهد إلى عهدا فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة».

قال سهيل: فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عونا أخبر بكذا وكذا؟ فقال: ما فى أهلنا جارية إلا وهى تقول هذا فى خدرها. انفرد به الإمام أحمد[(٩)].

وقال[(١٠)] الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى حُيَىّ[(١١)] بن عبد الله؛ أن

---

(١) فى أ: «دينا لهم».
(٢) فى ت: «روى».
(٣) فى ت: «عن أبى سلمة».
(٤) زيادة من ت.
(٥) صحيح مسلم برقم (٧٧٠).
(٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه».
(٨) فى أ: «فى الحياة الدنيا».
(٩) المسند (١/ ٤١٢) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٤): «رجاله رجال الصحيح».
(١٠) فى ت: «وروى».
(١١) فى ت: «يحيى».

أبا عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما، أو أجره إلى[١] مسلم».

قال أبو عبد الرحمن: كان رسول الله ﷺ يعلمه[٢] عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام. تفرد به أحمد أيضا[٣].

وقال[٤] [الإمام][٥] أحمد أيضا: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش[٦]، عن محمد بن زياد الألهانى، عن أبى راشد الحُبْرَانى قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يَدَى صحيفة فقال: هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق[٧] قال: يا رسول الله، علمنى، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسى، وشر الشيطان وشركه، أو[٨] أقترف على نفسى سوءا، أو أجره إلى مسلم».

ورواه الترمذى، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش[٩]، به[١٠]، وقال: حسن غريب من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصديق: أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعى من الليل: «اللهم فاطر السموات والأرض» إلى آخره[١١].

وقوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ وهم المشركون، ﴿ **مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ** ﴾ أى: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿ **لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ** ﴾ أى: الذى أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ أى: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم، ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا** ﴾ أى: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿ **وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ أى: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا.

﴿ **فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ**

(١) فى أ: «على».
(٢) فى ت، س: «يعلم».
(٣) المسند (٢/ ١٧١).
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت: «عباس».
(٧) فى ت: «الصديق رضى الله عنه».
(٨) فى ت، أ: «أن».
(٩) فى أ: «عباس».
(١٠) المسند (٢/ ١٩٦) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٩).
(١١) المسند (١/ ١٤).

**فتنةٌ ولَكنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾.**

يقول تعالى مخبرا عن(١) الإنسان أنه فى حال الضراء يَضْرَع إلى الله، عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا(٢) خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: لما يعلم الله من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خوَّلنى هذا!

قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾: على خير عندى.

قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، بل [إنما](٣) أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهى فتنة أى: اختبار، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويَدّعون ما يَدّعون.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ﴾ أى: من المخاطبين(٤) ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٦ ـ ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لعبرا وحججا.

**﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ**

(١) فى ت: «عن حال». (٢) فى ت: «فإذا».
(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «المخلطين».

**لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)﴾.**

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه [الآية][١] على غير توبة[٢]؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: قال يعلى: إن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس[٣] [رضى الله عنهما][٤]؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ**﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل [قوله][٥]: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**﴾.

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث ابن جريج، عن يعلى بن مسلم المكى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به[٦].

والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

وقال[٧] الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبدالرحمن المرى[٨] يقول: سمعت[٩] ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ**﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبى[١٠] ﷺ، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات. تفرد به الإمام أحمد[١١].

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا سريج[١٢] بن النعمان، حدثنا روح بن قيس، عن أشعث بن جابر الحدانى، عن مكحول، عن[١٣] عمرو بن عَبَسة[١٤] قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، شيخ كبير يدعم على عصا له، فقال: يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات، فهل يغفر لى؟ فقال: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك». تفرد به أحمد[١٥].

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى ت: «التوبة».
(٣) فى ت: «روى البخارى بسنده عن ابن عباس».
(٤) زيادة من أ.
(٥) زيادة من ت، س.
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٢٢) وسنن أبى داود برقم (٧٢٧٤) وسنن النسائى (٧/٨٦).
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) فى أ: «السرى».
(٩) فى ت: «سمعت عن».
(١٠) فى ت: «رسول الله».
(١١) المسند (٥/٢٧٥).
(١٢) فى أ: «شريح».
(١٣) فى ت: «وعن».
(١٤) فى ت، أ: «عنبسة».
(١٥) المسند (٤/٣٨٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب[(١)]، عن أسماء بنت يزيد [(٢)] قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦]، وسمعته يقول: «﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ولا يبالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾».

ورواه أبو داود والترمذى، من حديث ثابت، به[(٣)].

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن[(٤)] عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [ النساء: ١١٠]، وقال تعالى فى حق المنافقين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾[البروج: ١٠] .

قال الحسن البصرى: انظر[(٥)] إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!

والآيات فى هذا كثيرة جدا.

وفى الصحيحين عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذى[(٦)] قتل تسعا[(٧)] وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عابدا من عُبَّاد بنى إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل[(٨)] به مائة. ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد[(٩)] [(١٠)].

هذا معنى الحديث، وقد كتبناه فى موضع آخر بلفظه.

---

(١) فى ت: «وروى أيضا».

(٢) فى أ: «يزيد رضى الله عنها».

(٣) المسند (٦/ ٤٥٤) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٧)

(٤) فى ت: «ولا يقنط».

(٥) فى ت: «انظروا».

(٦) فى ت: «أن رجلا».

(٧) فى أ: «تسعة».

(٨) فى ت: «فأكمل».

(٩) فى أ: «تبتعد».

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٧٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٧٦٦).

وقال علي بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[١]، [فى][٢] قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرا[٣] ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس [رضى الله عنهما][٤]: من آيس عباد الله[٥] من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبرانى من طريق الشعبى، عن شُتَير بن شكَل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية فى كتاب الله: ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية فى القرآن فرجا فى سورة الغرف: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية فى كتاب الله تصريفا[٦]: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فقال له مسروق: صدقت.

وقال الأعمش، عن أبى سعيد، عن أبى الكنود قال: مر عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تُقَنِّط[٧] الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

**ذكر أحاديث فيها نفى القنوط:**

قال[٨] الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله[٩]، حدثنى أخشن السدوسى قال: دخلت على أنس بن مالك[١٠] فقال[١١]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذى نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا[١٢] لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به [الإمام][١٣] أحمد[١٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى[١٥]، حدثنى ليث، حدثنى محمد بن قيس ـ قاص عمر بن عبد العزيز ـ عن أبى صرْمة، عن أبى أيوب الأنصارى، رضى الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله

---

(١) فى س: «عنه».
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى ت: «العزير».
(٤) زيادة من ت.
(٥) فى أ: «العباد».
(٦) فى ت، س: «تفويضا».
(٧) فى س: «يقنط».
(٨) فى ت: «روى».
(٩) فى أ: « عبيد الله السدوسى».
(١٠) فى ت: «عن ابن مالك»، وفى أ: «أنس بن مالك رضى الله عنه».
(١١) فى ت: «قال».
(١٢) فى ت: «تخطئون».
(١٣) زيادة من أ.
(١٤) المسند (٣/٢٣٨).
(١٥) فى أ: «إسحاق بن أبى عيسى».

قوما يذنبون فيغفر لهم».

هكذا[١] رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، به[٢]. ورواه مسلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظى، عن أبى صرمة ـ وهو الأنصارى صحابى ـ عن أبى أيوب، به[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحرانى، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النُّكرى قال: سمعت أبى يحدث عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب[٥] الندامة»، وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون، فيغفر لهم» تفرد به أحمد[٦].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنى عبد الأعلى بن حماد النَّرسى، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مسلمة الرازى، عن أبى عمرو البجلى، عن عبد الملك بن سفيان الثقفى، عن أبى جعفر محمد بن على، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه، على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المفتن التواب». لم يخرجوه من هذا الوجه[٧].

وقال[٨] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت وحميد، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: إن إبليس ـ عليه لعائن الله ـ قال: يارب، إنك أخرجتنى من الجنة من أجل آدم، وإنى لا أستطيعه إلا بسلطانك. قال: فأنت مسلط. قال: يارب، زدنى. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: يارب، زدنى. قال: أجعل صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرى الدم. قال: يارب، زدنى. قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم فى الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. فقال آدم [عليه السلام][٩]: يارب، قد سلطته على، وإنى لا أمتنع [منه][١٠] إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يارب، زدنى. قال: الحسنة عشر أو أزيد، والسيئة واحدة أو أمحوها. قال: يارب، زدني. قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد. قال: يارب، زدني. قال: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**.

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عمير، عن عمر، رضى الله عنه، فى حديثه قال: وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾**.

---

(١) فى س: «كذا».
(٢) المسند (٥/ ٤١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٤٨) وسنن الترمذى برقم (٣٥٣٩).
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٨).
(٤) فى أ: «ابن عباس رضى الله عنهما».
(٥) فى أ: «الذنوب».
(٦) المسند (١/ ٢٨٩).
(٧) زوائد عبد الله على المسند (١/ ٨٠).
(٨) فى ت: «وروى».
(٩) زيادة من ت، س، أ.
(١٠) زيادة من ت، س، أ.

**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾**. قال عمر، رضى الله عنه: فكتبتها بيدى فى صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال: فقال هشام: لما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طُوًى أصَعَّد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها. قال: فألقى الله فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول فى أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

ثم استحث [سبحانه][1] وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾ أى: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿ **مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ**﴾ أى: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ**﴾، وهو القرآن العظيم، ﴿**مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ أى: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال: ﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾ أى: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل.

وقوله: ﴿**وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ** ﴾ أى: إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

﴿ **أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ أى: تود أن لو [2] أعيدت إلى الدار فتحسن[3] العمل.

قال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه[4]، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه[5]. وقال: ﴿**ولا ينبئك مثل خبير**﴾[فاطر: ١٤]، ﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو رُدوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [الأنعام:٢٨] .

وقد قال[6] الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هدانى؟! فتكون عليه حسرة». قال: «وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هدانى!» قال: «فيكون له الشكر».

ورواه النسائى من حديث أبى بكر بن عياش، به[7].

---

(١) زيادة من ت، وفى أ: «الله». (٢) فى ت: «أن لو أن».
(٣) فى أ: «لتحسن».
(٤) فى أ: «أخبرنا الله تعالى». (٥) فى ت، س: «وعلمهم قبل أن يعلموه».
(٦) فى ت: «روى».
(٧) المسند (٢/ ٥١٢).

ولما تمنى أهل الجرائم العَودَ إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال [الله سبحانه وتعالى](١): ﴿ بَلَى(٢) قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه (٣) آياتى فى الدار الدنيا، وقامت حججى عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾.

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى: فى دعواهم له شريكا وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أى: بكذبهم وافترائهم.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: أليست جهنم كافية لها(٤) سجنا وموئلا، لهم فيها [دار](٥) الخزى والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا عيسى بن أبى عيسى الخياط، عن عمرو بن شعيب(٦)، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس، من نار الأنيار، ويسقون عصارة أهل النار، من طينة الخَبَال»(٧).

وقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أى: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى: ولا يحزنهم(٨) الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فَزَع، مزحزحون عن كل شر، مُؤمَلون كل خير.

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾.

يخبر تعالى أنه خالق(٩) الأشياء كلها، وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته.

---

(١) زيادة من ت، س، أ. (٢) فى ت: «قل» وهو خطأ. (٣) فى أ: «منه جاءتك».
(٤) فى ت، س: «لهم». (٥) زيادة من ت، س.
(٦) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بإسناده عن عمرو بن شعيب».
(٧) ورواه أحمد فى مسنده (٢/١٧٨) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٢) من طريق محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب بنحوه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».
(٨) فى ت: «أى لا يجزيهم». (٩) فى ت: «خلق».

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ، قال مجاهد: المقاليد هى: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عيينة.

وقال السدى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: خزائن السموات والأرض.

والمعنى على كلا القولين: أن أزمَّة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: حججه وبراهينه، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً غريبا جداً ـ وفى صحته نظر ـ ولكن[١] نذكره كما ذكره، فإنه قال:

حدثنا يزيد[٢] بن سنان البصرى بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مَخْلد بن هذيل العبدى، عن عبد الرحمن المدنى، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فقال: «ما سألنى عنها أحد قبلك يا عثمان»، قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير، من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرار أعطى خصالا ستا: أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية: فيعطى قنطارا من الأجر، وأما الثالثة: فترفع[٣] له درجة فى الجنة، وأما الرابعة: فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره[٤] اثنا عشر ملكا، وأما السادسة: فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء».

ورواه أبو يعلى الموصلى من حديث يحيى بن حماد، به مثله[٥]. وهو غريب، وفيه نكارة شديدة، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾: ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم وغيره، عن ابن عباس [رضى الله عنهما أنه قال][٦]: إن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: أخلص العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت

---

(١) فى أ: «ولكن نحن». (٢) فى أ: «زيد».
(٣) فى ت: «فيرفع». (٤) فى س: «فتحضره».
(٥) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٧٣) من طريق أبى عن شجاع بن مخلد عن يحيى بن حماد به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١١٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير، وفيه الأغلب بن تميم، وهو ضعيف».
(٦) زيادة من ت، س.

ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾.

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذى لا أعظم منه، القادر على كل شىء، المالك لكل شىء، وكل شىء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت فى قريش. وقال السدى: ما عظموه حق عظمته.

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][١]: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله [تعالى][٢] عليهم، فمن آمن أن الله على كل شىء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت[٣] أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

قال البخارى: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود[٤] قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء[٥]، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية[٦].

و[قد][٧] رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع من[٨] صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن عبيدة، عن [عبد الله][٩] ابن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه[١٠].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله [تعالى][١١] يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على

---

(١، ٢) زيادة من أ.
(٣) فى ت: «ورد».
(٤) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه».
(٥) فى ت، أ: «والماء على إصبع».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١١).
(٧) زيادة من أ.
(٨) فى أ: «فى».
(٩) زيادة من ت.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١) والمسند (١/ ٤٢٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٥١).
(١١) زيادة من أ.

إصبع، والثرى على إصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى آخر الآية.

وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي ـ من طرق ـ عن الأعمش[١]، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس [٣] قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله السماء على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق[٤] على ذه ـ كل ذلك يشير بإصبعه[٥] ـ قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية.

وكذا رواه الترمذي في التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن الصَّلْت أبي جعفر، عن أبي كدينة يحيى بن المهلب، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، به[٦]، وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن غفير، حدثنا الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة[٧]، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض».

تفرد به من هذا الوجه[٨]، ورواه مسلم من وجه آخر[٩].

وقال[١٠] البخاري ـ في موضع آخر ـ: حدثنا مُقَدَّم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر[١١]، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك».

تفرد به أيضا من هذا الوجه[١٢]، ورواه مسلم من وجه آخر[١٣]. وقد رواه[١٤] الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول، فقال:

حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر[١٥] أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا

---

(١) في ت: «من طريق الأعمش».
(٢) المسند (١/ ٣٧٨) وصحيح البخاري برقم (٧٤٥١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٥٢).
(٣) في ت: «عن ابن عباس رضي الله عنهما». (٤) في أ: «الخلائق». (٥) في ت: «بأصابعه».
(٦) المسند (١/ ٣٢٤) وسنن الترمذي برقم (٣٢٤٠).
(٧) في ت: «وروى البخاري بإسناده أن أبا هريرة».
(٨) صحيح البخاري برقم (٤٨١٢).
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٧) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.
(١٠) في ت: «وروى». (١١) في أ: «عن ابن عمر رضي الله عنهما».
(١٢) صحيح البخاري برقم (٧٤١٢).
(١٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من طريق سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر به.
(١٤) في ت: «وروى». (١٥) في أ: «عن ابن عمر رضي الله عنهما».

الملك، أنا العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّن به.

وقد رواه مسلم، والنسائى، وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبى حازم ـ زاد مسلم: ويعقوب بن عبد الرحمن، كلاهما عن أبى حازم، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن[١] عمر، به، نحوه[٢].

ولفظ مسلم ـ عن عبيد الله بن مقسم[٣] فى هذا الحديث ـ: أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكى النبى ﷺ، قال: يأخذ الله سمواته وأرضيه بيده ويقول: أنا الملك، ويقبض أصابعه ويبسطها: أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شىء منه، حتى إنى لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟

وقال البزار: حدثنا سليمان بن سيف[٤]، حدثنا أبو على الحنفى، حدثنا عباد المِنْقَرى، حدثنى محمد بن المنكدر قال: حدثنا عبد الله بن عمر[رضى الله عنهما][٥]، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حتى بلغ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات[٦].

ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث عبيد بن عمير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح[٧].

وقال الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العُتْبى، حدثنا حيان بن نافع بن صخر بن جويرية، حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن معمر بن الحسن، عن بكر بن خُنَيْس، عن أبى شيبة، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير[٨] قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه: «إنى قارئ عليكم آيات من آخر سورة الزمر، فمن بكى منكم وجبت له الجنة»؟ فقرأها من عند قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، إلى آخر السورة، فمنا من بكى، ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: يا رسول الله، لقد جهدنا أن نبكى، فلم نبك؟ فقال: «إنى سأقرؤها عليكم، فمن لم يبك فليتباك». هذا حديث غريب جدا[٩].

وأغرب منه ما رواه فى المعجم الكبير أيضا: حدثنا هاشم بن مُرْثَد[١٠]، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنى أبى، حدثنى ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبى مالك

---

(١) فى أ: «أبى».

(٢) المسند (٢/ ٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٦٨٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٧٥).

(٣) فى ت: «عمر». (٤) فى أ: «يوسف». (٥) زيادة من أ.

(٦) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٢٨): حدثنا أبو بكر البرذعى عن سليمان بن سيف به، ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/ ٣٤٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ٣٥٢) من طريق عبادة بن ميسرة به، وفى إسناده عباد بن ميسرة المنقرى، وهو ضعيف، وعند ابن عدى: «فتحرك المنبر مرتين».

(٧) لم أجده فى المطبوع من مسند عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.

(٨) فى ت: «وروى الطبرانى فى المعجم الكبير بإسناده عن جرير».

(٩) المعجم الكبير (٢/ ٣٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٠١): «فيه بكر بن خنيس وهو متروك».

(١٠) فى هـ، ت، أ: «زيد» والتصويب من المعجم.

الأشعرى [١] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ثلاث خلال غَيَّبْتُهُنَّ عن عبادى، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبدا: لو كشفت غطائى فرآنى حتى نستيقن ويعلم كيف أفعل بخلقى إذا أتيتهم، وقبضت السموات بيدى، ثم قبضت الأرض [٢] والأرضين، ثم قلت: أنا الملك، من ذا الذى له الملك دونى؟ ثم أريتهم [٣] الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير، فيستيقنوها. وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها، ولكن عمدا غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون، وقد بينته لهم» [٤].

وهذا إسناد متقارب، وهى نسخة تروى بها أحاديث جمة، والله أعلم.

**﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾.**

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾**، هذه النفخة هى الثانية، وهى نفخة الصعق، وهى التى يموت [٥] بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو [٦] مصرح [٧] به مفسرا فى حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا، وهو الباقى آخرا بالديمومة [٨] والبقاء، ويقول: **﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾** [غافر:١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: **﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾** أى: الذى هو واحد وقد قهر كل شىء، وحكم بالفناء على كل شىء. ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: **﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾** أى: أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾** [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: **﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾** [الروم: ٢٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت

---

(١) فى أ: «الأشعرى رضى الله عنه».

(٢) فى هـ: «قبضت الأرضين»، وفى س، ت، أ: «قبضت الأرض ثم الأرضين» والمثبت من المعجم.

(٣) فى س: «أريهم».

(٤) المعجم الكبير (٣/ ٢٩٤)، وفى إسناده: محمد بن إسماعيل بن عياش، ضعيف ولم يسمع من أبيه.

(٥) فى س: «تموت». (٦) فى أ: «جاء».

(٧) فى ت، س: «مصرحا». (٨) فى أ: «بالديمومية».

يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو [(١)]: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئا، إنما قلت: سترون بعد قليل أمرا عظيما. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فى أمتى، فيمكث فيهم أربعين ـ لا أدرى أربعين يوما أو أربعين عاما أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة ـ فيبعث الله [(٢)] عيسى ابن مريم [(٣)]، كأنه عروة بن مسعود الثقفى، فيظهر فيهلكه الله[(٤)]. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن[(٥)] أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس فى خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا». قال: «فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله ـ أو: ينزل الله مطرا كأنه الطل ـ أو الظل، شك نعمان ـ فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يأيها الناس، هلموا إلى ربكم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[(٦)]. فيومئذ تبعث الولدان شيبا، ويومئذ يكشف عن ساق».

انفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه[(٧)].

وقال البخارى: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح قال: سمعت أبا هريرة [رضى الله عنه][(٨)] عن النبى ﷺ قال: «بين النفختين أربعون»[(٩)]. قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، ويبلى كل شىء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه، فيه يركب الخلق[(١٠)].

وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر ابن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][(١١)]، عن النبى ﷺ قال: «سألت جبريل، عليه السلام، عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾: من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء، مقلدون أسيافهم حول عرشه، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير، مَدُّ[(١٢)] خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون فى الجنة يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا، عز وجل، لننظر كيف يقضى بين خلقه، يضحك إليهم إلهى، وإذا ضحك إلى عبد فى موطن فلا حساب عليه».

(١) فى أ: «عمرو رضى الله عنهما». (٢) فى أ: «الله تعالى». (٣) فى أ: «ابن مريم عليه السلام».
(٤) فى أ: «فيهلكه الله على يده».
(٥) فى ت، س، أ: «حتى أن لو كان». (٦) فى س: «وتسعون».
(٧) المسند (٢/ ١٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٩٤٠). (٨) زيادة من أ. (٩) فى ت: «أربعين».
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٨١٤). (١١) زيادة من ت، أ. (١٢) فى أ: «قدر».

رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش، فإنه غير معروف، والله أعلم[1].

وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات[2] الله إليهم، ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾. قال الله [تعالى][3]: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال [الله][4] تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير أو شر، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)﴾.

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار؟ وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي: يدفعون إليها دفعا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا. وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. وهم في تلك الحال صُمٌّ وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية ـ الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ـ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين[5] على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

(١) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/٢٥٣) من طريق أبي أسامة عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم بنحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) في س، أ: «رسالة».
(٣) زيادة من ت، س، أ.
(٤) زيادة من أ.
(٥) في س، أ: «والبرهان».

**عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** أى: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا[1] من الشّقْوة التى كنا نستحقها حيث عَدَلْنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى الآية الأخرى: ﴿**كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[الملك: ٨ ـ ١٠] أى: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١١] أى: بعدا لهم وخسارا.

وقوله هاهنا: ﴿**قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ أى: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد[2] عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول[3] إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿**قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ أى: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿**فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**﴾ أى: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم فى الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)**﴾.

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة ﴿**زُمَرًا**﴾ أى: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضا.

﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا**﴾ أى: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا فى العرصات[4] عند استشفاعهم إلى الله، عز وجل، أن يأتى لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها.

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع فى الجنة» وفى لفظ لمسلم: «وأنا أول من يقرع باب الجنة»[5].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضى الله

(١) فى س، أ: «لنا».
(٢) فى أ: «شهد».
(٣) فى أ: «هذا الذى قاله».
(٤) فى ت، أ: «الصرخات».
(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٦).

عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أُمِرْتُ ألا أفتح لأحد قبلك».

ورواه مسلم عن عمرو[١] الناقد وزهير بن حرب، كلاهما عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان ـ وهو ابن المغيرة القيسي ـ عن ثابت، عن أنس، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج[٤] الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة[٥]، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد[٦]، يسبحون الله بكرة وعشيا».

رواه البخاري عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبدالرزاق، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه[٧]. وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة [رضي الله عنه][٨]، عن رسول الله ﷺ[٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمة، حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَة، عن أبي هريرة [رضي الله عنه][١٠] قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زُمْرَة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشدِّ كوكب دُرِّيّ في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتْفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا في السماء»[١١].

وأخرجاه أيضا من حديث جرير[١٢].

وقال الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي زُمْرَة، هم سبعون ألفا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عُكَّاشة بن محْصَن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم: فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عُكَّاشة».

أخرجاه[١٣][١٤]. وقد روى هذا الحديث ـ في السبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ـ البخاري ومسلم، عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورفاعة بن عرابة

(١) في أ: «عمرو بن محمد الناقد».
(٢) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٧).
(٣) في أ: «أبي هريرة رضي الله عنه».
(٤) في ت: «يدخلون».
(٥) في س، أ: «ومجامرهم من الألوة».
(٦) في أ: «قلب رجل واحد».
(٧) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح البخاري برقم (٣٢٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(٨) زيادة من أ.
(٩) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٢٤٦).
(١٠) زيادة من أ.
(١١) مسند أبي يعلى (١٠/ ٤٧٠).
(١٢) صحيح البخاري برقم (٣٣٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(١٣) في ت: «أخرجه البخاري ومسلم».
(١٤) صحيح البخاري برقم (٦٥٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥).

الجهنى، وأم قيس بنت محصن.

ولهما عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا ـ أو: سبعمائة ألف ـ آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»(١).

وقال(٢) أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا أمامة(٣) الباهلى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وعدني ربى، عز وجل، أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا، ولا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حَثَيَات من حثيات ربى عز وجل»(٤).

وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، [و](٥) أبى اليمان عامر ابن عبد الله بن لُحَىّ (٦) عن أبى أمامة [رضى الله عنه](٧)(٨).

ورواه الطبرانىَ، عن عتبة بن عَبْدٍ السُّلمى: «ثم يشفع كل ألف فى سبعين ألفا»(٩).

وروى مثله عن ثوبان، وأبى سعيد الأنمارى. وله شواهد من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب(١٠) والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهنَ كل مذهب فى الرجاء والأمل.

ومن زعم أن «الواو» فى قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النّجْعَة، وأغرق فى النَزْع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن(١١)، عن أبى هريرة (١٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله، دعى من أبواب الجنة، وللجنة أبواب (١٣)، فمن كان من أهل الصلاة دُعِى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢١٩).
(٢) فى ت: «وروى». (٣) فى ت: «عن أبى أمامة».
(٤) المصنف (١١/ ٤٧١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٣٧) من طريق إسماعيل بن عياش به، وقال: «هذا حديث حسن غريب».
(٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «يحيى». (٧) زيادة من أ.
(٨) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ١٨٧)
(٩) المعجم الكبير (١٧/ ١٢٦، ١٢٧).
(١٠) فى أ: «بالذم». (١١) فى ت: «فروى البخارى ومسلم». (١٢) فى أ: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(١٣) فى أ: «أبواب ثمانية».

على أحد من ضرورة دُعى، من أيها[١] دعى، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

ورواه البخارى ومسلم، من حديث الزهرى، بنحوه[٢].

وفيهما من حديث أبى حازم سلمة بن دينار[٣]، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»[٤].

وفى صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ـ أو: فيسبغ الوضوء ـ ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»[٥].

وقال[٦] الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حُسَين، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن معاذ، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله»[٧].

**ذكر سعة أبواب الجنة ـ نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها ـ:**

فى الصحيحين من حديث أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٨] فى حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله[٩]: يا محمد، أدخل من لا حساب عليه [١٠] من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر. والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ـ ما بين عضادتى الباب ـ لكما بين مكة وهجر ـ أو: هجر ومكة». وفى رواية: «مكة وبصرى»[١١].

وفى صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»[١٢].

وفى المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، مثله[١٣].

وقال عبد بن حميد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن ما بين مصراعين فى الجنة مسيرة أربعين سنة»[١٤].

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين فى بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة» وفى رواية: «مؤمنة»[١٥].

---

(١) فى أ: «أيتهما».

(٢) المسند (٢/ ٢٦٨) وصحيح البخارى برقم (٣٦٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٧).

(٣) فى ت: «وفى الصحيحين».

(٤) صحيح البخارى برقم (١٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (١١٥٢).

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٣٤). (٦) فى ت: «وروى».

(٧) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش به، وشهر بن حوشب فيه كلام ولم يسمع من معاذ.

(٨) زيادة من أ. (٩) فى أ: «قال الله عز وجل». (١٠) فى أ: «لا حساب عليه ولا ملامة».

(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧١٢) وصحيح مسلم برقم (١٩٤).

(١٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٧).

(١٣) المسند (٥/ ٣).

(١٤) المنتخب برقم (٩٢٤) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف. (١٥) رواه النسائى فى السنن (٥/ ٢٣٤) من حديث أبى هريرة.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، لا يبغون عنها حولا.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: الذى كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا فى الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدى، وابن زيد[١]: أى أرض الجنة.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى: أين[٢] شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

وفى الصحيحين من حديث الزهرى، عن أنس فى قصة المعراج قال النبى ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[٣].

وقال عبد بن حميد: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا الجريرى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد [رضى الله عنه][٤] أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: دَرْمَكة بيضاءُ مِسْك خالص: فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

وكذا رواه مسلم، من حديث أبى مسلمة[٥]، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، به[٦].

ورواه مسلم [أيضا][٧] عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن أبى أسامة، عن الجُرَيْرِى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد؛ أن ابن صائد[٨] سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «دَرْمَكة بيضاء، مسك خالص»[٩].

وقول ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عاصم بن ضمرة[١٠]، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة

---

(١) فى ت: «وأبو صالح وغيرهما». (٢) فى أ: «حيث».
(٣) انظر: الحديث بطوله عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى س: «سلمة».
(٦) المنتخب برقم (٨٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).
(٧) زيادة من أ. (٨) فى س: «صياد».
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).
(١٠) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده عن على»، وفى أ: «حمزة».

النعيم، فلم تُغَير أبشارهم بعدها أبدا، ولم تُشْعَث أشعارهم أبدا بعدها، كأنما دهنوا بالدهان، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها، فشربوا منها، فأذهبت ما كان فى بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب(١) الجنة: ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾. ويلقى كل غلمان صاحبهم يُطِيفُون به، فعل(٢) الولدان بالحميم جاء من الغيبة: أَبْشِر، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا. وقال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان ـ باسمه فى الدنيا ـ فيقلن: أنت رأيتَه؟ فيقول: نعم. فيستخففهن الفرح حتى تخرج إلى أَسْكُفَّة(٣) الباب. قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابى مبثوبة. قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه(٤)، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر [وأبيض](٥)، ومن كل لون. ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله قدره له، لألَمَّ أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق. ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكىء على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [الأعراف: ٤٣] الآية(٦).

ثم قال: حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النَّهْدِى، حدثنا مسلمة(٧) بن جعفر البَجَلِى قال: سمعت أبا معاذ البصرى يقول: إن عليا، رضى الله عنه، كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقال النبى(٨) ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يُسْتَقبلون ـ أو: يُؤْتون ـ بنوق لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما فيُغْسَل ما فى بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى، فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا، وتجرى عليهم نضرة النعيم، فينتهون ـ أو: فيأتون ـ باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة(٩)، فيسمع (١٠)لها طنين يا على، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قَيِّمها فيفتح له، فإذا رآه خَرّ له ـ قال مسلمة: أراه قال: ساجداً (١١)ـ فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قَيمك، وُكِّلْتُ بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت حبى، وأنا حبك، وأنا الخالدة التى لا أموت، وأنا الناعمة التى لا أبأس، وأنا الراضية التى لا أسخط، وأنا المقيمة التى لا أظعن». فيدخل بيتاً من أسّه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر، ليس فيها (١٢)طريقة تشاكل صاحبتها، فى البيت سبعون سريرا، على كل سرير سبعون حَشْيَة، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مُخّ ساقها من باطن الحُلَل، يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار

---

(١) فى أ: «باب». (٢) فى أ: «مثل». (٣) فى س: «أسفكة».

(٤) فى أ: «بنائه». (٥) زيادة من ت، س، أ.

(٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٤/ ٣٥) وابن المبارك فى الزهد برقم (١٤٥٠) والضياء المقدسى فى المختارة برقم (٥٤١) من طرق عن أبى إسحاق بنحوه.

(٧) فى ت، أ: «سلمة». (٨) فى ت: «رسول الله». (٩) فى س: «الصفحة».

(١٠) فى أ: «فلو سمع». (١١) فى ت: «خر له ساجد» وهو خطأ، والصواب: «ساجدا».

(١٢) فى ت، س: «منها».

من تحتهم تَطّرد، أنهار من ماء غير آسن ـ قال: صاف، لا كدر فيه ـ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ـ قال: لم يخرج من ضروع الماشية ـ وأنهار من خمر لذة للشاربين ـ قال: لم تعصرها الرجال بأقدامهم ـ وأنهار من عسل مصفى ـ قال: لم يخرج من بطون النحل. يستجنى الثمار، فإن شاء قائما، وإن شاء قاعدا، وإن شاء متكئا ـ ثم تلا: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذُلِّلت قطوفها تذليلاً﴾ [الإنسان: ١٤] ـ فيشتهى الطعام فيأتيه طير أبيض ـ قال: وربما قال: أخضر. قال: ـ فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها، أى الألوان شاء، ثم يطير فيذهب[١]، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم، تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. ولو أن شعرة من شعر[٢] الحوراء وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواداً فى نور».

هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾ .

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار، وأنه نَزّل كُلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ـ أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه[٣] ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أى: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾.

ثم قال: ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: ونطق الكون أجمعه[٤] ـ ناطقه وبهيمه ـ لله رب العالمين، بالحمد فى حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد فى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد فى قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

**آخر تفسير سورة الزمر ولله الحمد [٥] [أولاً وآخراً ظاهراً وباطنًا][٦]**

---

(١) فى س: «ثم تطير فتذهب». (٢) فى ت: «شعور». (٣) فى أ: «ويحمدونه».
(٤) فى ت، س: «جميعه». (٥) فى أ: «والله أعلم». (٦) زيادة من س.

# ٣٩ ـــ سورة الزمر
## ( مكية وآياتها خمس وسبعون آية )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ٣٩ الزمر

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) ٣٩ الزمر

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ
اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ٣٩ الزمر

---

﴿ سورة الزمر مكية إلا قوله قل ياعبادى الآية وآياتها خمس وسبعون آية ﴾

١ ( بسم الله الرحمن الرحيم ) (تنزيل الكتاب) خبر لمبتدأ محذوف هو اسم إشارة أشير به إلى السورة
تنزيلا لها منزلة الحاضر المشار إليه لكونها على شرف الذكر والحضور كما مر مراراً وقد قيل هو ضمير عائد
• إلى الذكر فى قوله تعالى إن هو إلا ذكر للعالمين وقوله تعالى (من الله العزيز الحكيم) صلة للتنزيل أو خبر ثان
أو حال من التنزيل عاملها معنى الإشارة أو من الكتاب الذى هو مفعول معنى عاملها المضاف وقيل هو خبر
لتنزيل الكتاب والوجه الأول أوفى بمقتضى المقام الذى هو بيان أن السورة أو القرآن تنزيل الكتاب من
الله تعالى لا بيان أن تنزيل الكتاب منه تعالى لا من غيره كما يفيده الوجه الأخير وقرىء تنزيل الكتاب
بالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ أو الزم والتعرض لوصفى العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما فى الكتاب
بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم
٢ الباهرة وقوله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) شروع فى بيان شأن المنزل إليه وما يجب عليه أثر
بيان شأن المنزل وكونه من عند الله تعالى والمراد بالكتاب هو القرآن وإظهاره على تقدير كونه هو المراد
بالأول أيضاً لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه والباء إما متعلقة بالإنزال أى بسبب الحق وإثباته وإظهاره
أو بداعية الحق واقتضائه للإنزال وإما بمحذوف هو حال من نون العظمة أو من الكتاب أى أنزلناه
إليك محقين فى ذلك أو أنزلناه ملتبساً بالحق والصواب أى كل ما فيه حق لا ريب فيه موجب للعمل به حتما
• والفاء فى قوله تعالى (فاعبد الله مخلصاً له الدين) لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه
الصلاة والسلام بالحق أى فاعبده تعالى ممحضاً له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين فى تضاعيف
ما أنزل إليك وقرىء برفع الدين على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد
٣ من اللام والجملة استئناف وقع تعليلا للأمر بإخلاص العبادة وقوله تعالى ( ألا لله الدين الخالص )

لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ٣٩ الزمر

استئناف مقرر لما قبله من الأمر بإخلاص الدين له تعالى ووجوب الامتثال به وعلى القراءة الأخيرة مؤكد لاختصاص الدين به تعالى أى ألا هو الذى يجب أن يخص بإخلاص الطاعة له لأنه المتفرد بصفات الألوهية التى من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر وقوله تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء) * تحقيق لحقية ما ذكر من إخلاص الدين الذى هو عبارة عن التوحيد ببيان بطلان الشرك الذى هو عبارة عن ترك إخلاصه والموصول عبارة عن المشركين ومحله الرفع على الابتداء خبره ماسيأتى من الجملة المصدرة بإن والأولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام وقوله تعالى (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله * زلفى) حال بتقدير القول من واو اتخذوا مبينة لكيفية إشراكهم وعدم خلوص دينهم والاستثناء مفرغ من أعم العلل وزلفى مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر ملاق له فى المعنى أى والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره قائلين مانعبدهم لشىء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تعالى تقريباً (إن الله * يحكم بينهم) أى وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما فى قوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله على أحد الوجهين أى بين أحد منهم وبين غيره وعليه قول النابغة [ فما كان بين الخير لو جاء سالماً * أبو حجر إلا ليال قلائل ] أى بين الخير وبينى وقيل ضمير بينهم للفريقين جميعاً (فيما هم فيه يختلفون) من الدين الذى اختلفوا فيه بالتوحيد والإشراك وادعى كل فريق منهم صحة ما انتحله وحكمه تعالى فى ذلك إدخال الموحدين الجنة والمشركين النار فالضمير للفريقين هذا هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم وأما تجويز أن يكون الموصول عبارة عن المعبودين على حذف العائد إليه وإضمار المشركين من غير ذكر تعويلا على دلالة المساق عليهم ويكون التقدير والذين اتخذهم المشركون أولياء قائلين مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله إن الله يحكم بينهم أى بين العبدة والمعبودين فيما هم فيه يختلفون حيث يرجو العبدة شفاعتهم وهم يلعنونهم فبعد الإغضاء عما فيه من التعسفات بمعزل من السداد كيف لا وليس فيما ذكر من طلب الشفاعة واللعن مادة يختلف فيها الفريقان اختلافا محوجا إلى الحكم والفصل وإنما ذاك مابين فريق الموحدين والمشركين فى الدنيا من الاختلاف فى الدين الباقى إلى يوم القيامة وقرىء قالوا مانعبدهم فهو بدل من الصلة لا خبر للموصول كما قيل إذ ليس فى الإخبار بذلك مزيد مزية وقرىء مانعبدكم إلا لتقربونا حكاية لما خاطبوا به آلهتهم وقرىء نعبدهم إتباعا للباء (إن الله لا يهدى) أى لا يوفق للاهتداء * إلى الحق الذى هو طريق النجاة عن المكروه والفوز بالمطلوب (من هو كاذب كفار) أى راسخ فى * الكذب مبالغ فى الكفر كما يعرب عنه قراءة كذاب وكذوب فإنهما فاقدان للبصيرة غير قابلين للاهتداء لتغييرهما الفطرة الأصلية بالتمرن فى الضلالة والتمادى فى الغى والجملة تعليل لما ذكر من حكمه تعالى (لو أراد ٤ الله أن يتخذ ولداً) الخ استئناف مسوق لتحقيق الحق وإبطال القول بأن الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى عن ذلك علواً كبيراً ببيان استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى على الإطلاق ليندرج فيه استحالة

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ٣٩ الزمر

ماقيل اندراجا أولياً أى لو أراد الله أن يتخذ ولداً (لاصطفى) أى لاتخذ (مما يخلق) أى من جملة مايخلقه أو من جنس مايخلقه (مايشاء) أن يتخذه إذلا موجود سواه إلا وهو مخلوق له تعالى لامتناع تعدد الواجب ووجوب استناد جميع ماعداه إليه ومن البين أن اتخاذ الولد منوط بالمماثلة بين المتخذ والمتخذ وأن المخلوق لا يماثل خالقه حتى يمكن اتخاذه ولداً فما فرضناه اتخاذ ولد لم يكن اتخاذ ولد بل اصطفاء عبد وإليه أشير حيث وضع الاصطفاء موضع الاتخاذ الذى تقتضيه الشرطية تنبيها على استحالة مقدمها لاستلزام فرض وقوعه بل فرض إرادة وقوعه انتفاءه أى لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولداً لفعل شيئاً ليس هو من اتخاذ الولد فى شىء أصلا بل إنما هو اصطفاء عبد ولا ريب فى أن ما يستلزم فرض وقوعه انتفاءه فهو ممتنع قطعاً فكأنه قيل لو أراد الله أن يتخذ ولداً لامتنع ولم يصح لكن لا على أن الامتناع منوط بتحقق الإرادة بل على أنه متحقق عند عدمها بطريق الأولوية على منوال لو لم يخف الله لم يعصه وقوله تعالى (سبحانه) تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه تعالى عنه أى تنزه بالذات عن ذلك تنزهه الخاص به على أن السبحان مصدر من سبح إذا بعد أو أسبحه تسبيحاً لائقاً به على أنه علم للتسبيح مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحاً حقيقاً بشأنه وقوله تعالى (هو الله الواحد القهار) استئناف مبين لتنزهه تعالى بحسب الصفات إثر بيان تنزهه تعالى عنه بحسب الذات فإن صفة الألوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال النافية لسمات النقصان والوحدة الذاتية الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الإطلاق مما يقضى بتنزهه تعالى عما قالوا قضاء متقنا وكذا وصف القهارية لما أن اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير عرضة للفناء ليقوم ولده مقامه عند فنائه ومن هو مستحيل الفناء قهار لكل الكائنات كيف يتصور أن يتخذ من الأشياء الفانية مايقوم مقامه وقوله تعالى (خلق السموات والأرض بالحق) تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة على تفرده بما ذكر من الصفات الجليلة أى خلقهما ومابينهما من الموجودات ملتبسة بالحق والصواب مشتملة على الحكم والمصالح وقوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) بيان لكيفية تصرفه تعالى فيهما بعد بيان خلقهما فإن حدوث الليل والنهار فى الأرض منوط بتحريك السموات أى يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة أو يجعله كارا عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة وصيغة المضارع للدلالة على التجدد (وسخر الشمس والقمر) جعلهما منقادين لأمره تعالى وقوله تعالى (كل يجرى لأجل مسمى) بيان لكيفية تسخيرهما أى كل منهما يجرى لمنتهى دورته أو منقطع حركته وقد مر تفصيله غير مرة (ألا هو العزيز) الغالب القادر على كل شىء من الأشياء التى من جملتها عقاب العصاة (الغفار) المبالغ فى المغفرة ولذلك لا يعاجل بالعقوبة وسلب مافى هذه الصنائع البديعة من آثار الرحمة وتصدير

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ٣٩ الزمر

٦ الجملة بحرف التنبيه لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها (خلقكم من نفس واحدة) بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ماذكر وترك عطفه على خلق السموات للإيذان باستقلاله فى الدلالة ولتعلقه بالعالم السفلى والبداءة بخلق الإنسان لعراقته فى الدلالة لما فيه من تعاجيب آثار القدرة وأسرار الحكمة وأصالته فى المعرفة فإن الإنسان بحال نفسه أعرف والمراد بالنفس نفس آدم عليه السلام وقوله (ثم جعل منها زوجها) ٭ عطف على محذوف هو صفة لنفس أى من نفس خلقها ثم جعل منها زوجها أو على معنى واحدة أى من نفس وحدت ثم جعل منها زوجها فشفعها أو على خلقكم لتفاوت مابينهما فى الدلالة فإنهما وإن كانتا آيتين دالتين على ماذكر لكن الأولى لاستمرارها صارت معتادة وأما الثانية فحيث لم تكن معتادة خارجة عن قياس الأولى كما يشعر به التعبير عنها بالجعل دون الخلق كانت أدخل فى كونها آية وأجلب للتعجب من السامع فعطفت على الأولى بثم دلالة على مباينتها لها فضلا ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخى فى الحال والمنزلة وقيل أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق منه حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة خلق آدم عليه والسلام بلا أب وأم وخلق حواء من قصيراه ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما وقوله تعالى (وأنزل لكم) بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ماذكر أى قضى أو ٭ قسم لكم فإن قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث تكتب فى اللوح المحفوظ أو أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء كالأمطار وأشعة الكواكب (من الأنعام ثمانية أزواج) ذكراً وأنثى هى الإبل ٭ والبقر والضأن والمعز وقيل خلقها فى الجنة ثم أنزلها وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر فإن كون الإنزال لمنافعهم وكونه من الجهة العالية من الأمور المهمة المشوقة إلى ما أنزل لامحالة وقوله تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم) استئناف مسوق لبيان كيفية ٭ خلقهم وأطواره المختلفة الدالة على القدرة الباهرة وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد وقوله تعالى (خلقاً من بعد خلق) مصدر مؤكد أى يخلقكم فيها خلقاً كائناً من بعد خلق أى خلقاً مدرجاً حيواناً ٭ سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ مخلقة من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة (فى ظلمات ثلاث) متعلق بيخلقكم وهى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة أو ٭ ظلمة الصلب والبطن والرحم (ذلكم) إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته تعالى فى العظمة والكبرياء ومحله الرفع على الابتداء أى ذلكم العظيم الشأن الذى عددت أفعاله (الله) وقوله تعالى (ربكم) خبر آخر أى مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعدها ومالككم المستحق لتخصيص العبادة به (له الملك) على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه

إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ٣٩ الزمر

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ٣٩ الزمر

من الوجوه والجملة خبر آخر وكذا قوله تعالى ( لا إله إلا هو ) والفاء فى قوله تعالى ( فأنى تصرفون ) لترتيب مابعدها على ماذكر من شئونه تعالى أى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها
٧ ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية إلى عبادة غيره من غير داع إليها مع كثرة الصوارف عنها ( إن تكفروا ) به تعالى بعد مشاهدة ماذكر من فنون نعمائه ومعرفة شئونه العظيمة الموجبة للإيمان والشكر ( فإن الله غنى عنكم ) أى فاعلموا أنه تعالى غنى عن إيمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما ( ولا يرضى لعباده الكفر ) أى عدم رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به (وإن تشكروا يرضه لكم) أى يرض الشكر لأجلكم ومنفعتكم لأنه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه تعالى به وإنما قيل لعباده لا لكم لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عباده تعالى وقرىء بإسكان الهاء (ولا تزر وازرة وزر أخرى) بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلا أى لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى (ثم إلى ربكم مرجعكم) بالبعث بعد الموت (فينبئكم) عند ذلك (بما كنتم تعملون) أى كنتم تعملونه فى الدنيا من أعمال الكفر والإيمان أى يجازيكم بذلك ثوابا وعقابا (إنه عليم بذات الصدور) أى بمضمرات
٨ القلوب فكيف بالأعمال الظاهرة وهو تعليل للتنبئة ( وإذا مس الإنسان ضر ) من مرض وغيره (دعا ربه منيبا إليه ) راجعا إليه مما كان يدعوه فى حالة الرخاء لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى إن الإنسان لظلوم كفار ( ثم إذا خوله نعمة منه ) أى أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى من التخول وهو التعهد أى جعله خائل مال من قولهم فلان خائل مال إذا كان متعهدا له حسن القيام به أو من الخول وهو الافتخار أى جعله يخول أى يختال ويفتخر (نسى ما كان يدعو إليه ) أى نسى الضر الذى كان يدعو الله تعالى فيما سبق إلى كشفه ( من قبل ) أى من قبل التخويل أو نسى ربه الذى كان يدعوه ويتضرع إليه إما بناء على أن ما بمعنى من كما فى قوله تعالى وما خلق الذكر والأنثى وقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد وإما إيذانا بأن نسيانه بلغ إلى حيث لا يعرف مدعوه ماهو فضلا عن أن يعرفه من هو كما مر فى قوله تعالى عما أرضعت ( وجعل لله أندادا ) شركاء فى العبادة ( ليضل ) الناس بذلك ( عن سبيله ) الذى هو التوحيد وقرىء ليضل بفتح الياء أى يزداد ضلالا أو يثبت عليه وإلا فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور واللام لام العاقبة كما فى قوله تعالى

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ٣٩ الزمر

فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً خلا أن هذا أقرب إلى الحقيقة لأن الجاعل ههنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال وإن لم يعرف لجهله أنهما إضلال وضلال وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلاً (قل) تهديداً لذلك الضال المضل وبياناً لحاله ومآله (تمتع بكفرك قليلا) أى تمتعاً قليلا أو زماناً قليلا (إنك من أصحاب النار) أى من ملازميها والمعذبين فيها على الدوام وهو تعليل لقلة التمتع وفيه من الإقناط من النجاة مالا يخفى كأنه قيل إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من
٩ الإيمان والطاعة فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته (أم من هو قانت آناء الليل) الخ من تمام الكلام المأمور به وأم إما متصلة قد حذف معادلها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه كأنه قيل له تأكيداً للتهديد وتهكما به أأنت أحسن حالا ومآلا أم من هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على أداء وظائف العبادات فى ساعات الليل حالتى السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط كدأبك حال كونه (ساجداً وقائماً) أى جامعاً بين الوصفين المحمودين وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل فى معنى العبادة وقرىء كلاهما بالرفع على أنه خبر بعد خبر (يحذر الآخرة) حال أخرى على الترادف أو التداخل أو استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية حاله من القنوت والسجود والقيام كأنه قيل ما باله يفعل ذلك فقيل يحذر عذاب الآخرة (ويرجو رحمة ربه) فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضمير الراجى لا أنه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط وإما منقطعة وما فيها من الإضراب للانتقال من التهديد إلى التبكيت بتكليف الجواب الملجىء إلى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل بل أم من هو قانت الخ أفضل أم من هو كافر مثلك كما هو المعنى على قراءة التخفيف (قل) بياناً للحق وتنبيهاً على شرف العلم والعمل (هل يستوى الذين يعلمون) حقائق الأحوال فيعملون بموجب علمهم كالقانت المذكور (والذين لا يعلمون) أى ماذكر أو شيئاً فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك والاستفهام للتنبيه على أن كون الأولين فى أعلى معارج الخير وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر وقيل هو وارد على سبيل التشبيه أى كما لا يستوى العالمون والجاهلون لا يستوى القانتون والعاصون وقوله تعالى (إنما يتذكر أولو الألباب) كلام مستقل غير داخل فى الكلام المأمور به وارد من جهته تعالى بعد الأمر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصى لبيان عدم تأثيرها فى قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما فى قول من قال [عوجوا لخيوا لنعمى دمنة الدار . ماذا تحيون من نوى وأحجار] أى إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وهؤلاء بمعزل من ذلك وقرىء إنما يذكر بالإدغام .

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ٣٩ الزمر

قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ٣٩ الزمر

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ٣٩ الزمر

١٠ (قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) أمر رسول الله ﷺ بتذكير المؤمنين وحملهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكر بأولى الألباب إيذاناً بأنهم هم كما سيصرح به أى قل لهم قولى هذا بعينه وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فإن نقل عين أمر الله أدخل فى إيجاب الامتثال به وقوله تعالى (للذين أحسنوا) تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به وإيراد الإحسان فى حيز الصلة دون التقوى للإيذان بأنه من باب الإحسان وأنهما متلازمان وكذا الصبر كما مر فى قوله تعالى إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفى قوله تعالى إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وقوله تعالى (فى هذه الدنيا) متعلق بأحسنوا أى عملوا الأعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص وهو الذى عبر عنه رسول الله ﷺ حين سئل عن الإحسان بقوله ﷺ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك (حسنة) أى حسنة عظيمة لا يكتنه كنهها وهى الجنة وقيل هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها أو حال من ضميرها فى الظرف فالمراد بها حينئذ الصحة والعافية (وأرض الله واسعة) فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والإحسان فى وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكن فيه من ذلك كما هو سنة الأنبياء والصالحين فإنه لا عذر له فى التفريط أصلا وقوله تعالى (إنما يوفى الصابرون) الخ ترغيب فى التقوى المأمور بها وإيثار الصابرين على المتقين للإيذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة الإحسان لما أشير إليه من استلزام التقوى لهما مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة فى تحمل مشاق المهاجرة ومتاعبها أى إنما يوفى الذين صبروا على دينهم وحافظوا على حدوده ولم يفرطوا فى مراعاة حقوقه لما اعتراهم فى ذلك من فنون الآلام والبلايا التى من جملتها مهاجرة الأهل ومفارقة الأوطان (أجرهم) بمقابلة ما كابدوا من الصبر (بغير حساب) أى بحيث لا يحصى ولا يحصر عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يهتدى إليه حساب الحساب ولا يعرف وفى الحديث أنه تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض

١١ مما يذهب به أهل البلاء من الفضل (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) أى من كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك أمر رسول الله ﷺ ببيان ما أمر به نفسه من الإخلاص فى عبادة الله الذى هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة فى حثهم على الإتيان بما كلفوه وتمهيداً لما يعقبه مما

١٢ خوطب به المشركون (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) أى وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ٣٩ الزمر

قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ ٣٩ الزمر

فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ٣٩ الزمر

لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ
فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ٣٩ الزمر

---

فى الدنيا والآخرة لأن إحراز قصب السبق فى الدين بالإخلاص فيه والعطف لمغايرة الثانى الأول
بتقيده بالعلة والإشعار بأن العبادة المذكورة كما تقتضى الأمر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق
فى الدين ويجوز أن تجعل اللام مزيدة كما فى أردت لأن أقوم بدليل قوله تعالى أمرت أن أكون أول
من أسلم فالمعنى وأمرت أن أكون أول من أسلم من أهل زمانى أو من قومى أو أكون أول من دعا غيره
إلى مادعا إليه نفسه ( قل إنى أخاف إن عصيت ربى ) بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ١٣
(عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة وصف بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهى والأهوال ( قل الله أعبد ) ١٤
لا غيره لا استقلالا ولا اشتراكا (مخلصاً له دينى) من كل شوب أمر ﷺ أولا ببيان كونه مأموراً بعبادة
الله تعالى وإخلاص الدين له ثم بالإخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان ثم بالإخبار بامتثاله
بالأمر على أبلغ وجه وآكده إظهاراً لتصلبه فى الدين وحسما لأطماعهم الفارغة وتمهيداً لتهديدهم بقوله
تعالى (فاعبدوا ماشئتم ) أن تعبدوه ( من دونه ) تعالى وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم مالا يخفى ١٥
كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كى يحل بهم العقاب (قل إن الخاسرين) أى الكاملين فى الخسران
الذى هو عبارة عن إضاعة ما يهمه وإتلاف مالا بد منه ( الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ) باختيارهم
الكفر لهما أى أضاعوهما وأتلفوهما (يوم القيامة) حين يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب السرمدى *
وأوقعوهما فى هلكة لا هلكة وراءها وقيل خسروا أهليهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم
كما خسروا أنفسهم وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا إياب بعده وفيه أن المحذور ذهاب
مالو آب لانتفع به الخاسر وذلك غير متصور فى الشق الأخير وقيل خسروهم لأنهم لم يدخلوا مدخل
الذين لهم فى أهل الجنة وخسروا أهليهم الذين كانوا يتمتعون بهم لو آمنوا وأياً ما كان فليس المراد مجرد
تعريف الكاملين فى الخسران بما ذكر بل بيان أنهم هم إما بجعل الموصول عبارة عنهم أو عما هم مندرجون
فيه اندراجا أولياً وما فى قوله تعالى (ألا ذلك هو الخسران المبين) من استئناف الجملة وتصديرها بحرف *
التنبيه والإشارة بذلك إلى بعد منزلة المشار إليه فى الشر وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه
بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته وأنه لا خسران وراءه ما لا يخفى وقوله تعالى ( لهم من فوقهم ١٦

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٣٩ الزمر

ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ٣٩ الزمر

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ ٣٩ الزمر

ظلل من النار ) الخ نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام على أن لهم خبر لظلل ومن فوقهم متعلق
بمحذوف قيل هو حال من ظلل والأظهر أنه حال من الضمير فى الظرف المقدم ومن النار صفة لظلل
أى لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض كائنة من النار (ومن تحتهم) أيضاً (ظلل)
أى أطباق كثيرة بعضها تحت بعض ظلل لآخرين بل لهم أيضاً عند ترديهم فى دركاتها ( ذلك ) العذاب
الفظيع هو الذى (يخوف الله به عباده) ويحذرهم إياه بآيات الوعيد ليجتنبوا مايوقعهم فيه (ياعباد فاتقون)
ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى وهذه عظة من الله تعالى بالغة منطوية على غاية اللطف والمرحمة وقرىء
١٧ يا عبادى ( والذين اجتنبوا الطاغوت ) أى البالغ أقصى غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين
بنى للمبالغة فى المصدر كالرحموت والعظموت ثم وصف به للمبالغة فى النعت والمراد به هو الشيطان (أن
يعبدوها ) بدل اشتمال منه فإن عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان إذ هو الآمر بها والمزين لها ( وأنابوا
إلى الله ) وأقبلوا إليه معرضين عما سواه إقبالا كلياً ( لهم البشرى ) بالثواب على ألسنة الرسل أو الملائكة
١٨ عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك ( فبشر عباد ) ( الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه ) هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر تشريفاً لهم
بالإضافة ودلالة على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نقاداً فى الدين يميزون الحق من الباطل
ويؤثرون الأفضل فالأفضل (أولئك) إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة ومافيه
من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء خبره مابعده من
الموصول أى أولئك المنعوتون بالمحاسن الجميلة (الذين هداهم الله) للدين الحق (وأولئك هم أولو الألباب)
أى هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية لاغيرهم وفيه دلالة
١٩ على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها ( أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من
فى النار ) بيان لأحوال أضداد المذكورين على طريقة الإجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم
عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها كما يلوح به التعبير عنهم بمن حق عليه كلمة العذاب فإن المراد بها
قوله تعالى لإبليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى لمن تبعك منهم لأملأن
جهنم منكم أجمعين وأصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه على أنها شرطية دخل عليها الهمزة
لإنكار مضمونها ثم الفاء لعطفها على جملة مستتبعة لها مقدرة بعد الهمزة ليتعلق الإنكار والنفى بمضمونيهما

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ٣٩ الزمر

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ٣٩ الزمر

---

معاً أى أأنت مالك أمر الناس فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ثم كررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الإنكار وتذكيره لما طال الكلام ثم وضع موضع الضمير من فى النار لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار وأن اجتهاده ﷺ فى دعائهم إلى الإيمان سعى فى إنقاذهم من النار ويجوز أن يكون الجزاء محذوفا وقوله تعالى أفأنت الخ جملة مستقلة مسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة وتعيين ما حذف منها وتشديد الإنكار بتنزيل من استحق العذاب منزلة من دخل النار وتصوير الاجتهاد فى دعائه إلى الإيمان بصورة الإنقاذ من النار كأنه قيل أولا أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه منه ثم شدد النكير فقيل أفأنت تنقذ من فى النار وفيه تلويح بأنه تعالى هو الذى يقدر على الإنقاذ لا غيره وحيث كان المراد بمن فى النار الذين قيل فى حقهم لهم من فوقهم ظلل من
٢٠ النار ومن تحتهم ظلل استدرك منهم بقوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف) وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى ياعباد فاتقون ووصفوا بما عدد من الصفات الفاضلة وهم المخاطبون أيضاً فيما سبق بقوله تعالى ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم الآية وبين أن لهم درجات عالية فى جنات النعيم بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم أى لهم علالى بعضها فوق بعض (مبنية) بناء المنازل المبنية المؤسسة على الأرض فى الرصانة والإحكام (تجرى من تحتها) من تحت تلك الغرف (الأنهار) من غير تفاوت بين العلو والسفل (وعد الله) مصدر مؤكد لقوله تعالى لهم غرف الخ فإنه وعد وأى وعد
٢١ (لا يخلف الله الميعاد) لاستحالته عليه سبحانه (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) استئناف وارد إما لتمثيل الحياة الدنيا فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من أحوال الزرع ترغيباً عن زخارفها وزينتها وتحذيراً من الاغترار بزهرتها كما فى نظائر قوله تعالى إنما مثل الحياة الدنيا الآية أو للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى وأحكام حكمته ورحمته والمراد بالماء المطر وقيل كل ماء فى الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع (فسلكه) فأدخله ونظمه (ينابيع فى الأرض) أى عيوناً ﴿ ومجارى كالعروق فى الأجساد وقيل مياهاً نابعة فيها فإن الينبوع يطلق على المنبع والنابع فنصبها على الحال وعلى الأول بنزع الجار أى فى ينابيع (ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) أصنافه من بر وشعير وغيرهما أو ﴿ كيفياته من الألوان والطعوم وغيرهما وكلمة ثم للتراخى فى الرتبة أو الزمان وصيغة المضارع لاستحضار

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٣٩ الزمر

الصورة (ثم يهيج) أى يتم جفافه ويشرف على أن يثور من منابته (فتراه مصفراً) من بعد خضرته ونضرته وقرىء مصفاراً (ثم يجعله حطاما) فتاتاً متكسرة كأن لم يغن بالأمس ولكون هذه الحالة من الآثار القوية علقت بجعل الله تعالى كالإخراج (إن فى ذلك) إشارة إلى ماذكر تفصيلا وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الغرابة والدلالة على ماقصد بيانه (لذكرى) لتذكيراً عظيما (لأولى الألباب) لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتنبيهاً لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك أن حال الحياة الدنيا فى سرعة التقضى والانصرام كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام فلا يغترون ببهجتها ولا يفتتنون بفتنتها أو يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء وإجرائه فى ينابيع الأرض قادر على إجراء الأنهار من تحت الغرف هذا وأما ما قيل إن فى ذلك لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لابد من صانع حكيم وأنه كائن عن تقدير وتدبير لاعن تعطيل وإهمال فبمعزل من تفسير الآية الكريمة وإنما يليق ذلك بما لو ذكر ماذكر من الآثار الجليلة والأفعال الجميلة من غير إسناد لها إلى مؤثر ما لحيث ذكرت مسندة إلى الله عز وجل تعين أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شئونه تعالى أوشئون آثاره حسبما بين لاوجوده تعالى وقوله

٢٢ تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولى الألباب وشرح الصدر للإسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له فإنه محل للقلب الذى هو منبع للروح التى تتعلق بها النفس القابلة للإسلام فانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنوره فإنه روى أنه ﷺ قال إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل فما علامة ذلك قال ﷺ الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله والكلام فى الهمزة والفاء كالذى مر فى قوله تعالى أفمن حق عليه كلمة العذاب وخبر من محذوف لدلالة مابعده عليه والتقدير أكل الناس سواء فمن شرح الله صدره أى خلقه متسع الصدر مستعداً للإسلام فبقى على الفطرة الأصلية ولم يتغير بالعوارض المكتسبة القادحة فيها (فهو) بموجب ذلك مستقر (على نور) عظيم (من ربه) وهو اللطف الإلهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق كمن قسا قلبه وحرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات الغى والضلالة فأعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لايتذكر بها ولا يغتنمها (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أى من أجل ذكره الذى حقه أن تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب أى إذا ذكر الله تعالى عندهم أو آياته اشمأزوا من أجله وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى فزادتهم رجساً وقرىء عن ذكر الله أى عن قبوله (أولئك) البعداء الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب (فى ضلال) بعد عن الحق (مبين) ظاهر كونه ضلالا لكل أحد قيل نزلت الآية فى حمزة وعلى رضى الله عنهما وأبى لهب وولده وقيل فى عمار بن

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ
تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ
مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ٣٩ الزمر

٢٣ ياسر رضى الله عنه وأبى جهل وذويه (الله نزل أحسن الحديث) هو القرآن الكريم روى أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا له ﷺ حدثنا حديثاً وعن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم قالوا لو حدثتنا فنزلت والمعنى أن فيه مندوحة عن سائر الأحاديث وفى إيقاع الاسم الجليل مبتدأ وبناء نزل عليه من تفخيم أحسن الحديث ورفع محله والاستشهاد على حسنه وتأكيد استناده إليه تعالى وأنه من عنده لا يمكن صدوره عن غيره والتنبيه على أنه وحى معجز مالا يخفى * (كتاباً) بدل من أحسن الحديث أو حال منه سواء اكتسب من المضاف إليه تعريفاً أو لا فإن مساغ مجىء الحال من النكرة المضافة اتفاقى ووقوعه حالا مع كونه اسماً لا صفة إما لا تصافه بقوله تعالى (متشابهاً) أو لكونه فى قوة مكتوباً * ومعنى كونه متشابهاً تشابه معانيه فى الصحة والإحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق فى المعاد والمعاش وتناسب ألفاظه فى الفصاحة وتجاوب نظمه فى الإعجاز (مثانى) صفة أخرى لكتاباً أو * حال أخرى منه وهو جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه وقيل لأنه يثنى فى التلاوة وقيل هو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما فى قوله تعالى فارجع البصر كرتين أى كرة بعد كرة ووقوعه صفة لكتاباً باعتبار تفاصيله كما يقال القرآن سور وآيات ويجوز أن ينتصب على التمييز من متشابهاً كما يقال رأيت رجلا حسناً شمائل أى شمائله والمعنى متشابهة مثانيه (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) قيل صفة لكتاباً أو حال منه لتخصصه * بالصفة والإظهر أنه استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة فى سامعيه بعد بيان أوصافه فى نفسه ولتقرير كونه أحسن الحديث والاقشعرار التقبض يقال اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً وتركيبه من القشع وهو الأديم اليابس قد ضم إليه الراء ليكون رباعياً ودالا على معنى زائد يقال اقشعر جلده وقف شعره إذا عرض له خوف شديد من منكر هائل دهمه بغتة والمراد إما بيان إفراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير أو بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى ساكنة مطمئنة إلى * ذكر رحمته تعالى وإنما لم يصرح بها إيذاناً بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى (ذلك) أى الكتاب الذى شرح أحواله (هدى الله يهدى به من يشاء) أن يهديه بصرف مقدوره إلى الاهتداء بتأمله فيما فى تضاعيفه من شواهد الحقية ودلائل كونه من عند الله تعالى (ومن يضلل الله) أى يخلق فيه الضلالة * بصرف قدرته إلى مباديها وإعراضه عما يرشده إلى الحق بالكلية وعدم تأثره بوعيده ووعده أصلا أو

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ٣٩ الزمر

كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ ٣٩ الزمر

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ٣٩ الزمر

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ٣٩ الزمر

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ٣٩ الزمر

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ٣٩ الزمر

---

* ومن يخذل (فماله من هاد) يخلصه من ورطة الضلال وقيل ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه
تعالى يهدى بذلك الأثر من يشاء من عباده ومن يضلل أى ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه وإصراره
على فجوره فماله من هاد من مؤثر فيه بشىء قط (أفمن يتقى بوجهه) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ٢٤
من تباين حالى المهتدى والضال والكلام فى الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذى مر فى نظيريه والتقدير
* أكل الناس سواء فمن شأنه أنه يقى نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه (سوء العذاب) أى العذاب
السىء الشديد (يوم القيامة) لكون يده التى بها كان يتقى المكاره والمخاوف مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن
* لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه وقيل نزلت فى أبى جهل (وقيل للظالمين) عطف
على يتقى أى ويقال لهم من جهة خزنة النار وصيغة الماضى الدلالة على التحقق والتقرر وقيل هو حال من
ضمير يتقى بإضمار قد ووضع المظهر فى مقام المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلة الأمر فى قوله
تعالى (ذوقوا ما كنتم تكسبون) أى وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصى
(كذب الذين من قبلهم) استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ٢٥
ما يصيب الكل من العذاب الأخروى أى كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة (فأتاهم العذاب) المقدر
لكل أمة منهم (من حيث لا يشعرون) من الجهة التى لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها
(فأذاقهم الله الخزى) أى الذل والصغار (فى الحياة الدنيا) كالمسخ والخسف والقتل والسبى والإجلاء ٢٦
ونحو ذلك من فنون النكال (ولعذاب الآخرة) المعد لهم (أكبر) لشدته وسرمديته (لو كانوا يعلمون)
أى لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئاً لعلموا ذلك واعتبروا به (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل ٢٧
مثل) يحتاج إليه الناظر فى أمور دينه (لعلهم يتذكرون) كى يتذكروا به ويتعظوا (قرآناً عربياً) حال ٢٨
مؤكدة من هذا على أن مدار التأكيد هو الوصف كقولك جاءنى زيد رجلا صالحاً أو مدح له (غير ذى
عوج) لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه فهو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعانى وقيل المراد بالعوج الشك
(لعلهم يتقون) علة أخرى مترتبة على الأولى (ضرب الله مثلا رجلا فيه إيراد شركاء متشاكسون) ٢٩

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ٣٩ الزمر

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ٣٩ الزمر

لمثل من الأمثال القرآنية بعد بيان أن الحكمة فى ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها كما مر فى سورة يس ومثلا مفعول ثان لضرب ورجلا مفعوله الأول أخر عن الثانى للتشويق إليه وليتصل به ماهو من تتمته التى هى العمدة فى التمثيل وفيه ليس بصلة لشركاء كما قيل بل هو خبر له وبيان أنه فى الأصل كذلك مما لا حاجة إليه والجملة فى حيز النصب على أنه وصف لرجلا أو الوصف هو الجار والمجرور وشركاء مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف فالمعنى جعل الله تعالى مثلا للمشرك حسبما يقود إليه مذهبه من ادعاء كل معبود يه عبوديته عبداً يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهماتهم المتباينة فى تحيره وتوزع قلبه (ورجلا) أى وجعل للموحد مثلا رجلا (سلماً) أى خالصاً (لرجل) فرد ليس لغيره عليه سبيل أصلا وقرىء سلماً بفتح السين وكسرها مع سكون اللام والكل مصادر من سلم له كذا أى خلص نعت بها مبالغة أو حذف منها ذو وقرىء سالماً وسالم أى وهناك رجل سالم وتخصيص الرجل لأنه أفطن لما يجرى عليه من الضر والنفع (هل يستويان مثلا) إنكار واستبعاد لاستوائهما ونفى له على أبلغ وجه وآكده وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم فى الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما فى أعلى عليين والآخر فى أسفل سافلين وهو السر فى إبهام الفاضل والمفضول وانتصاب مثلا على التمييز أى هل يستوى حالاهما وصفتاهما والاقتصار فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرىء مثلين كقوله تعالى أكثر أموالا وأولاداً للإشعار باختلاف النوع أو لأن المراد هل يستويان فى الوصفين على أن الضمير للمثلين لأن التقدير مثل رجل فيه الخ ومثل رجل الخ وقوله تعالى (الحمد لله) تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه الموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداموا على حمده وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عز وجل مستوجب لحمده وعبادته وقوله تعالى (بل أكثرهم لا يعلمون) إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيبقون فى ورطة الشرك والضلال
٣٠ وقوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة وقرىء مائت وما ئتون
٣١ وقيل كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته أى إنكم جميعاً بصدد الموت (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم) أى مالك أموركم (تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التى من جملتها مافى تضاعيف هذه الآيات واجتهدت فى الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجوا فى المكابرة والعناد وقيل المراد به الاختصام العام الجارى فى الدنيا بين الأنام والأول هو الأظهر الأنسب بقوله

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ٣٩ الزمر

وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ٣٩ الزمر

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ٣٩ الزمر

لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ٣٩ الزمر

٣٢ تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله) فإنه إلى آخره مسوق لبيان حال كل من طرفى الاختصام الجارى فى شأن الكفر والإيمان لا غير أى أظلم من كل ظالم من افترى على الله سبحانه وتعالى بأن أضاف إليه الشريك والولد (وكذب بالصدق) أى بالأمر الذى هو عين الحق ونفس الصدق وهو ما جاء به النبى ﷺ

* (إذ جاءه) أى فى أول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) أى لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب بالصدق من أول الأمر والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى الضمائر السابقة باعتبار لفظها أو لجنس الكفرة وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا

٣٣ (والذى جاء بالصدق وصدق به) الموصول عبارة عن رسول الله ﷺ ومن تبعه كما أن المراد فى قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون هو عليه الصلاة والسلام وقومه وقيل عن الجنس المتناول الرسل والمؤمنين بهم ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به وقيل

* هو صفة لموصوف محذوف هو الفوج أو الفريق (أولئك) الموصوفون بما ذكر من المجىء بالصدق والتصديق به (هم المتقون) المنعوتون بالتقوى التى هى أجل الرغائب وقرىء وصدق به بالتخفيف أى صدق به الناس فأداه إليهم كما نزل عليه من غير تغيير وقيل وصار صادقا به أى بسببه لأن ما جاء به من القرآن

٣٤ معجزة دالة على صدقه ﷺ وقرىء صدق به على البناء للمفعول (لهم ما يشاءون عند ربهم) بيان لما لهم فى الآخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم فى الدنيا من محاسن الأعمال أى لهم كل ما يشاءون من جلب المنافع ودفع المضار فى الآخرة لا فى الجنة فقط لما أن بعض ما يشاءونه من تكفير السيئات والأمن من الفزع الأكبر وسائر أهوال القيامة إنما يقع قبل دخول الجنة (ذلك) الذى ذكر من حصول كل ما يشاءونه (جزاء المحسنين) أى الذين أحسنوا أعمالهم وقد مر تفسير الإحسان غير مرة وقوله تعالى

٣٥ (ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا) الخ متعلق بقوله تعالى لهم ما يشاءون لكن لا باعتبار منطوقه ضرورة أن التكفير المذكور لا يتصور كونه غاية لثبوت ما يشاءون لهم فى الآخرة كيف لا وهو بعض ما سيثبت لهم فيها بل باعتبار فحواه فإنه حيث لم يكن إخباراً بما ثبت لهم فيما مضى بل بما سيثبت لهم فيما سيأتى كان فى معنى الوعد به كما مر فى قوله تعالى وعد الله فإنه مصدر مؤكد لما قبله من قوله تعالى لهم غرف من فوقها غرف فإنه فى معنى وعدهم الله غرفا فانتصب به وعد الله كأنه قيل

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ٣٩ الزمر

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ٣٩ الزمر

وعدهم الله جميع مايشاءونه من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذى
عملوا دفعاً لمضارهم (ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) إعطاء لمنافعهم وإظهار الاسم الجليل *
فى موقع الإضمار لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام وإضافة الأسوأ والأحسن إلى ما بعدهما ليست
من قبيل إضافة المفضل إلى المفضل عليه بل من إضافة الشيء إلى بعضه للقصد إلى التحقيق والتوضيح من
غير اعتبار تفضيله عليه وإنما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة لا على المضاف إليه المعين بخصوصه كما فى
قولهم الناقص والأشج أعدلا بنى مروان خلا أن الزيادة المعتبرة فيهما ليست بطريق الحقيقة بل هى فى
الأول بالنظر إلى مايليق بحالهم من استعظام سيئاتهم وإن قلت واستصغار حسناتهم وإن جلت والثانى
بالنظر إلى لطف أكرم الأكرمين من استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها بالمثوبات الكثيرة وحمل الزيادة
على الحقيقة وإن أمكن فى الأول بناء على أن تخصيص الأسوأ بالذكر لبيان تكفير مادونه بطريق
الأولوية ضرورة استلزام تكفير الأسوأ لتكفير السيء لكن لما لم يكن ذلك فى الأحسن كان الأحسن
نظمهما فى سلك واحد من الاعتبار والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى صلة الموصول الثانى دون الأول
للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيئة (أليس الله بكاف عبده) إنكار ونفى لعدم كفايته ٣٦
تعالى على أبلغ وجه وآكده كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لايقدر أحد على أن يتفوه بعدمها أو
يتلعثم فى الجواب بوجودها والمراد بالعبد إما رسول الله ﷺ أو الجنس المنتظم له عليه السلام انتظاماً أولياً
ويؤيده قراءة من قرأ عباده وفسر بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا قراءة من قرأ بكافى عباده على
الإضافة ويكافىء عباده صيغة المغالبة إما من الكفاية لإفادة المبالغة فيها وإما من المكافأة بمعنى المجازاة
وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ويصيبك مضرتها لعيبك إياها
وفى رواية قالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون كما قال قوم هود إن نقول إلا
اعتراك بعض آلهتنا بسوء وذلك قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) أى الأوثان التى اتخذوها آلهة *
من دونه تعالى والجملة استئناف وقيل حال (ومن يضلل الله) حتى غفل عن كفايته تعالى وعصمته له ﷺ
وخوفه بما لاينفع ولا يضر أصلا (فما له من هاد) يهديه إلى خير ما (ومن يهد الله فما له من مضل) ٣٧
يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه إذ لا راد لفعله ولا معارض لإرادته كما ينطق به
قوله تعالى (أليس الله بعزيز) غالب لايغالب منيع لايمانع ولا ينازع (ذى انتقام) ينتقم من أعدائه *
لأوليائه وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ
أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ٣٩ الزمر
قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ٣٩ الزمر
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٣٩ الزمر
إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٣٩ الزمر
اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ
الْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ٣٩ الزمر

---

٣٨ (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لوضوح الدليل وسنوح السبيل (قل) تبكيتاً
لهم (أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره) أي بعد ماتحققتم أن خالق
العالم العلوي والسفلي هو الله عز وجل فأخبروني أن آلهتكم إن أرادني الله بضر هل يكشفن عني ذلك
الضر (أو أرادني برحمة) أي أو أرادني بنفع (هل هن ممسكات رحمته) فيمنعنها عني وقرىء كاشفات
ضره وممسكات رحمته بالتنوين فيهما ونصب ضره ورحمته وتعليق إرادة الضر والرحمة بنفسه عليه
الصلاة والسلام للرد في نحورهم حيث كانوا خوفوه معرة الأوثان ولما فيه من الإيذان بإمحاض النصيحة
(قل حسبي الله) أي في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشر روي أنه ﷺ لما سألهم سكتوا فنزل
٣٩ ذلك (عليه يتوكل المتوكلون) لا على غيره أصلا لعلمهم بأن كل ماسواه تحت ملكوته تعالى (قل ياقوم
اعملوا على مكانتكم) على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكنتم فيها فإن المكانة تستعار من العين
للمعنى كما تستعار هنا وحيث الزمان مع كونهما المكان وقرىء على مكاناتكم (إني عامل) أي على
مكانتي فحذف للاختصار والمبالغة في الوعيد والإشعار بأن حاله لاتزال تزداد قوة بنصر الله عز وجل
٤٠ وتأييده ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم في الدارين بقوله تعالى (فسوف تعلمون) (من يأتيه
عذاب يخزيه) فإن خزي أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام وقد عذبهم الله تعالى وأخزاهم يوم
٤١ بدر (ويحل عليهم عذاب مقيم) أي دائم هو عذاب النار (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس) لأجلهم
فإنه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد (بالحق) حال من فاعل أنزلنا أو من مفعوله (فمن اهتدى) بأن
عمل بما فيه (فلنفسه) أي إنما نفع به نفسه (ومن ضل) بأن لم يعمل بموجبه (فإنما يضل عليها) لما
أن وبال ضلاله مقصور عليها (وما أنت عليهم بوكيل) لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك إلا البلاغ
٤٢ وقد بلغت أي بلاغ (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) أي يقبضها من الأبدان

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ٣٩ الزمر

قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ٣٩ الزمر

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ٣٩ الزمر

---

بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها إما ظاهراً وباطناً كما عند الموت أو ظاهراً فقط كما عند النوم (فيمسك التي قضى عليها الموت) ولا يردها إلى البدن وقرىء قضى على البناء للمفعول ورفع الموت (ويرسل الأخرى) أي النائمة إلى بدنها عند التيقظ (إلى أجل مسمى) هو الوقت المضروب لموته وهو غاية لجنس الإرسال الواقع بعد الإمساك لا لفرد منه فإن ذلك مما لا امتداد فيه ولا كمية وما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما إن في ابن آدم نفساً وروحا بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هي التي بها العقل والتميز والروح هي التي بها النفس والتحرك فتتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم قريب مما ذكر (إن في ذلك) أي فيما ذكر من التوفي على الوجهين والإمساك في أحدهما والإرسال في الآخر (لآيات) عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته (لقوم يتفكرون) في كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها تارة بالكلية كما عند الموت وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها وما يعتريها من السعادة والشقاوة وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وإرسالها حيناً بعد حين إلى انقضاء آجالها
٤٣ (أم اتخذوا) أي بل اتخذ قريش (من دون الله) من دون إذنه تعالى (شفعاء) تشفع لهم عنده تعالى (قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون) الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه أي قل أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئاً من الأشياء ولا يعقلونه فضلا عن أن يملكوا الشفاعة عند الله تعالى أو هي لإنكار الوقوع ونفيه على أن المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الشفعاء في شيء لأنه فرع كون الأوثان شفعاء وذلك أظهر المحالات فالمقدر حينئذ غير ما قدر أولا وعلى أي تقدير كان فالواو للعطف على شرطية قد حذفت لدلالة المذكورة عليها أي أيشفعون لو كانوا يملكون شيئاً ولو كانوا لا يملكون الخ وجواب لو محذوف لدلالة المذكور عليه وقد مر تحقيقه مراراً (قل) بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذكر تحقيقاً
٤٤ للحق (لله الشفاعة جميعاً) أي هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع له مرتضى والشفيع مأذوناً له وكلاهما مفقود ههنا وقوله تعالى (له ملك السموات والأرض) تقرير له وتأكيد أي له ملكهما وما فيهما من المخلوقات لا يملك أحد أن يتكلم في أمر من أموره بدون إذنه ورضاه (ثم إليه ترجعون) يوم القيامة لا إلى أحد سواه لا استقلالا ولا اشتراكا فيفعل يومئذ ما يريد (وإذا ذكر الله وحده) دون آلهتهم
٤٥ (اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي انقبضت ونفرت كما في قوله تعالى وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً (وإذا ذكر الذين من دونه) فرادى أو مع ذكر الله تعالى (إذا هم يستبشرون) لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بولغ في بيان حاليهم القبيحتين حيث

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ٣٩ الزمر

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ٣٩ الزمر

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ٣٩ الزمر

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ٣٩ الزمر

---

بين الغاية فيهما فإن الاستبشار هو أن يمتلىء القلب سروراً حتى ينبسط له بشرة الوجه والاشمئزاز أن
يمتلىء غيظاً وغماً ينقبض منه أديم الوجه والعامل فى إذا الأولى اشمأزت وفى الثانية ماهو العامل فى إذا
٤٦ المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجأوا وقت الاستبشار (قل اللهم فاطر السموات والأرض
عالم الغيب والشهادة) أى التجىء إليه تعالى بالدعاء لما تحيرت فى أمر الدعوة وضجرت من شدة شكيمتهم
* فى المكابرة والعناد فإنه القادر على الأشياء بجملتها والعالم بالأحوال برمتها (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا
فيه يختلفون) أى حكماً يسلمه كل مكابر معاند ويخضع له كل عات مارد وهو العذاب الدنيوى أو الأخروى
٤٧ وقوله تعالى (ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعاً) الخ كلام مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم
الذى استدعاه النبى ﷺ وغاية شدته وفظاعتـه أى لو أن لهم جميع مافى الدنيا من الأموال والذخائر
(ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) أى لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب
* الشديد وهيهات ولات حين مناص وهذا كما ترى وعيد شديد وإقناط كلى لهم من الخلاص (وبدا لهم
من الله مالم يكونوا يحتسبون) أى ظهر لهم من فنون العقوبات مالم يكن فى حسابهم وهـذه غاية من
٤٨ الوعيد لا غاية وراءها ونظيره فى الوعد قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين (وبدا لهم
سيئات ما كسبوا) سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون)
٤٩ أى أحاط بهم جزاؤه (فإذا مس الإنسان ضر دعانا) إخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفراده والفاء
لترتيب مابعـدها من المناقضة والتعكيس على مامر من حالتيهم القبيحتين ومابينهما اعتراض مؤكد
للإنكار عليهم أى إنهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مسهم ضر
* دعوا من اشمأزوا عن ذكره دون من استبشروا بذكره (ثم إذا خولناه نعمة منا) أعطيناه إياها تفضلا
فإن التخويل مختص به لا يطلق على ما أعطى جزاء (قال إنما أوتيته على علم) أى على علم منى بوجوه كسبه
أو أنى سأعطاه لما لى من الاستحقاق أو على علم من الله تعالى بى وباستحقاقى والهاء لما إن جعلت
موصولة وإلا فلنعمة والتذكير لما أن المراد شىء من النعمة (بل هى فتنة) أى محنة وابتلاء له أيشكر

قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ٣٩ الزمر
فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ٣٩ الزمر
أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ٣٩ الزمر
قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ٣٩ الزمر

---

أم يكفر وهو رد لما قاله وتغيير السبك للمبالغة فيه والإيذان بأن ذلك ليس من باب الإيتاء المنبىء عن
الكرامة وإنما هو أمر مباين له بالكلية وتأنيث الضمير باعتبار لفظ النعمة أو باعتبار الخبر وقرىء
بالتذكير (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الأمر كذلك وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان هو الجنس
٥٠ (قد قالها الذين من قبلهم) الهاء لقوله إنما أوتيته على علم لأنها كلمة أو جملة وقرىء بالتذكير والموصول
عبارة عن قارون وقومه حيث قال إنما أوتيته على علم عندى وهم راضون به (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون)
٥١ من متاع الدنيا ويجمعون منه (فأصابهم سيئات ما كسبوا) جزاء سيئات أعمالهم أو أجزية ما كسبوا
وتسميتها سيئات لأنها فى مقابلة سيئاتهم وجزاء سيئة سيئة مثلها (والذين ظلموا من هؤلاء) المشركين
ومن للبيان أو للتبعيض أى أفرطوا فى الظلم والعتو (سيصيبهم سيئات ما كسبوا) من الكفر والمعاصى
كما أصاب أولئك والسين للتأكيد وقد أصابهم أى إصابة حيث قحطوا سبع سنين وقتل صناديدهم يوم
٥٢ بدر (وما هم بمعجزين) أى فائتين (أو لم يعلموا) أى أقالوا ذلك ولم يعلموا أو أغفلوا ولم يعلموا (أن الله
يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (ويقدر) لمن يشاء أن يقدره له من غير أن يكون لأحد مدخل ما فى
ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعاً ثم بسطه لهم سبعاً (إن فى ذلك) الذى ذكر (لآيات) دالة على أن
٥٣ الحوادث كافة من الله عز وجل (لقوم يؤمنون) إذ هم المستدلون بها على مدلولاتها (قل يا عبادى الذين
أسرفوا على أنفسهم) أى أفرطوا فى الجناية عليها بالإسراف فى المعاصى وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين
٭ على ما هو عرف القرآن الكريم (لا تقنطوا من رحمة الله) أى لا تيأسوا من مغفرته أولا ولا تفضله
ثانياً (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) عفوا لمن يشاء ولو بعد حين بتعذيب فى الجملة وبغيره حسبما يشاء
وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن
٭ يشاء ظاهر فى الإطلاق فيما عدا الشرك ومما يدل عليه التعليل بقوله تعالى (إنه هو الغفور الرحيم) على
المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعى عموم المغفرة مما فى عبادى من
الدلالة على الذلة والاختصاص المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهى عن القنوط
مطلقاً عن الرحمة فضلا عن المغفرة وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب ووضع الاسم الجليل موضع

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ٣٩ الزمر

وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ٣٩ الزمر

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ٣٩ الزمر

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ٣٩ الزمر

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ٣٩ الزمر

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ٣٩ الزمر

---

الضمير لدلالته على أنه المستغنى والمنعم على الإطلاق والتأكيد بالجميع وما روى من أسباب النزول الدالة
على ورود الآية فيمن تاب لا يقتضى اختصاص الحكم بهم ووجوب حمل المطلق على المقيد فى كلام واحد
مثل أكرم الفضلاء أكرم الكاملين غير مسلم فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد ولا يخل بذلك الأمر
٥٤ بالتوبة والإخلاص فى قوله تعالى (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون)
إذ ليس المدعى أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغنى عن
٥٥ الأمر بهما وتنافى الوعيد بالعذاب (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) أى القرآن أو المأمور به
دون المنهى عنه أو العزائم دون الرخص أو الناسخ دون المنسوخ ولعله ما هو أنجى وأسلم كالإنابة
والمواظبة على الطاعة (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا
٥٦ له (أن تقول نفس) أى كراهة أن تقول والتنكير للتكثير كما فى قوله تعالى علمت نفس ما أحضرت
فإنه مسلك ربما يسلك عند إرادة التكثير والتعميم وقد مر تحقيقه فى مطالع سورة الحجر (ياحسرتا)
بالألف بدلا من ياء الإضافة وقرىء ياحسرتاه بهاء السكت وقفاً وقرىء ياحسرتاى بالجمع بين العوضين
وقرىء ياحسرتى على الأصل أى احضرى فهذا أوان حضورك (على ما فرطت) أى على تفريطى
وتقصيرى (فى جنب الله) أى جانبه وفى حقه وطاعته وعليه قول من قال [أما تتقين الله فى جنب
وامق ء له كبد حرى وعين ترقرق] وهو كناية فيها مبالغة وقيل فى ذات الله على تقدير مضاف كالطاعة
وقيل فى قربه من قوله تعالى والصاحب بالجنب وقرىء فى ذكر الله (وإن كنت لمن الساخرين) أى
٥٧ المستهزئين بدين الله تعالى وأهله ومحل الجملة النصب على الحال أى فرطت وأنا ساخر (أو تقول لو أن
٥٨ الله هدانى) بالإرشاد إلى الحق (لكنت من المتقين) الشرك والمعاصى (أو تقول حين ترى العذاب
لو أن لى كرة) رجعة إلى الدنيا (فأكون من المحسنين) فى العقيدة والعمل وأو للدلالة على أنها لا تخلو
٥٩ عن هذه الأقوال تحسراً وتحيراً وتعللا بما لا طائل تحته وقوله تعالى (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها
واستكبرت وكنت من الكافرين) رد من الله تعالى عليه لما تضمنه قوله لو أن الله هدانى من معنى النفى

وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ٣٩ الزمر

وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٣٩ الزمر

ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ٣٩ الزمر

لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ٣٩ الزمر

---

وفضله عنه لما أن تقديمه يفرق القرائن وتأخير المردود يخل بالترتيب الوجودى لأنه يتحسر بالتفريط
ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة وهو لا يمنع تأثير قدرة الله تعالى فى فعل العبد ولا مافيه من إسناد
٦٠ الفعل إليه كما عرفت وتذكير الخطاب باعتبار المعنى وقرىء بالتأنيث (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا
على الله) بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه كاتخاذ الولد (وجوههم مسودة) بما ينالهم من الشدة أو بما يتخيل
عليها من ظلمة الجهل والجملة حال قد اكتفى فيها بالضمير عن الواو على أن الرؤية بصرية أو مفعول ثان
لها على أنها عرفانية (أليس فى جهنم مثوى) أى مقام (للمتكبرين) عن الإيمان والطاعة وهو تقرير لما
٦١ قبله من رؤيتهم كذلك (وينجى الله الذين اتقوا) الشرك والمعاصى أى من جهنم وقرىء ينجى من الإنجاء
(بمفازتهم) مصدر ميمى إما من فاز بالمطلوب أى ظفر به والباء متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول
مفيدة لمقارنة تنجيتهم من العذاب لنيل الثواب أى ينجيهم الله تعالى من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم
بمطلوبهم الذى هو الجنة وقوله تعالى (لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) إما حال أخرى من الموصول أو
من ضمير مفازتهم مفيدة لكون نجاتهم أو فوزهم بالجنة غير مسبوقة بمساس العذاب والحزن وإما من
فاز منه أى نجا منه والباء للملابسة وقوله تعالى لا يمسهم إلى آخره تفسير وبيان لمفازتهم أى ينجيهم الله
تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصة بهم أى بنفى السوء والحزن عنهم أو للسببية إما على حذف المضاف أى
ينجيهم بسبب مفازتهم التى هى تقواهم كما يشعر به إيراده فى حيز الصلة وإما على إطلاق المفازة على سببها
٦٢ الذى هو التقوى وليس المراد نفى دوام المساس والحزن بل دوام نفيهما كما مر مراراً (الله خالق كل شىء)
من خير وشر وإيمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لأسبابها (وهو على كل شىء وكيل) يتولى
٦٣ التصرف فيه كيفما يشاء (له مقاليد السموات والأرض) لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره
وهو عبارة عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لأن الخزائن
لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها وهو جمع مقليد أو مقلاد من قلدته إذا ألزمته وقيل
جمع أقليد معرب كليد على الشذوذ كالمذاكير وعن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبى ﷺ عن المقاليد
فقال ﷺ تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا
بالله العلى العظيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير والمعنى
على هذا أن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهى مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها أصابه
(والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) متصل بما قبله والمعنى أن الله تعالى خالق لجميع الأشياء

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ٣٩ الزمر

وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ٣٩ الزمر

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ٣٩ الزمر

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ٣٩ الزمر

---

ومتصرف فيها كيفما يشاء بالإحياء والإماتة بيده مقاليد العالم العلوى والسفلى والذين كفروا بآياته التكوينية المنصوبة فى الآفاق والأنفس والتنزيلية التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بذلك هم الخاسرون
٦٤ خسراناً لا خسار وراءه هذا وقيل هو متصل بقوله تعالى وينجى الله وما بينهما اعتراض فتدبر ( قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ) أى أبعد مشاهدة هذه الآيات غير الله أعبد وتأمرونى اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا استلم بعض آلهتنا نؤمن بإلهك لفرط غباوتهم ويجوز أن ينتصب غير بما يدل عليه تأمرونى أعبد لأنه بمعنى تعبدوننى وتقولون لى اعبد على أن أصله تأمروننى أن أعبد فحذف أن ورفع ما بعدها كما فى قوله [ ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى ٭ وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ] ويؤيده قراءة أعبد بالنصب وقرىء تأمروننى بإظهار النونين على الأصل وبحذف الثانية
٦٥ ( ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك ) أى من الرسل عليهم السلام ( لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ) كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره فكيف بمن عداه وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم عند الإشراك لأن الإشراك منهم أشد وأقبح وأن يكون مقيداً بالموت كما صرح به فى قوله تعالى ٭ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم وعطف الخسران عليه من
٦٦ عطف المسبب على السبب ( بل الله فاعبد ) رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على القصر لم يكن كذلك
٦٧ ( وكن من الشاكرين ) إنعامه عليك وفيه إشارة إلى ما يوجب الاختصاص ويقتضيه ( وما قدروا الله حق قدره ) ماقدروا عظمته تعالى فى أنفسهم حق عظمته حيث جعلوا له شريكا ووصفوه بما لا يليق
٭ بشئونه الجليلة وقرىء بالتشديد ( والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ) تنبيه على غاية عظمته وكمال قدرته وحقارة الأفعال العظام التى تتحير فيها الأوهام بالنسبة إلى قدرته تعالى ودلالة على أن تخريب العالم أهون شىء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازاً كقولهم شابت لمة الليل والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهى المقدار

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ
فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ٣٩ الزمر

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟یٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ٣٩ الزمر

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ٣٩ الزمر

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ
كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ٣٩ الزمر

المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة وقرىء بالنصب على الظرف تشبيهاً للموقت
بالمبهم وتأكيد الأرض بالجميع لأن المراد بها الأرضون السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة وقرىء
مطويات على أنها حال والسموات معطوفة على الأرض منظومة فى حكمها (سبحانه وتعالى عما يشركون)
ما أبعد وما أعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم أو عما يشركونه من الشركاء. (ونفخ فى الصور) ٦٨
هى النفخة الأولى (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) أى خروا أمواتاً أو مغشياً عليهم (إلا من
شاء الله) قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل فإنهم لا يموتون بعد وقيل حملة العرش (ثم نفخ فيه أخرى)
نفخة أخرى هى النفخة الثانية وأخرى يحتمل النصب والرفع (فإذا هم قيام) قائمون من قبورهم أو متوقفون
وقرىء بالنصب على أن الخبر (ينظرون) وهو حال من ضميره والمعنى يقلبون أبصارهم فى الجوانب
كالمبهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم (وأشرقت الأرض بنور ربها) بما أقام فيها من العدل استعير له النور ٦٩
لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما يسمى الظلم ظلمة وفى الحديث الظلم ظلمات يوم القيامة ولذلك أضيف
الاسم الجليل إلى ضمير الأرض أو بنور خلقه فيها بلا توسط أجسام مضيئة ولذلك أضيف إلى الاسم
الجليل (ووضع الكتاب) الحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه أو صحائف
الأعمال فى أيدى العمال واكتفى باسم الجنس عن الجمع وقيل اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف (وجىء
بالنبيين والشهداء) للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين وقيل المستشهدون (وقضى بينهم) بين العباد
(بالحق وهم لا يظلمون) بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد (ووفيت كل نفس ما عملت) ٧٠
أى جزاءه (وهو أعلم بما يفعلون) فلا يفوته شىء من أفعالهم وقوله تعالى (وسيق الذين كفروا إلى جهنم ٧١
زمراً) الخ تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها أى سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجاً متفرقة بعضها فى إثر
بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم فى الضلالة والشرارة والزمر جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو

قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ٣٩ الزمر

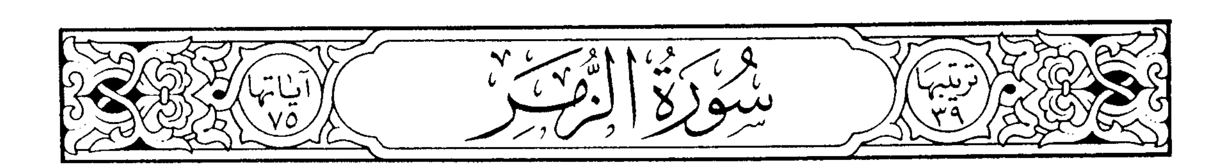
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ٣٩ الزمر

وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ٣٩ الزمر

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ٣٩ الزمر

---

• الصوت إذ الجماعة لاتخلو عنه ( حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ) ليدخلوها وحتى هى التى تحكى بعدها
الجملة وقرىء بالتشديد ( وقال لهم خزنتها ) تقريعاً وتوبيخاً ( ألم يأتكم رسل منكم ) من جنسكم وقرىء
• نذر منكم ( يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ) أى وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار
وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب
• ( قالوا بلى ) قد أتونا وأنذرونا ( ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ) حيث قال الله تعالى لإبليس
لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقد كنا ممن اتبعه وكذبنا الرسل وقلنا مانزل الله من شىء إن
٧٢ أنتم إلا تكذبون ( قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ) أى مقدراً خلودكم فيها وإبهام القائل لتهويل
المقول ( فبئس مثوى المتكبرين ) اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفاً أى فبئس
مثواهم جهنم ولا يقدح مافيه من الإشعار بأن كون مثواهم جهنم لتكبرهم عن الحق فى أن دخولهم النار
لسبق كلمة العذاب عليهم فإنها إنما حقت عليهم بناء على تكبرهم وكفرهم وقد مر تحقيقه فى سورة الم
٧٣ السجدة ( وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة ) مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة
وقيل سيق مراكبهم إذ لايذهب بهم إلا راكبين ( زمراً ) متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل
وعلو الطبقة ( حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ) وقرىء بالتشديد وجواب إذا محذوف للإيذان بأن لهم
حينئذ من فنون الكرامات مالايحدق به نطاق العبارات كأنه قيل حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها
( وقال لهم خزنتها سلام عليكم ) من جميع المكاره والآلام ( طبتم ) طهرتم من دنس المعاصى أو طبتم نفساً بما
٧٤ أتيح لكم من النعيم ( فادخلوها خالدين ) كان ما كان مما يقصر عنه البيان ( وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده )
بالبعث والثواب ( وأورثنا الأرض ) يريدون المكان الذى استقروا فيه على الاستعارة وإيراثها تمليكها
مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه ( نتبوأ من الجنة حيث
نشاء ) أى نتبوأ كل واحد منا فى أى مكان أراده من جنته الواسعة على أن فيها مقامات معنوية لا يتمانع
٧٥ واردوها ( فنعم أجر العاملين ) الجنة ( وترى الملائكة حافين ) محدقين ( من حول العرش ) أى حوله




وتسمى سورة الغرف كما في الإتقان والكشاف لقوله تعالى: ﴿لهم غرف من فوقها غرف﴾ [ الزمر: ٢٠ ] أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها أنزلت بمكة ولم يستثن، وأخرج النحاس عنه أنه قال: نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [ الزمر: ٥٣ ] إلى ثلاث آيات، وزاد بعضهم ﴿قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ [ الزمر: ١٠ ] الآية ذكره السخاوي في جمال القراء وحكاه أبو حيان عن مقاتل، وزاد بعض ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ [ الزمر: ٢٣ ] حكاه ابن الجوزي، والمذكور في البحر عن ابن عباس استثناء ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ وقوله تعالى: ﴿قل يا عبادِ الذين أسرفوا﴾ الخ، وعن بعضهم إلا سبع آيات من قوله سبحانه ﴿قل يا عبادِ الذين أسرفوا﴾ إلى آخر السبع وأيها خمس وسبعون في الكوفي وثلاث في الشامي واثنتان في الباقي وتفصيل الاختلاف في مجمع البيان وغيره، ووجه اتصال أولها بأخر صاد انه قال سبحانه هناك: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ [ ص: ٨٧ ] وقال جل شأنه هنا ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾ [ الزمر: ١ ] وفي ذلك كمال الالتئام بحيث لو اسقطت البسملة لم يتنافر الكلام ثم إنه تعالى ذكر آخر ﴿ص﴾ قصة خلق آدم وذكر في صدر هذه قصة خلق زوجه منه وخلق الناس كلهم منه وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ثم ذكر أنهم ميتون ثم ذكر سبحانه القيامة والحساب والجنة والنار وختم بقوله سبحانه: ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ [ الزمر: ٧٥ ] فذكر جل شأنه أحوال الخلق من المبدأ إلى آخر المعاد متصلاً بخلق آدم عليه السلام المذكور في السورة قبلها وبين السورتين أوجه أخر من الربط تظهر بالتأمل فتأمل.

## بسم الله الرحمن الرحيم

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ
ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ
زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ
أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ

مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿**بسم الله الرَّحمَن الرَّحيم تَنْزيلُ الْكتاب**﴾ قال الفراء والزجاج: هو مبتدأ وقوله تعالى:

﴿**مِنَ الله الْعَزيز الْحَكيم**﴾ خبره أو خبر مبتدأ محذوف أي هذا المذكور تنزيل، و ﴿**من الله**﴾ متعلق بتنزيل والوجه الأول أوجه كما في الكشف، والكتاب القرآن كله وكأن الجملة عليه تعليل لكونه ذكراً للعالمين أو لقوله تعالى: ﴿لتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ ص: ٨٨ ] والظاهر أن المراد بالكتاب على الوجه الثاني السورة لكونها على شرف الذكر فهي أقرب لاعتبار الحضور الذي يقتضيه اسم الإشارة فيها، و ﴿**تنزيل**﴾ بمعنى منزل أو قصد به المبالغة، وقدر أبو حيان المبتدأ هو عائداً على الذكر في ﴿**إن هو إلا ذكر**﴾ وجعل الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل هذا الذكر ما هو فقيل هو تنزيل الكتاب والكتاب عليه القرآن وفي ﴿**تنزيل**﴾ الاحتمالان، وجوز على احتمال كونه خبر مبتدأ محذوف كون ﴿**من الله**﴾ خبراً ثانياً وكونه خبر مبتدأ محذوف أيضاً أي هذا أو هو تنزيل الكتاب هذا أو هو من الله وكونه حالاً من ﴿**الكتاب**﴾ وجاز الحال من المضاف إليه لأن المضاف مما يعمل عمل الفعل وكونه حالاً من الضمير المستتر في ﴿**تنزيل**﴾ على تقدير كونه بمعنى منزل وكونه حالاً من ﴿**تنزيل**﴾ نفسه والعامل فيه معنى الإشارة. وتعقب بأن معاني الأفعال لا تعمل إذا كان ما هي فيه محذوفاً ولذلك ردوا على المبرد قوله في بيت الفرزدق: وإذ ما مثلهم بشر أن مثلهم منصوب على الحالية وعامله الظرف المقدر أي ما في الوجود بشر مماثلاً لهم بأن الظرف عامل معنوي لا يعمل محذوفاً، وقرأ ابن أبي عبلة وزيد بن علي وعيسى «تنزيلَ» بالنصب على اضمار فعل نحو اقرأ والزم. والتعرض لوصفي العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة، وقوله تعالى: ﴿**إنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيكَ الْكتابَ بالحَقِّ**﴾ بيان لكونه نازلاً بالحق وتوطئة لما يذكر بعد. وفي إرشاد العقل السليم أنه شروع في بيان المنزل إليه وما يجب عليه أثر بيان شأن المنزل وكونه من عند الله تعالى، وأياً ما كان لا يتكرر مع ما تقدم، نعم كان الظاهر على تقدير كون المراد بالكتاب هناك القرآن الإتيان بضميره هاهنا إلا أنه أظهر قصداً إلى تعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه.

وقال ابن عطية: الذي يظهر لي أن الكتاب الأول عام لجميع ما تنزل من عند الله تعالى والكتاب الثاني خاص بالقرآن فكأنه أخبر أخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة تنزيلها من الله عزَّ وجلّ وجعله توطئة لقوله سبحانه: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب**﴾ اهـ وهو كما ترى، والباء متعلقة بالإنزال وهي للسببية أي أنزلناه بسبب الحق أي إثباته وإظهاره أو بمحذوف وقع حالاً من المفعول وهي للملابسة أي أنزلناه ملتبساً بالحق والصواب، والمراد أن كل ما فيه موجب للعمل والقبول حتماً، وجوز كون المحذوف حالاً من الفاعل أي أنزلناه ملتبسين بالحق أي محقين في ذلك، والفاء في قوله تعالى: ﴿**فَاعْبُد اللَّهَ مُخْلصاً لَهُ الدِّينَ**﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه الصلاة والسلام بالحق أي فاعبده تعالى ممحضاً له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين في تضاعيف ما أنزل إليك، والعدول إلى

الاسم الجليل مما ملاءمة هذا الأمر أتم ملاءمة. وقرأ ابن أبي عبلة «الدين» بالرفع كما رواه الثقاة فلا عبرة بإنكار الزجاج، وخرج ذلك الفراء على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم للاختصاص أو لتأكيده. واعترض بأنه يتكرر مع قوله تعالى: ﴿أَلاَ لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ وأجيب بأن الجملة الأولى استئناف وقع تعليلاً للأمر بإخلاص العبادة وهذه الجملة تأكيد لاختصاص الدين به تعالى أي ألا هو سبحانه الذي يجب أن يخص بإخلاص الدين له تعالى لأن المتفرد بصفات الألوهية التي من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر، وهي على قراءة الجمهور استئناف مقرر لما قبله من الأمر بإخلاص الدين له عزَّ وجلّ ووجوب الامتثال به، وفي الإتيان بألا واسمية الجملة وإظهار الجلالة والدين ووصفه بالخالص والتقديم المفيد للاختصاص مع اللام الموضوعة له عند بعض ما لا يخفى من الدلالة على الاعتناء بالدين الذي هو أساس كل خير، قيل ومن هنا يعلم أنه لا بأس بجعل الجملة تأكيداً للجملة قبلها على القراءة الأخيرة وإليه ذهب صاحب التقريب وقال: بتغاير دلالتي الجملتين إجمالاً وتفصيلاً. ورد بذلك زعم إباء هذه الجملة صحة تخريج الفراء.

والحق أنه تخريج لا يعول عليه، ففي الكشف لما كان قوله تعالى: ﴿لله الدين الخالص﴾ بمنزلة التعليل لقوله سبحانه: ﴿فاعبد الله مخلصاً﴾ كان الأصل أن يقال فتنة الدين الخالص ثم ترك إلى ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ مبالغة لما عرفت من أنه أقوى الوصلين ثم صدر بحرف التنبيه زيادة على زيادة وتحقيقاً بأن غير الخالص كالعدم فلو قدر الاستئناف التعليلي أولاً من دون الوصف المطلوب الذي هو الأصل في العلة ومن دون حرف التنبيه للفائدة المذكورة كان كلاماً متنافراً ويلزم زيادة التنافر من وصف الدين بالخلوص ثانياً لدلالته على العي في الأول إذ ليس فيه ما يرشد إلى هذا الوصف حتى يجعل من باب الإجمال والتفصيل؛ وأما جعله تأكيداً فلا وجه له للوصف المذكور ولأن حرف التنبيه لا يحسن موقعها حينئذ فإنها يؤتى بها في ابتداء الاستئناف المضاد لقصد التأكيد اهـ.

ونص العلامة الثاني أيضاً على أن كون الجملة الثانية تأكيداً للأولى فاسد عند من له معرفة بأساليب الكلام وصياغات المعاني ففيها ما ينبو عنه مقام التأكيد ولا يكاد يقترن به المؤكد لكن في قول صاحب الكشف: ليس في الأول ما يرشد إلى وصف الخلوص حتى يجعل من باب الإجمال والتفصيل بحثاً إذ لقائل أن يقول: إن ﴿له الدين﴾ على معنى الدين الكامل ومن المعلوم أن كمال الدين بكونه خالصاً فيكون في الأول ما يرشد إلى هذا الوصف نعم وهن ذلك التخريج على حاله قبل هذا البحث أم لم يقبل.

وقال أبو حيان: الدين مرفوع على أنه فاعل بمخلصاً الواقع حالاً والراجع لذي الحال محذوف على رأي البصريين أي الدين منك أو تكون أل عوضاً من الضمير أي دينك وعليه يكون وصف الدين بالإخلاص وهو وصف صاحبه من باب الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر، وفي الآية دلالة على شرف الإخلاص بالعبادة وكم من آية تدل على ذلك.

وأخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال: يا رسول الله إنا نعطي أموالنا التماس الأجر والذكر فهل لنا من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: لا قال: يا رسول الله إنا نعطي التماس الذكر فهل لنا أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا يقبل إلا من أخلص له» ثم تلا رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الآية ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ ويؤيد هذا أن المراد بالدين في الآية الطاعة لا كما روي عن قتادة من أنه شهادة أن لا إله إلا الله وعن الحسن من أنه الإسلام، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِه أَولِيَاءَ﴾ الخ تحقيق لحقية التوحيد ببطلان الشرك ليعلم منه حقية الإخلاص وبطلان تركه وفيه من ترغيب المخلصين وترهيب غيرهم ما لا يخفى، والموصول عبارة عن المشركين من

قريش وغيرهم كما روي عن مجاهد، وأخرج جويبر عن ابن عباس أن الآية نزلت في ثلاثة أحياء عامر وكنانة وبني سلمة كانوا يعبدون الأوثان ويقولون: الملائكة بنات الله فالموصول إما عبارة عنهم أو عبارة عما يعمهم وأضرابهم من عبدة غير الله سبحانه وهو الظاهر فيكون الأولياء عبارة عن كل معبود باطل كالملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام، ومحل الموصول رفع على الابتداء خبره الجملة الآتية المصدرة بأن، وقوله تعالى: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾ حال بتقدير القول من واو ﴿**اتخذوا**﴾ مبينة لكيفية اشراكهم وعدم خلوص دينهم أي اتخذوا قائلين ذلك، وجوز أن يكون القول المقدر قالوا ويكون[1] بدلاً من ﴿**اتخذوا**﴾ وأن يكون المقدر ذلك ويكون هو الخبر للموصول والجملة الآتية استئناف بياني كأنه قيل بعد حكاية ما ذكر: فماذا يفعل الله تعالى بهم؟ فقيل إن الله يحكم بينهم الخ، والوجه الأول هو المنساق إلى الذهن، نعم قرأ عبد الله وابن عباس ومجاهد وابن جبير قالوا: ﴿**ما نعبدهم**﴾ الآية لكن لا يتعين فيه البدلية أو الخبرية، وقد اعترض البدلية صاحب الكشف بأن المقام ليس مقام الإبدال إذ ليس فيه إعادة الحكم لكون الأول غير واف بالغرض اعتناء بشأنه لا سيما وحذف البدل ضعيف بل ينافي في الغرض من الإتيان به، والاستثناء مفرغ من أعم العلل و ﴿**زلفى**﴾ مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر أي والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره سبحانه قائلين ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تعالى تقريباً.

وقرىء «نُعْبُدُهُمْ» بضم النون اتباعاً لحركة الباء ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ**﴾ أي وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما في قوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [ البقرة: ٢٨٥ ] على أحد الوجهين أي بين أحد منهم وبين غيره، وعليه قول النابغة:

فما كان بين الخير لو جاء سالماً ... أبو حجر إلا ليال قلائل

أي بين الخير وبيني، وقيل الضمير للفريقين المتخذين والمتخذين وكذا الكلام في ضميري الجمع في قوله تعالى: ﴿**فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ والمعنى على الأول أنه تعالى يفصل الخصومة بين المشركين والمخلصين فيما اختلفوا فيه من التوحيد والإشراك وادعى كل صحة ما اتصف به بإدخال المخلصين الموحدين الجنة وإدخال المشركين النار أو يميزهم سبحانه تمييزاً يعلم منه حال ما تنازعوا فيه بذلك، والمعنى على الثاني أنه تعالى يحكم بين العابدين والمعبودين فيما يختلفون حيث يرجو العابدون شفاعتهم وهم يتبرؤون منهم ويلعنونهم قالاً أو حالاً بإدخال من له أهلية دخول الجنة من المعبودين الجنة وإدخال العابدين ومن ليس له أهلية دخول الجنة ممن عبد كالأصنام النار، وإدخال الأصنام النار ليس لتعذيبها بل لتعذيب عبدتها بها، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يضعفه.

وأجاز الزمخشري كون الموصول السابق عبارة عن المعبودين على حذف العائد إليه وإضمار المشركين من غير ذكر تعويلاً على دلالة السياق عليهم ويكون التقدير والذين اتخذهم المشركون أولياء قائلين ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله زلفى إن الله يحكم بينهم وبين عبدتهم فيما الفريقان فيه يختلفون حيث يرجو العبدة شفاعتهم وهم يلعنوهم بإدخال ما هو منهم أهل للجنة الجنة وإدخال العبدة مع أصنامهم النار. وتعقب بأنه بعد الإغضاء عما فيه من التعسفات بمعزل من السداد كيف لا وليس فما ذكر من طلب الشفاعة واللعن مادة يختلف فيها الفريقان اختلافاً محوجاً إلى الحكم والفصل فإنما ذاك ما بين فريقي الموحدين والمشركين في الدنيا من الاختلاف في الدين الباقي إلى يوم القيامة فتدبر ولا تغفل.

---

(١) قوله «بدلاً» من اتخذوا قال في البحر: كأنه بدل اشتمال اهـ مؤلف.

وقرىء «ما نعبدكم إلا لتقربونا» حكاية لما خاطبوا به آلهتهم ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي﴾ أي لا يوفق للاهتداء الذي هو طريق النجاة عن المكروه والفوز بالمطلوب ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ في حد ذاته وموجب سيء استعداده لأنه غير قابل للاهتداء والله عزَّ وجلّ لا يفيض على القوابل إلا حسب القابليات كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [ طه: ٥٠ ] وقوله تعالى: ﴿قل كلٌّ يعمل على شاكلته﴾ [ الإسراء: ٨٤ ] وقوله عزَّ وجلّ: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [ النحل: ١١٨ ] وهذا هو الذي حتم عليه جل شأنه لسيء استعداده بالموافاة على الضلال قاله بعض الأجلة، وقال الطبرسي: لا يهدي إلى الجنة أي يوم القيامة من هو كاذب كفار في الدنيا.

وقال ابن عطية: المراد لا يهدي الكاذب الكافر في حال كذبه وكفره وهذا ليس بشيء أصلاً، والمراد ممن هو كاذب كفار قيل من يعم أولئك المحدث عنهم وغيرهم، وقيل: أولئك المحدث عنهم وكذبهم في دعواهم استحقاق غير الله تعالى للعبادة أو قولهم في بعض من اتخذوهم أولياء من دون الله إنهم بنات الله سبحانه أو أن المتخذ ابن الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فمن هو كاذب من الظاهر الذي أقيم مقام المضمر على معنى أن الله تعالى لا يهديهم أي المتخذين تسجيلاً عليهم بالكذب والكفر وجعل تمهيداً والكفر وجعل تمهيد لما بعده، وقال بعضهم: الجملة تعليل للحكم.

وقرأ أنس بن مالك والجحدري والحسن والأعرج وابن يعمر «كذاب كفار» وقرأ زيد بن علي «كذوب كفور» وحملوا الكاذب هنا على الراسخ في الكذب لهاتين القراءتين وكذا حملوا الكفر على كفر النعم دون الكفر في الاعتقاد لقراءة زيد، وذكر الإمام فيه احتمالين.

﴿لَو أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق وإبطال القول بأن الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ببيان استحالة اتخاذ الولد في حقه سبحانه على الإطلاق ليندرج فيه استحالة ما قيل اندراجاً أولياً، وحاصل المعنى لو أراد الله سبحانه اتخاذ الولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع أعني الاتخاذ لكن لا يجوز للباري إرادة ممتنعة لأنها ترجح بعض الممكنات على بعض.

وأصل الكلام لو اتخذ الولد لامتنع لاستلزامه ما ينافي الألوهية فعدل إلى لو أراد الاتخاذ لامتنع أن يريده ليكون أبلغ وأبلغ ثم حذف هذا الجواب وجيء بدله لاصطفى تنبيهاً على أن الممكن هذا لا الأول وإنه لو كان هذا من اتخاذ اتخاذ الولد في شيء لجاز الولد عليه سبحانه وتعالى شأنه عن ذلك فقد تحقق التلازم وحق نفي اللازم وإثبات الملزوم دون صعوبة؛ ويجوز أن يكون المراد لو أراد الله أن يتخذ لامتنع ولم يصح لكن على إرادة نفي الصحة على كل تقدير من تقديري الإرادة وعدمها من باب ـ لو لم يخف الله لم يعصه ـ فلا ينفي الثاني إذ ذاك ولا يحتاج إلى بيان الملازمة وإذا امتنع ذلك فالممكن الاصطفاء وقد اصطفى سبحانه من مخلوقاته من شاء كالملائكة وعيسى وذهب عليكم أن الاصطفاء ليس باتخاذ، والجواب على هذا الوجه أيضاً محذوف أقيم مقامه ما يفيد زيادة مبالغة، وإنما لم يجعل لاصطفى هو الجواب عليه لصيرورة المعنى حينئذ لو أراد اتخاذ الولد لاصطفى ولو لم يرد لاصطفى من طريق الأولى وحينئذ يكون إثبات الاصطفاء هو المطلوب من الإيراد كما أن التمدح بنفي العصيان في مثال الباب هو المطلوب وليس الكلام فيه، وعلى الوجهين هو من أسلوب:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وجوز أن يكون المعنى في الآية لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولداً لجعل المخلوق ولداً إذ لا موجود سواه إلا وهو

مخلوق له تعالى والتالي محال للمباينة التامة بين المخلوق والخالق والولدية تأبى تلك المباينة فالمقدم مثله ويكون قوله تعالى: ﴿**لاصطفى مما يخلق ما يشاء**﴾ على معنى لاتخذه ابناً على سبيل الكناية وما تقدم أولى لما فيه من المبالغة التي نبهت عليها، وقوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد في حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه سبحانه عنه أي تنزهه الخاص به تعالى على أن سبحانه مصدر من سبح إذا بعد أو أسبحه تسبيحاً لائقاً به لأنه علم التسبيح مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحاً لائقاً بشأنه جل شأنه، وقوله تعالى:

﴿**هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ استئناف مقرر لتنزهه عن ذلك أيضاً فإن اتخاذ الولد يقتضي تبعضاً وانفصال شيء من شيء وكذا يقتضي المماثلة بين الولد والوالد والوحدة الذاتية الحقيقية التي هي في أعلى مراتب الوحدة الواجبة له تعالى بالبراهين القطعية العقلية تأبى التبعض والانفصال إباء ظاهراً لأنهما من خواص الكم وقد اعتبر في مفهوم الوحدة الذاتية سلبه فتأبى الاتخاذ المذكور وكذا تأبى المماثلة سواء فسرت بما ذهب إليه قدماء المعتزلة كالجبائي وابنه أبي هاشم وهي المشاركة في أخص صفات الذات كمشاركة زيد لعمرو في الناطقية أم فسرت بما ذهب إليه المحققون من الماتريدية وهي المشاركة في جميع الصفات الذاتية كمشاركته له في الحيوانية والناطقية أم فسرت بما نسب إلى الأشعري وهو التساوي بين الشيئين من كل وجه، ولعل مراده نحو ما مر عن الماتريدي وإلا فمع التساوي من كل وجه ينتفي التعدد فينتفي التماثل بناء على ما قرروا من أن الوحدة الذاتية كما تقتضي نفي الأبعاض المقدارية تقتضي نفي الكثرة العقلية وأن التماثل يقتضي التعدد وهو يقتضي ثبوت الأجزاء المذكورة كذا قيل، وفيه بحث طويل وكلام غير قليل وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الإخلاص فالأولى أن يقتصر على منافاة الوحدة الذاتية للتبعض والانفصال لاستلزامهما التركب الخارجي والحكماء والمتكلمون مجمعون على استحالته في حقه تعالى ودليلها أظهر من أن يذكر، وكذا وصف القهارية يأبى اتخاذ الولد وقرر ذلك على أوجه، فقيل وجه إبائها ذلك أن القهارية تقتضي الغنى الذاتي الذي هو أعلى مراتب الغنى وهو يقتضي التجرد عن المادة وتولد الولد عن الشيء يقتضيها، وقيل إن القهارية تقتضي كمال الغنى وهو يقتضي كمال التجرد الذي هو البساطة من كل الوجوه فلا يكون هناك جنس وفصل ومادة وصورة واعراض وأبعاض إلى غير ذلك مما يخل بالبساطة الكاملة الحقيقية واتخاذ الولد لما فيه من الانفصال والمثلية مخل بتلك البساطة فيخل بالغنى فيخل بالقهارية، وقد أشار سبحانه إلى أن الغنى ينافي أن يكون له سبحانه ولد بقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً هو الغني﴾ [ يونس: ٦٨ ] وقيل: إن اتخاذ الولد يقتضي انفصال شيء عنه تعالى وذلك يقتضي أن يكون متأثراً مقهوراً لا مؤثراً قهاراً تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فحيث كان جل وعلا قهاراً كما هو مقتضى الألوهية استحال أن يكون له عزَّ وجلّ ولد، وقيل: إن القهارية منافية للزوال لأن القهار لو قبله كان مقهوراً إذ المزيل قاهر له ولذا قيل سبحان من قهر العباد بالموت.

والولد من أعظم فوائده عندهم قيامه مقام الأب بعد زواله فإذا لم يكن الزوال لم يكن حاجة إلى الولد وهذا مع كونه إلزامياً لا يخلو عن بحث كما لا يخفى.

والزمخشري جعل قوله تعالى: ﴿**سبحانه هو الله**﴾ الخ متصلاً بقوله عزّ وجلّ ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء**﴾ الخ على أنه مقرر نفي أن يكون له تعالى ولي ونفى أن يكون له ولد، ولعل بيان ذلك لا يخفى فتدبر.

وقوله سبحانه: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ إثبات لما ذكر أولاً من الوحدة والقهر، وفيه أيضاً ما ستعلمه إن شاء الله تعالى أي خلق هذا العالم المشاهد ملتبساً بالحق والصواب مشتملاً على الحكم والمصالح.

وقوله تعالى: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيلِ**﴾ بيان لكيفية تصرفه فيما ذكر بعد بيان

الخلق فإن حدوث الليل والنهار منوط بتحريك أجرام سماوية، والتكوير في الأصل هو اللف واللَّي من كار العمامة على رأسه وكورها، والمراد على ما روي عن قتادة يغشى أحدهما الآخر، وهو على ما قيل معنى يذهب أحدهما ويغشى مكانه الآخر أي يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً وبالعكس فالمغشى حقيقة المكان، ويجوز أن يكون المغشى الليل والنهار على الاستعارة ويكون المكان ظرفاً، والمقصود أنه لما كان أحدهما غاشياً للآخر أشبه اللباس الملفوف على لابسه في ستره إياه واشتماله عليه وتغطيه به.

وتحقيقه أن أحدهما لما كان محيطاً على جميع ما أحاط به الآخر من غير أن يكون ثم شيء زائد غير الظهور والخفاء جعل إحاطته على محاط الآخر إحاطة عليه مجاز ملابسته وعبر عنها بالغشيان والتكوير للشبه المذكور.

وجوز أن يكون المراد أن كل واحد من الليل والنهار يغيب الآخر إذا طرأ عليه فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار ورجح الأول بأن فيه مع اعتبار الستر اعتبار اللي وإحاطة الأطراف ثم إن هذا لظهوره تشبيه مبذول وأن يكون المراد أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض قيل وهو الأرجح لأنه اعتبر فيه ما اعتبر مع الأول مع النظر إلى المطرد فيه لفظ الكور فإنه لف بعد لف وهو أيضاً كذلك إلا أن أكوار العمامة متظاهرة وفيما نحن فيه متعاورة وهذا مما لا بأس به فإن كل لية تسمى كوراً حقيقة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن المعنى يحمل أحدهما على الآخر، وفسر هذا الحمل بالضم والزيادة أي يزيد الليل على النهار ويضمه إليه بأن يجعل بعض أجزاء الليل نهاراً فيطول النهار ويقصر الليل ويزيد النهار على الليل ويضمه إليه بأن يجعل سبحانه بعض أجزاء النهار ليلاً فيطول الليل ويقصر النهار.

وإلى هذا ذهب الراغب وهو معنى واضح والآية عليه كقوله تعالى: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ [ الحج: ٦١، لقمان: ٢٩، فاطر: ١٣، الحديد: ٦ ] في قوله، وذكر بعض الفضلاء أنها على المعنى الأول فيها شيء من قوله تعالى: ﴿جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر﴾ [ الفرقان: ٦٢ ] وعلى المعنى الثاني فيها شيء من قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى﴾ [ الليل: ١، ٢ ] وعلى الثالث شيء من قوله سبحانه: ﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ [ الأعراف: ٥٤ ] وأنها يحتمل أن يكون فيها الاستعارة التبعية والمكنية والتخييلية والتمثيلية والتمثيل أولى بالاعتبار؛ وأياً ما كان فصيغة المضارع للدلالة على التجدد.

**﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾** جعلهما منقادين لأمره عزَّ وجلّ **﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** بيان لكيفية تسخيرهما أي كل منهما يجري لمنتهى دورته أو منقطع حركته، وقد مر تمام الكلام عليه، وفيه دليل على أن الشمس متحركة، وزعم بعض الكفرة أنها ساكنة وأنها مركز العالم وسمعت في هذه الآيام أنه ظهر في الإفرنج منذ سنتين تقريباً من يزعم أنها تتحرك على مركز آخر كما تتحرك الأرض عليها نفسها بزعمهم وزعم بعض المتقدمين، ولهم في الهيئة كلام غير هذا وفيه الغث والسمين إلا أن نفيهم السماوات الناطقة بها الشرائع بالكلية من العجب العجاب وأنظارهم السخيفة تفضي بهم إلى ما هو أعجب من ذلك عند ذوي العقول السليمة نسأل الله تعالى السلامة والتوفيق، ولي عزم على تأليف كتاب أبين فيه إن شاء الله تعالى ما هو الأقرب إلى الحق من الهيئتين القديمة والجديدة متحركاً على محور الإنصاف ساكتاً عن سلوك مسالك الاعتساف والله تعالى الموفق لذلك.

**﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾** القادر على عقاب المصرين **﴿الْغَفَّارُ﴾** لذنوب التائبين أو الغالب الذي يقدر أن يعاجلهم بالعقوبة وهو سبحانه يحمل عليهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى فيكون قد سمي الحلم عنهم وقد ترك تعجيل العقوبة بالمغفرة التي هي ترك العقاب على طريق الاستعارة للمناسبة بينهما في الترك.

وجوز كون ذلك من باب المجاز المرسل، والأول أبلغ وأحسن، وهذان الوجهان في ﴿**العزيز الغفار**﴾ قد ذكرهما الزمخشري، وظن بعضهم أن الداعي للأول ورعاية مذهب الاعتزال حيث خص فيه المغفرة بذنوب التائبين فتركه وقال: العزيز القادر على كل ممكن الغالب على كل شيء الغفار حيث لم يعاجل بالعقوبة وسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة وما علينا أن نفسر كما فسر ونقول بأن مغفرته تعالى لا تخص التائبين بل قد يغفر جل شأنه لغيرهم إلا أن التقييد ليلائم ما تقدم أتم ملاءمة، ففي الكشف أن الوجه الأول من ذينك الوجهين المذكورين يناسب قوله تعالى: ﴿**خلق السماوات والأرض بالحق**﴾ من وجهين أحدهما ما فيه من الدلالة على كمال القدرة وكمال الرحمة المقتضي لعقاب المصرّ وغفران ذنوب التائب، وثانيهما أن قوله تعالى: ﴿**خلق السماوات**﴾ الخ مسوق لأمرين إثبات الوحدة والقهر المذكورين فيما قبل نفياً للولد بل حسبما للشرك من أصله والتسلق إلى ما مهد أولاً من العبادة والإخلاص لئلا يزول عن الخاطر فقيل ﴿**بالحق**﴾ كما قيل هنالك ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب الحق﴾ [النساء: ١٠٥، المائدة: ٤٨، الزمر: ٢ ] وادمج فيه أن إنزال الكتاب كما يدل على استحقاقه تعالى للعبادة فكذلك خلق السماوات والأرض بالحق والحكمة التي منها الجزاء على ما سلف فالتذييل بالا هو العزيز الغفار للترغيب في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص والتحذير عن خلاف ذلك سواء خالف أصل الدين كالكفر أو خالف الإخلاص فيه كسائر المعاصي في غاية الملاءمة، وإنما أفرد مخالفة الدين بالذكر صريحاً في قوله تعالى: «والذين اتخذوا» الخ تحذيراً من حالهم لأنها هاتكة لعصمة النجاة فكانت أحق بالتحذير، ورمز إلى هذا الثاني بالتذييل المذكور تكميلاً للمعنى المراد ومدار هذه السورة الكريمة على الأمر بالعبادة والإخلاص والتحذير من الكفر والمعاصي، والوجه الثاني من ذينك الوجهين يناسب حديث الشرك والتذييل به لتوكيد تفظيع ما نسبوا إليه، ولما ذكر تنزيل الكتاب وعقب بالأوصاف المقتضية للعبادة والإخلاص ذيله بقوله سبحانه: «ألا لله الدين الخالص» على ما تحقق وجهه وقد نقلناه نحن عنه فيما مر، ثم لما ذكر بعده عظيم ما نسبوا إليه سبحانه: من الشرك والأولاد وما دل على تنزهه تعالى بالألوهية ناسب أن يذيله بقوله تعالى: «ألا هو العزيز الغفار» للتوكيد المذكور، وقد آثر هذا العلامة الطيبي ويعلم مما ذكرنا وجه رجحان الأول اهـ، والوجه الثاني من وجهي المناسبة على الوجه الأول أولى الوجهين، والآية على ما ذكره البعض يجوز ارتباطها بما عندها من الخلق والتكوير والتسخير، وقوله تعالى: ﴿**خَلَقَكُمْ منْ نَفْس وَاحدَة**﴾ الخ دليل آخر على الوحدة والقهر.

وترك عطفه على ﴿**خلق السماوات**﴾ للإيذان باستقلاله في الدلالة ولتعلقه بالعالم السفلي، والبداءة بخلق الإنسان لأنه أقرب وأعجب بالنسبة إلى غيره باعتبار ما فيه من العقل وقبول الأمانة الإلهية وغير ذلك حتى قيل:

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

والمراد بالنفس آدم عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعلَ منهَا زَوْجَهَا**﴾ أي حواء فإنها خلقت من قصيري ضلعه عليه السلام اليسرى وهي أسفل الأضلاع على معنى أنها خلقت من بعضها أو خلقت منها كلها وخلق الله تعالى لآدم مكانها عطف على محذوف هو صفة ثانية لنفس أي من نفس واحدة خلقها ثم جعل منها زوجها، أو على ﴿**واحدة**﴾ لأنه في الأصل اسم مشتق فيجوز عطف الفعل عليه كقوله تعالى: «فالق الإصباح وجعل الليل سكناً» ويعتبر ماضياً لأن اسم الفاعل قد يكون للمضي إذا لم يعمل أي من نفس وحدت من جعل منها زوجها ورجح بسلامته من التقدير الذي هو خلاف الأصل أو على ﴿**خلقكم**﴾ لتفاوت ما بينهما في الدلالة فإنهما وإن كانتا آيتين دالتين على ما مر من الصفات الجليلة لكن خلق حواء من الضلع أعظم وأجلب للتعجب ولذا عبر بالجعل دون الخلق فثم للتراخي الرتبي، ويجوز فيه كون الثاني أعلى مرتبة من الأول وعكسه، وقيل: إنه تعالى أخرج ذرية آدم عليه السلام من

ظهره كالذر ثم خلق منه حواء فالمراد بخلقهم منه إخراجهم من ظهره كالذر فالعطف على ﴿خلقكم﴾ وثم على ظاهرها، وهذا لا يقبل إلا إذا صح مرفوعاً أو في حكمه، وقد تضمنت الآية ثلاث آيات خلق آدم عليه السلام بلا أب وأم وخلق حواء من قصيراه وخلق ذريته التي لا يحصي عددها إلا الله عزَّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ استدلال بنوع آخر من العالم السفلي، والإنزال مجاز عن القضاء والقسمة فإنه تعالى إذا قضى وقسم أثبت ذلك في اللوح المحفوظ ونزلت به الملائكة الموكلة بإظهاره، ووصفه بالنزول مع أنه معنى شائع متعارف كالحقيقة والعلاقة بين الإنزال والقضاء الظهور بعد الخفاء ففي الكلام استعارة تبعية، وجوز أن يكون فيه مجاز مرسل، ويجوز أن يكون التجوز في نسبة الإنزال إلى الأنعام والمنزل حقيقة أسباب حياتها كالأمطار ووجه ذلك الملابسة بينهما، وقيل يراد بالأزواج أسباب تعيشها أو يجعل الإنزال مجازاً عن إحداث ذلك بأسباب سماوية وهو كما ترى، وقيل الكلام على ظاهره والله تعالى خلق الأنعام في الجنة ثم أنزلها منها ولا أرى لهذا الخبر صحة، والأنعام الإبل والبقر والضأن والمعز وكانت ثمانية أزواج لأن كلاً منها ذكر وأنثى، وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بيان لكيفية خلق من ذكر من الاناسي والانعام إظهاراً لما فيه من عجائب القدرة، وفيه تغليبان تغليب أولي العقل على غيرهم وتغليب الخطاب على الغيبة كذا قيل، والأظهر أن الخطاب خاص وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد، وقوله تعالى: ﴿خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ مصدر مؤكد أن تعلق من بعد بالفعل وإلا فغير مؤكد أي يخلقكم فيها خلقاً مدرجاً حيواناً سوياً من بعدم عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة فقوله سبحانه: «خلقاً من بعد خلق» لمجرد التكرير كما يقال مرة بعد مرة لا أنه مخصوص بخلقين. وقرأ عيسى وطلحة «يخلقكم» بإدغام القاف في الكاف ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة، وقيل ظلمة الصلب والبطن والرحم، والجار والمجرور متعلق بيخلقكم، وجوز الشهاب تعلقه بخلقاً بناء على أنه غير مؤكد وكونه بدلاً من قوله تعالى: ﴿في بطون أمهاتكم﴾ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة على وجه يدل على بعد منزلته تعالى في العظمة والكبرياء، واسم الإشارة مبتدأ والاسم الجليل خبره و ﴿ربكم﴾ خبر بعد خبر أو الاسم الجليل نعت أو بدل وهو الخبر أي ذلكم العظيم الشأن الذي عددت أفعاله الله مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعدها ومالككم المستحق لتخصيص العبادة به سبحانه ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة ليس لغيره تعالى شركة ما في ذلك بوجه من الوجوه والجملة خبر آخر، وقوله تعالى: ﴿لا إله إلاَّ هُوَ﴾ جملة متفرعة على ما قبلها ولم يصرح معها بالفاء التفريعية اعتماداً على فهم السامع. وفي إرشاد العقل السليم أنه خبر آخر، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما ذكر من شؤونه عزَّ وجلّ أي فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية إلى عبادة غيره سبحانه من غير داع إليها مع كثرة الصوارف عنها.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ به تعالى مع مشاهدة ما ذكر من موجبات الإيمان والشكر ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ أي فأخبركم أنه عزَّ وجلّ غني عن إيمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما ﴿وَلا يَرْضَى لعباده الْكُفْرَ﴾ لما فيه من الضرر عليهم ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ﴾ أي الشكر ﴿لَكُمْ﴾ لما فيه من نفعكم، ومن قال بالحسن والقبح العقليين قال: عدم الرضا بالكفر لقبحه العقلي والرضا بالشكر لحسنه العقلي، والرضا إما بمعنى المحبة أو بمعنى الإرادة مع ترك الاعتراض ويقابله السخط كما في شرح المسايرة فعباده على ظاهره من العموم، ومنهم من فسره بالإرادة من غير قيد ويقابله الكره وهؤلاء يقولونه قد يرضى بالكفر أي يريده لبعض الناس كالكفرة ونقله السخاوي عن النووي في كتابه الأصول والضوابط. وابن

الهمام عن الأشعري. وإمام الحرمين كذا قاله الخفاجي في حواشيه على تفسير البيضاوي. والذي رأيته في الضوابط وهي نسخة صغيرة جداً ما نصه مسألة مذهب أهل الحق الإيمان بالقدر وإثباته وأن جميع الكائنات خيرها وشرها بقضاء الله تعالى وقدره وهو مريد لها كلها ويكره المعاصي مع أنه سبحانه مريد لها لحكمة يعلمها جل وعلا، وهل يقال إنه تعالى يرضى المعاصي ويحبها فيه مذهبان لأصحابنا المتكلمين حكاهما إمام الحرمين وغيره، قال إمام الحرمين في الإرشاد: مما اختلف فيه أهل الحق إطلاق المحبة والرضاء، فقال بعض أصحابنا لا يطلق القول بأن الله تعالى يحب المعاصي ويرضاها لقوله تعالى: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾ ومن حقق من أئتنا لم يلتفت إلى تهويل المعتزلة بل قال الله تعالى يريد الكفر ويحبه ويرضاه والإرادة والمحبة والرضا بمعنى واحد قال: والمراد بعباده في الآية الموفقون للإيمان وأضيفوا إلى الله تعالى تشريفاً لهم كل في قوله تعالى: ﴿يشرب بها عباد الله﴾ [ الإنسان: ٦ ] أي خواصهم لا كلهم اهـ فلا تغفل عن الفرق بينه وبين ما ذكره الخفاجي، وحكي تخصيص العباد في البحر عن ابن عباس.

وقيل يجوز مع ذلك حمل العباد على العموم ويكون المعنى ولا يرضى لجميع عباده الكفر بل يرضاه ويريده لبعضه نظير قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [ الأنعام: ١٠٣ ] على قول، ولعلامة الأعصار صاحب الكشف تحقيق نفيس في هذا المقام لم أره لغيره من العلماء الأعلام وهو أن الرضا يقابل السخط وقد يستعمل بعن والباء ويعدى بنفسه فإذا قلت: رضيت عن فلان فإنما يدخل على العين لا المعنى ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا وفي مقابلة سخطت عليه وبينهما فرقان أنك إذا قلت: رضيت عن فلان بإحسانه لم يتعين الباء للسببية بل جاز أن يكون صلة مثله في رضيت بقضاء الله تعالى وإذا قلت: سخطت عليه بإساءته تعين السببية فكان الأصل هاهنا ذكر الصلة لكنه كثر الحذف في الاستعمال بخلافه ثمت إذ لا حذف، وإذا قيل: رضيت به فهذا يجب دخوله على المعنى إلا إذا دخل على الذات تمهيداً للمعنى ليكون أبلغ تقول: رضيت بقضاء الله تعالى ورضيت بالله عزَّ وجلّ رباً وقاضياً، وقريب منه سمعت حديث فلان وسمعته يتحدث وإذا عدي بنفسه جاز دخوله على الذات كقولك: رضيت زيداً وإن كان باعتبار المعنى تنبيهاً على أن كله مرضي بتلك الخصلة وفيه مبالغة وجاز دخوله على المعنى كقولك: رضيت إمارة فلان، والأول أكثر استعمالاً وهو على نحو قولهم: حمدت زيداً وحمدت علمه، وأما إذا استعمل باللام تعدى بنفسه كقولك رضيت لك هذا فمعناه ما سيجيء إن شاء الله تعالى قريباً، وإذا تمهد هذا لاح لك أن الرضا في الأصل متعلقة المعنى وقد يكون الذات باعتبار تعلقه بالمعنى أو باعتبار التمهيد فهذه ثلاثة أقسام حققت بأمثلتها وأنه في الحقيقة حالة نفسانية تعقب حصول ملائم مع ابتهاج به واكتفاء فهو غير الإرادة بالضرورة لأنها تسبق الفعل وهذا يعقبه، وهذا المعنى في غير المستعمل باللام من الوضوح بمكان لا يخفى على ذي عينين، وأما فيه فإنما اشتبه الأمر لأنك إذا قلت: رضيت لك التجارة فالراضي بالتجارة هو مخاطبك وإنما أنت بينت له أن التجارة مما يحق أن يرضى به وليس المعنى رضيت بتجارتك بل المعنى استحمادك التجارة له فالملاءمة هاهنا بين الواقع عليه الفعل والداخل عليه اللام ثم إنه قد يرضى بما ترضاه له إذا عرف وجه الملاءمة وقد لا يرضى، وفيه تجوز إما لجعل الرضا مجازاً على الاستحماد لأن كل مرضي محمود أو لأنك جعلت كونه مرضياً له بمنزلة كونه مرضياً لك فاعلم أن الرضا في حق الله تعالى شأنه محال لأنه سبحانه لا يحدث له صفة عقيب أمر البتة فهو مجاز كما أن الغضب كذلك إما من أسماء الصفات إذا فسر بإرادة أن يثيبهم إثابة من رضي عمن تحت يده وإما من أسماء الأفعال إذا أريد الاستحماد وأن مثل قوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [ المائدة: ١١٩ ] إما من باب المشاكلة وإما من باب المجاز المذكور، وأن مثل قوله سبحانه: ﴿رضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [ المائدة: ٣ ] متعين أن يكون من ذلك الباب بالنسبة إلى من يصح اتصافه بالرضا حقيقة

أيضاً فإذن قوله تعالى: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾ كلام وارد على نهجه من غير تأويل دال على أنه جل شأنه لا يستحمد الكفر لعباده كما يستحمد الإسلام لهم ويرتضيه، وأما أنه لا يريد الكفر أن يوجد فليس من هذا الباب في شيء ولا هو من مقتضيات هذا التركيب وأن الخروج إلى تخصيص العباد من ضيق العطن وأن قول المحققين رضي الله تعالى عنهم: إن الطاعات برضى الله تعالى والمعاصي ليست كذلك ليس لهذه الآية بل لأن الرضا بالمعنى الأصلي يستحيل عليه تعالى وقد أخبر أنه رضي عن المؤمنين بسبب طاعتهم في مواضع عديدة من كتابه الكريم.

والزمخشري عامله الله تعالى بعدله فسر الرضا في نحوه بالاختيار وهو لا ينفك عن الإرادة، وأنت تعلم سقوطه مما حقق هذا ثم إنا نقول: لما أرشد سبحانه إلى الحق وهدد على الباطل إكمالاً للرحمة على عباده كلهم الفريقين بقوله تعالى: ﴿**إن تكفروا**﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿**يرضه لكم**﴾ تنبيهاً على الغنى الذاتي وأنه سبحانه تعالى أن يكون أمره بالخير لانتفاعه به ونهيه عن الشر لتضرره منه، ثم في العدول عن مقتضى الظاهر من الخطاب إلى قوله تعالى: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾ ما ينبه على أن عبوديتهم وربوبيته جل شأنه يقتضي أن لا يرضى لهم ذلك، وفيه أنهم إذا اتصفوا بالكفر فكأنهم قد خرجوا عن رتبة عبوديته تعالى وبقوا في الذل الدائم ثم قيل ﴿**يرضه لكم**﴾ للتنبيه على مزيد الاختصاص فهذا هو النظم السري الذي يحار دون إدراك لطائفة من لطائفة الفكر البشري والله أعلم اهـ. وهو كلام رصين وبالقبول قمين إلا أنه ربما يقال إنه: لا يتمشى على مذهب السلف حيث إنهم لا يؤولون الرضا في حقه تعالى وكونه عبارة عن حالة نفسانية إلى آخر ما ذكر في تفسيره إنما هو فينا وحيث أن ذاته تعالى مباينة لسائر الذوات فصفاته سبحانه كذلك فحقيقة الرضا في حقه تعالى مباينة لحقيقته فينا وأين التراب من رب الأرباب، وقد تقدم الكلام في هذا المقام على وجه يروي الأوام ويبرىء السقام فنقول عدم التأويل لا يضر فيما نحن بصدده فالرضا أن أول أو لم يؤول غير الإرادة لحديث السبق والتأخر السابق، وممن صرح بذلك ابن عطية قال: تأمل الإرادة فإن حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد والرضا حقيقته إنما هي فيما وقع واعتبر هذا في آيات القرآن تجده وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها على جهة التجوز هذا بدل هذا.

وقد ذهب إلى المغايرة بينهما بما ذكر هنا ابن المنير أيضاً إلا أنه أول الرضا وذكر أنه لا يتأتى حمله في الآية على الإرادة وشنع على الزمخشري في ذلك جزاء ما تكلم على بعض أهل السنة المخالفين للمعتزلة في زعمهم اتحاد الرضا والإرادة وأنه تعالى قد يريد ما لا يفعله العبد وقد يفعل العبد ما لا يريده عزَّ وجلّ فقال: هب أن المصر على هذا المعتقد على قلبه رين أو في ميزان عقله غين أليس يدعي أو يدعى له أنه الخريت في معابر العبارات فكيف هام عن جادة الإجادة في بهماء وأعار منادي الحذاقة أذناً صماء اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقاً وغطى على مكشوف العبارة فسحقاً سحقاً أليس مقتضى العربية فضلاً عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط فلا يتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلاً ولا مضيه واستقبال الشرط لغة ونقلاً واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وأهل البدعة أن إرادة الله تعالى لشكر العباد مثلاً مقدمة على وجود الشكر منهم فحينئذ كيف ينساغ حمل الرضا على الإرادة وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاء وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزياً واللازم من ذلك عقلاً تقدم المراد وهو الشكر على الإرادة وهي الرضا ولغة تقدم المشروط على الشرط فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقلاً تعين المحمل الصحيح له، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازي به المرضي عنه من الثواب والكرامة فيكون معنى الآية والله تعالى أعلم وأن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضي عنه، ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر فجرى الشرط والجزاء على مقتضاها لغة وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة

عقلاً، ومثل هذا يقال في قوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ أي لا يجازى الكافر مجازاة المرضي عنه بل مجازاة المغضوب عليه من النكار والعقوبة انتهى.

لا يقال: حيث كان قوله تعالى: ﴿فإن الله غني عنكم﴾ جزاء باعتبار الأخبار كما أشير إليه فيما سلف فليكن قوله تعالى: ﴿يرضه لكم﴾ جزاء بذلك الاعتبار فحينئذ لا يلزم أن يكون نفس الرضا مؤخراً لأنا نقول: مثل هذا الاعتبار شائع في الجملة الاسمية المتحقق مضمونها قبل الشرط نحو ﴿وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾ [ الأنعام: ١٧ ] وفي الفعل الماضي إذا وقع جزاء نحو ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ [ يوسف: ٧٧ ] وأما في الفعل المضارع فليس كذلك والذوق السليم يأبى هذا الاعتبار فيه ومع هذا أي حاجة تدعو إلى ذلك هنا ولا أراها إلا نصرة الباطل والعياذ بالله تعالى، ثم إنه يعلم من مجموع ما قدمنا حقية ما قالوا من أنه لا تلازم بين الإرادة والرضا كما أن الرضا ليس عبارة عن حقيقة الإرادة لكن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قسما الإرادة إلى قسمين تكوينية وشرعية، وذكرا أن المعاصي كالكفر وغيره واقعة بإرادة الله تعالى التكوينية دون إرادته سبحانه الشرعية وعلى هذا فالرضا لا ينفك عن الإرادة الشرعية فكل مراد لله تعالى بالإرادة الشرعية مرضي له سبحانه وهذا التقسيم لا أتعقله إلا أن تكون الإرادة الشرعية هي الإرادة التي يرتضي المراد بها فتدبر هذا، وقرأ ابن كثير ونافع في رواية وأبو عمرو والكسائي «يَرْضَهُ» باشباع ضمة الهاء، والقاعدة في اشباع الهاء وعدمه أنها إن سكن ما قبلها لم تشبع نحو عليه وإليه وإن تحرك أشبعت نحو به وغلامه وهاهنا قبلها ساكن تقديراً وهو الألف المحذوفة للجازم فإن جعلت موجودة حكماً لم تشبع كما في قراءة ابن عامر وحفص وإن قطع النظر عنها اشبعت كما في قراءة من سمعت وهذا هو الفصيح وقد تشبع وتختلس في غير ذلك وقد يحسن اشباعها مع فقد الشرط لنكتة، وقرأ أبو بكر «يَرْضَهْ» بسكون الهاء ولم يرضه أبو حاتم وقال: هو غلط لا يجوز، وفيه أنه لغة لبني كلاب وبني عقيل اجراء للوصل مجرى الوقف.

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره، وقد تقدم الكلام في هذه الجملة وكذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فتذكر.

۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ
وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ
ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا
يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ
وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾
وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ
دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ من مرض وغيره من المكاره ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيهِ﴾ راجعاً ممن كان يدعوه في حالة الرخاء من دون الله عزَّ وجلّ لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده

كقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [ إبراهيم: ٣٤ ]، واستظهر أبو حيان أن المراد بالإنسان جنس الكافر، وقيل: هو معين كعتبة بن ربيعة ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ﴾ أي أعطاه نعمة عظيمة من جنابه من الخول بفتحتين وهو تعهد الشيء أي الرجوع إليه مرة بعد أخرى وأطلق على العطاء لما أن المعطي الكريم يتعهد من هو ربيب احسانه ونشو امتنانه بتكرير العطاء عليه مرة بعد أخرى، وقال بعضهم: معنى ﴿خوله﴾ في الأصل أعطاه خولاً بفتحتين أي عبيداً وخدماً أو أعطاه ما يحتاج إلى تعهده والقيام عليه ثم عمم لمطلق العطاء، وجوز الزمخشري كونه من خال يخول خولاً بسكون الواو إذا افتخر، واعترض بأنه صرح في الصحاح أن خال بمعنى افتخر يائي والخيلاء بمعنى التكبر يدل عليه دلالة بينة، وأيضاً خول متعد إلى مفعولين وأخذه منه لا يقتضي أن يتعدى للمفعول الثاني.

وأجيب عن الأول بأن الزمخشري من أئمة النقل وقد ثبت عنده وأصله من الخال الذي هو العلامة، وقد نقل فيه الواو والياء ثم قيل لسيما الجمل والخير خال من ذلك وأخذ منه الخيال وأما الاختيال بمعنى التكبر فهو مأخوذ من الخيال لأنه خال نفسه فوق قدره أو جعل لنفسه خال الخير كما يقال: أعجب الرجل فقد وضح أن الاشتقاق يناسبهما ولا ينكر ثبوت الياء بدليل الخيلاء لكن لا مانع من ثبوت الياء أيضاً وليس الاختيال مأخوذاً من الخيلاء بل الخيلاء هو الاسم منه فلا يصلح مانعاً لكن يصلح مثبتاً للياء، وعن الثاني بأنه ليس المراد أن خول مضعف خال بمعنى افتخر حتى يشكل تعديته للمفعول الثاني بل أنه موضوع في اللغة لمعنى أعطى وما ذكر بيان لمأخذ اشتقاقه وأصل معناه الملاحظ في وضعه له ومثله كثير فأصل خوله جعله مفتخراً بما أنعم عليه ثم قطع النظر عنه وصار بمعنى أعطاه مطلقاً ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيه﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله تعالى إلى إزالته وكشفه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ التخويل فما واقعة على الضر ودعا من الدعوة وهو يتعدى بإلى يقال دعا المؤذن الناس إلى الصلاة ودعا فلان الناس إلى مأدبته والدعوة مجاز عن الدعاء، والمعنى على اعتبار المضاف كما أشير إليه، ويجوز أن يراد بما معنى من للدلالة على الوصفية والتفخيم واقعاً عليه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ [ الليل: ٣ ] وقوله سبحانه: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ [ الكافرون: ٥ ] والدعاء على ظاهره وتعديته بإلى لتضمينه معنى الإنابة أو التضرع والابتهال، والمعنى نسي ربه الذي كان يدعو منيباً أو متضرعاً إليه وهو وجه لا بأس به، وما قيل من أنه تكلف إذ لا يقال دعا إليه بمعنى دعاه ولا حاجة إلى جعل ما بمعنى من مردود لحسن موقع التضمين واستعمال ما في مقام التفخيم. وفي الإرشاد أن في ذلك الجعل إيذاناً بأن نسيانه بلغ إلى حيث لا يعرف مدعوه ما هو فضلاً من أن يعرفه من هو، وقيل: ما مصدرية أي نسي كونه يدعو، وقيل: هي نافية وتم الكلام عند قوله تعالى: ﴿نسي﴾ أي نسي ما كان فيه من الضر ثم نفي أن يكون دعاء هذا الكافر خالصاً لله تعالى من قبل أي من قبل الضر ولا يخفى ما فيه ﴿وَجَعَلَ لله أَنْدَاداً﴾ شركاء في العبادة، والظاهر من استعمالاتهم إطلاق الأنداد على الشركاء مطلقاً، وفي البحر أنداداً أي أمثالاً يضاد بعضها بعضاً ويعارض، قال قتادة: أي الرجال يطيعهم في المعصية، وقال غيره أوثاناً ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس بذلك ﴿عَنْ سَبِيله﴾ عزَّ وجلّ الذي هو التوحيد.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعيسى «ليَضِلّ» بفتح الياء أي ليزداد ضلالاً أو ليثبت عليه وإلا فاصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور، واللام لام العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: ٨ ] بيد أن هذا أقرب إلى الحقيقة لأن الجاعل هاهنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال وأن لم يعرف بجهله أنهما اضلال وضلال وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلاً.

﴿قُلْ﴾ تهديداً لذلك الجاعل وبياناً لحاله ومآله ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ أي تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي ملازميها والمعذبين فيها على الدوام، وهو تعليل لقلة التمتع وفيه من الاقناط من النجاة وذم الكفر

ما لا يخفى كأنه قيل: إذ قد أبيت ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيلِ﴾ الخ من تمام الكلام المأمور به في قول، وأم إما متصلة قد حذف معادلها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه كأنه قيل له تأكيداً للتهديد وتهكماً به أأنت أحسن حالاً ومآلاً أم من هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على وظائف العبادات في ساعات الليل التي فيها العبادة أقرب إلى القبول وأبعد عن الرياء حالتي السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط كدأبك حال كونه ﴿سَاجِداً وَقَائِماً﴾ وإلى كون المحذوف المعادل الأول ذهب الأخفش ووافقه غير واحد ولا بأس به عند ظهور المعنى لكن قال أبو حيان: إن مثل ذلك يحتاج إلى سماع من العرب، ونصب ﴿ساجداً وقائماً﴾ على الحالية كما أشير إليه أي جامعاً بين الوصفين المحمودين وصاحب الحال الضمير المستتر في ﴿قانت﴾.

وجوز كون الحال من ضمير ﴿يحذر﴾ الآتي قدم عليه ولا داعي لذلك. وقرأ الضحاك «ساجدٌ وقائمٌ» برفع كل على أنه خبر بعد خبر، وجوز أبو حيان كونه نعتاً لقانت وليس بذاك، والواو كما أشير إليه للجمع بين الصفتين، وترك العطف على ﴿قانت﴾ قيل لأن القنوت مطلق العبادة فلم يكن مغايراً للسجود والقيام فلم يعطفا عليه بخلاف السجود والقيام فإنهما وصفان متغايران فلذا عطف أحدهما على الآخر، وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة، وذهب المعظم إلى أنه أفضل من القيام لحديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ﴾ حال أخرى على التداخل أو الترادف أو استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية حاله كأنه قيل ما باله يفعل ذلك؟ فقيل: يحذر الآخرة أي عذاب الآخرة كما قرأ به ابن جبير.

﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه﴾ فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضمير الراجي لا أنه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط، وأما منقطعة وما فيها من الاضراب للانتقال من التبكيت بتكليف الجواب الملجىء إلى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل: بل أمن هو قانت الخ، وقدر الزمخشري كغيره مثلك أيها الكافر. وقال النحاس: بمعنى بل ومن بمعنى الذي والتقدير بل الذي هو قانت الخ أفضل مما قبله، وتعقبه في البحر بأنه لا فضل لمن قبله حتى يجعل هذا أفضل بل يقدر الخبر من أصحاب الجنة لدلالة مقابلة أعني ﴿إنك أصحاب النار﴾ عليه ولا يبعد أن يقدر أفضل منك ويكون ذلك من باب التهكم.

وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والأعمش وعيسى وشيبة والحسن في رواية «أَمَنْ» بتخفيف الميم وضعفها الأخفش وأبو حاتم ولا التفات إلى ذلك، وخرجت على إدخال همزة الاستفهام التقرير على من والمقابل محذوف أي الذي هو قانت الخ خير أم أنت أيها الكافر، ومثله في حذف المعادلة قوله:

دعاني إليها القلب إني لأمره ... سميع فما أدري أرشدٌ طلابها

فإنه أراد أم غي، وقال الفراء: الهمزة للنداء كأنه قيل يا من هو قانت وجعل قوله تعالى: ﴿قل﴾ خطاباً له، وضعف هذا القول أبو علي الفارسي وهو كذلك، وقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ على معنى قل له أيضاً بياناً للحق وتصريحاً به وتنبيهاً على شرف العلم والعمل ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ فيعملون بمقتضى علمهم ويقنتون الليل سجداً وركعاً يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم ﴿وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك أيها الكافر الجاعل لله تعالى أنداداً، والاستفهام للتنبيه على أن كون الأولين في أعلى معارج الخير وكون الآخرين في أقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر، ويعلم مما ذكرنا أن المراد بالذين يعلمون العاملون من علماء الديانة وصرح بإرادة ذلك بعض الأجلة على تقديري الاتصال والانقطاع وأن الكلام تصريح بنفي

المساواة بين القانت وغيره المضمنة من حرفي الاستفهام أعني الهمزة وأم على الاتصال أو من التشبيه على الانقطاع وعلى قراءة التخفيف أيضاً قال: وإنما عدل إلى هذه العبارة دلالة على أن ذلك مقتضى العلم وأن العلم الذي لا يترتب عليه العمل ليس بعلم عند الله تعالى سواء جعل من باب إقامة الظاهر مقام المضمر للإشعار المذكور أو استئناف سؤال تبكيتي توضيحاً للأول من حيث التصريح ومن حيث إنهم وصفوا بوصف آخر يقتضي اتصافهم بتلك الأوصاف ومباينتهم لطبقة من لا يتصف. وهذا أبلغ وأظهر لفظاً لقوله تعالى: ﴿قل﴾ وجوز أن يكون الكلام وارداً على سبيل التشبيه فيكون مقرراً لنفي المساواة لا تصريحاً بمقتضى الأول أي كما لا استواء بين العالم وغيره عندكم من غير ريبة فكذلك ينبغي أن لا يكون لكم ارتياب في نفي المساواة بين القانت المذكور وغيره، وكونه للتصريح بنفي المساواة وحمل الذين يعلمون على العاملين من علماء الديانة على ما سمعت مما لا ينبغي أن يختار غيره لتكثير الفائدة، وأما من ارتاب في ذلك الواضح فلا يبعد منه الارتياب في هذا الواضح أيضاً بجوابه أن الاستنكاف عن الجهل مركوز في الطباع بخلاف الأول، ويشعر كلام كثير أن قوله تعالى: ﴿أم من هو﴾ الخ غير داخل في حيز القول والمعنى عليه كما في الأول بتغيير يسير لا يخفى، وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه تلا ﴿أم من هو قانت﴾ الآية فقال: نزلت في عثمان بن عفان، وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس أنها نزلت في عمار بن ياسر، وأخرج جويبر عنه أنها نزلت في عمار وابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، وعن عكرمة الاقتصار على عمار، وعن مقاتل المراد بمن هو قانت عمار وصهيب وابن مسعود وأبو ذر، وفي رواية الضحاك عن ابن عباس وأبو بكر وعمر، وقال يحيى بن سلام: رسول الله ﷺ، والظاهر أن المراد المتصف بذلك من غير تعيين ولا يمنع من ذلك نزولها فيمن علمت وفيها دلالة على فضل الخوف والرجاء، وقد أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال: كيف تجدك؟ قال: أرجو وأخاف فقال عليه الصلاة والسلام: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الذي يرجو وآمنه الذي يخاف، وفيها رد على من ذم العبادة خوفاً من النار ورجاء الجنة وهو الإمام الرازي كما قال الجلال السيوطي، نعم العبادة لذلك ليس إلا مذمومة بل قال بعضهم بكفر من قال: لولا الجنة والنار ما عبدت الله تعالى على معنى نفي الاستحقاق الذاتي، وفيها دلالة أيضاً على فضل صلاة الليل وأنها أفضل من صلاة النهار، ودل قوله تعالى: ﴿هل يستوي﴾ الخ على فضل العلم ورفعة قدره وكون الجهل بالعكس. واستدل به بعضهم على أن الجاهل لا يكافىء العالمة كما أنه لا يكافىء بنت العالم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ كلام مستقل غير داخل عند الكافة في الكلام المأمور وارد من جهته تعالى بعد الأمر بما تضمن القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصي لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما في قوله:

عوجوا فحيوا لنعمى دمنة الدار ... ماذا تحيون من نؤي وأحجار

وهو أيضاً كالتوطئة لأفراد المؤمنين بعد بالخطاب والإعراض عن غيرهم أي إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وأما هؤلاء فبمعزل عن ذلك. وقرىء «يذَّكر» بالإدغام.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أمر رسول الله ﷺ أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكر بأولي الألباب وفيه إيذان بأنهم هم أي قل لهم قولي هذا بعينه وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فإن نقل عين أمر الله تعالى أدخل في إيجاب الامتثال به، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ إلى آخره تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به، والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو خبر مقدم وقوله سبحانه: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بأحسنوا واسم الإشارة للإحضار، وقوله تبارك وتعالى: ﴿حَسَنَةٌ﴾ مبتدأ

وتنوينه للتفخيم أي للمحسنين في الدنيا حسنة في الآخرة أي حسنة والمراد بها الجنة، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿**وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ**﴾ جملة معترضة إزاحة لما عسى أن يتوهم من التعلل في التفريط بعدم التمكن في الوطن من رعاية الأوامر والنواهي على ما هي عليه، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ من تتمة الاعتراض فكأنه قيل: اتقوا ربكم فإن للمحسنين في هذه الدنيا الجنة في الأخرى ولا عذر للمفرطين في الإحسان بعدم التمكن في الأوطان فإن أرض الله تعالى واسعة وبلاده كثيرة فليتحولوا إن لم يتمكنوا عنها وليهاجروا إلى ربهم لنيل الرضوان فإن لهم في جنب ذلك ما يتقاصر عنه الجنة ويستلذ له كل محنة وكأنه لما أزاح سبحانه علتهم بأن في أرض الله تعالى سعة وقع في خلدهم هل نكون نحن ومن يتمكن من الإحسان في بلدته فارغ البال رافع الحال سواء بسواء فأجيبوا إنما يوفى الصابرون الذين صبروا على الهجرة ومفارقة المحاب والاقتداء بالأنبياء والصالحين أجرهم بغير حساب، وأصله إنما توفون أجوركم بغير حساب على الخطاب وعدل عنه إلى المنزل تنبيهاً على أن المقتضي لذلك صبرهم فيفيد أنكم توفون أجوركم بصبركم كما وفي أجر من قبلكم بصبرهم وهو محمول على العموم شامل للصبر على كل بلاء غير مخصوص بالصبر على المهاجرة لكنه إنما جيء به في الآية لذلك وليشمل الصابرين على ألم المهاجرة شمولاً أولياً، والجار والمجرور في موضع الحال إما من الأجر أي إنما يوفون أجرهم كائناً بغير حساب وذلك بأن يغرف لهم غرفاً ويصب عليهم صباً، وأما من الصابرين أي إنما يوفون ذلك كائنين بغير حساب عليه، والمراد على الوجهين المبالغة في الكثرة وهو المراد بقول ابن عباس لا يهتدي إليه حساب الحساب ولا يعرف، وجوز جعل الحال من الصابرين على من لا يحاسبون أصلاً، والمتبادر ما يفيد المبالغة في كثرة الأجر، ومعنى القصر ما يوفي الصابرون أجرهم إلا بغير حساب جعل الجار والمجرور حالاً من المنصوب أو المرفوع لأن القصر في الجزء الأخير، وفيه من الاعتناء بأمر الأجر ما فيه، وأما اختصاصه بالصابرين دون غيرهم فمن ترتب الحكم على المشتق، وهذا ونقل عن السدي أن قوله تعالى: ﴿**في هذه الدنيا**﴾ متعلق بحسنة من حيث المعنى فقيل: هو حينئذ حال من ﴿**حسنة**﴾ ورد بأنها مبتدأ ولا يجوز الحال منه على الصحيح، فإن قيل: يلتزم جعلها فاعل الظرف قيل: لا يتسنى إلا على مذهب الأخفش وهو ضعيف.

وقيل حال من الضمير المستتر في الخبر الراجع إلى ﴿**حسنة**﴾ وقال الزمخشري: هو بيان لحسنة والتقدير هي في الدنيا، والمراد بها الصحة والعافية أي للمحسنين صحة وعافية في الدنيا، قال في الكشف: وإنما آثر كونه بياناً مع جواز كونه حالاً عن الضمير الراجع إلى ﴿**حسنة**﴾ في الخبر لأن المعنى على البيان لا على التقييد بالحال وذلك لأن المعنى على هذا الوجه أن للمحسنين جزاء يسيراً في الدنيا هو الصحة والعافية وإنما توفية أجورهم في الآخرة ولو قيد بالحال لم يلائم على ما لا يخفى، وحق قوله تعالى: ﴿**وأرض الله واسعة**﴾ على هذا أن يكون اعتراضاً ازاحة لما قد يختلج في بعض النفوس من خلاف ذلك الجزاء بواسطة اختلاف الهواء والتربة وغير ذلك مما يؤدي إلى آفات في البدن فقيل وأرض الله تعالى واسعة فلا يعدم أحد محلاً يناسب حاله فليتحول عنه إليه إن لم يلائمه ثم يكون فيه تنبيه على أن من جعل الأرض ذات الطول والعرض قطعاً متجاورات تكميلاً لانتعاشهم وارتياشهم يجب أن تقابل نعمه بالشكر ليعدوا من المحسنين ثم قيل: ﴿**إنما يوفى الصابرون**﴾ أي توفية الأجر لهؤلاء المحسنين إنما يكون في الآخرة والذي نالوه في الدنيا عاجل حظهم وأما الأجر الموفى بغير حساب فذلك للصابرين، ومن سلبناه تلك العاجلة تمحيصاً له وتقريباً وفي ذلك تسلية لأهل البلاء وتنشيط للعباد على مكابدة العبادات وتحريض على ملازمة الطاعات ثم قال: وهذا أيضاً وجه حسن دقيق والرجحان للأول من وجوه:

أحدها أن الاعتراض لإزاحة العلة في التفريط أظهر لأنه المقصود من السياق على ما يظهر من قوله تعالى: ﴿**اتقوا ربكم**﴾. الثاني أنه المطابق لما ورد في التنزيل من نحو ﴿**ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها**﴾ [النساء:

٩٧ ] ﴿إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ [ العنكبوت: ٥٦ ]. الثالث أن تعلق الظرف بالمذكور المتقدم هو الوجه ما لم يصرف صارف.

الرابع أنه على ذلك التقدير ليس بمطرد ولا أكثري فإن الحسنة بذلك المعنى في شأن المخالفين أتم والقول بأنها استدراج في شأنهم لا حسنة ليس بالظاهر فقد قال سبحانه: ﴿**فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه**﴾ انتهى، ولعمري إن ما رجحه بالترجيح حقيق وما استحسنه واستدقه ليس بالحسن ولا الدقيق، والذي نقله الطبرسي عن السدي تفسير الحسنة في الدنيا بالثناء الحسن والذكر الجميل والصحة والسلامة، وفسرها بعضهم بولاية الله تعالى وعليه فليس للمخالفين منها نصيب، وفي الآية أقوال أخر فعن عطاء أرض الله تعالى المدينة قال أبو حيان: فعلى هذا يكون ﴿**أحسنوا**﴾ هاجروا و ﴿**حسنة**﴾ راحة من الأعداء، وقال قوم: أرض الله تعالى الجنة، وتعقبه ابن عطية بأنه تحكم لا دليل عليه.

وقال أبو مسلم: لا يمتنع ذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى ثم بين سبحانه أنه من اتقى له في الآخرة الحسنة وهي الخلود في الجنة ثم بين جل شأنه أن أرض الله واسعة لقوله تعالى: ﴿وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ [ الزمر: ٧٤ ] وقوله تعالى: ﴿وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ [ آل عمران: ١٣٣ ] والرجحان لما سمعت أولاً، واختير فيه شمول الحسنة لحسنات الدنيا والآخرة، والمراد بالإحسان الإتيان بالأعمال الحسنة القلبية والقالبية، قال النبي ﷺ في تفسيره في حديث جبريل عليه السلام «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» والآية على ما في بعض الآثار نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة وفيها من الدلالة على فضل الصابرين ما فيها ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**﴾ أي من كل ما يخل به من الشرك والرياء وغير ذلك؛ أمر عليه الصلاة والسلام ببيان ما أمر به نفسه من الإخلاص في عبادة الله عزَّ وجلّ الذي هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة في حثهم على الإتيان بما كلفوه وتمهيداً لما يعقبه مما خوطب به المشركون.

وعدم التصريح بالآمر لتعين أنه الله عزَّ وجلّ، وقيل: للإشارة إلى أن هذا الأمر مما ينبغي امتثاله سواء صدر منه تعالى أم صدر من غيره سبحانه ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدم المسلمين في الدنيا والآخرة لأن إحراز قصب السبق في الدين بالإخلاص فيه وإخلاصه عليه الصلاة والسلام أتم من اخلاص كل مخلص فالمراد بالأولية الأولية في الشرف والرتبة، والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقييده بالعلة والإشعار بأن العبادة المذكورة كما تقتضي الأمر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق في الدين، وإلى حذف متعلق الأمر وكون اللام تعليلية ذهب البصريون في هذه الآية ونحوها؛ وذهب غيرهم إلى أنها زائدة، واستدل له بتركها في قوله تعالى: ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ [ يونس: ٧٢ ] ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ [ يونس: ١٠٤ ] ﴿وأمرت أن أكون أول من أسلم﴾ [ الأنعام: ١٤ ] وكل ذلك محتمل لتقدير اللام فلا تغفل؛ ولا تزاد إلا مع أن لفظاً أو تقديراً دون الاسم الصريح وذلك لأن الأصل في المفعول به أن يكون اسماً صريحاً فكأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه كما يعوض السين في اسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع، وهذه الزيادة وإن كانت شاذة قياساً إلا أنها لما كثرت استعمالاً جاز استعمالها في القرآن والكلام الفصيح، ومثل هذا يقال في زيادتها مع فعل الإرادة نحو أردت لأن أفعل. وجعل الزمخشري وجه زيادتها معه أنها لما كان فيها معنى الإرادة زيدت تأكيداً لها وجعل وجهاً في زيادتها مع فعل الأمر أيضاً لا سيما والطلب والإرادة عندهم من باب واحدة، وفي المعنى أوجه أن

أكون أول من أسلم في زماني ومن قومي أي إسلاماً على وفق الأمر، وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدى بي قولي وفعلي جميعاً ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعل ما أستحق به الأولية والشرف من أعمال السابقين دلالة على السبب وهي الأعمال التي يستحق بها الشرف بالمسبب وهو الأولية والشرف المذكور في النظم الجليل ذكر ذلك الزمخشري. وفي الكشف المختار من الأوجه الأربعة الوجه الثاني فإنه المكرر الشائع في القرآن الكريم وفيه سائر المعاني الآخر من موافقة القول الفعل ولزوم أولية الشرف من أولية التأسيس مع أنه ليس فيه أنه أمر بأن يكون أشرف وأسبق فافهم ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك، وجوز العموم أي أخاف إن عصيته بشيء من المعاصي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، ووصفه بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال، وهو مجاز في الظرف أو الإسناد وهو أبلغ ولذا عدل عن توصيف العذاب بذاك والمقصود من قول ذلك لهم تهديدهم والتعريض لهم بأنه عليه الصلاة والسلام مع عظمته لو عصى الله تعالى ما أمن من العذاب فكيف بهم ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ﴾ لا غيره سبحانه لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ حال من فاعل ﴿أعبد﴾ فقيل مؤكدة لما أن تقديم المفعول قد أفاد الحصر وهو يدل على اخلاصه عن الشرك الظاهر والخفي، وقيل: مؤسسة وفسر اخلاص الدين له تعالى بعبادته سبحانه لذاته من غير طلب شيء كقول رابعة: سبحانك ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا رجاء ثوابك أو يفسر بتجريده عن الشرك بقسميه وأن يكون معه ما يشينه من غير ذلك كما أشير إليه آنفاً، والفرق بين هذا وقوله سبحانه: ﴿قل إني أمرت﴾ الخ أن ذاك أمر ببيان كونه عليه الصلاة والسلام مأموراً بعبادته تعالى مخلصاً له الدين وهذا أمر بالإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجه وآكده إظهاراً لتصلبه ﷺ في الدين وحسبما لأطماعهم الفارغة حيث أن كفار قريش دعوه ﷺ إلى دينهم فنزلت لذلك وتمهيداً لتهديدهم بقوله عزَّ وجلّ:

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أن تعبدوه ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ عزَّ وجلّ، وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كي يحل بهم العقاب ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي الكاملين في الخسران وهو إضاعة ما بهم واتلاف ما لا بد منه لجمعهم أعاظم أنواع الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ باختيارهم الكفر لهما فالمراد بالأهل أتباعهم الذين أضلوهم أي أضاعوا أنفسهم وأضاعوا أهليهم وأتلفوهما ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حين يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب السرمدي وأوقعوهما في هلكة ما وراءها هلكة؛ ولو أبقى يوم القيامة على ظاهره لأن يتبين فيه أمرهم ويتحقق مبدأ خسرانهم صح على ما قيل، وقيل: المراد بالأهل الاتباع مطلقاً وخسرانهم إياهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروا هم كما خسروا أنفسهم وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا إياب بعده، وتعقب بأن المحذور ذهاب من لو آب لانتفع به الخاسر وذلك غير متصور في الشق الأخير، وقيل: المراد بالأهل ما أعده الله تعالى لمن يدخل الجنة من الخاصة أي وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم في الجنة لو آمنوا، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال: ليس أحد إلا قد أعد الله تعالى له أهلاً في الجنة أن أطاعه، وأخرج نحوه عن مجاهد، وروي أيضاً عن ميمون بن مهران وكلهم ذكروا ذلك في الآية، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال فيها أيضاً: خسروا أهليهم من أهل الجنة كانوا أعدوا لهم لو عملوا بطاعة الله تعالى فغبنوهم، وهو الذي يقتضيه كلام الحسن فقد روي عنه أنه فسر الأهل بالحور العين، ولا يخفى أن حمل الآية على ذلك لا يخلو عن بعد.

وأياً ما كان فليس المراد مجرد تعريف الكاملين في الخسران بما ذكر بل بيان أنهم المخاطبون بما تقدم إما بجعل الموصول عبارة عنهم أو بجعله عبارة عما هم مندرجون فيه اندراجاً أولياً، وما في قوله تعالى: ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ من استئناف الجملة، وتصديرها بحرف التنبيه والإشارة بذلك إلى بعد منزلة المشار إليه في الشر

وأنه لعظمه بمنزلة المحسوس وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران والإتيان به على فعلان الأبلغ من فعل ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هو له وفظاعته وأنه لا نوع من الخسر وراءه ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿**لَهُمْ من فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ منَ النَّار**﴾ إلى آخره نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام على أن ﴿**لهم**﴾ خبر لظلل و ﴿**من**﴾ فوقهم متعلق بمحذوف حال من ضميرها في الظرف المقدم لا منها نفسها لضعف الحال من المبتدأ، وجعلها فاعل الظرف حينئذ اتباع لنظر الأخفش وهو ضعيف، و ﴿**من النار**﴾ صفة لظلل.

والكلام جار مجرى التهكم بهم ولذا قيل لهم وعبر عما علاهم من النار بالظلل أي لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكمة بعضها فوق بعض كائنة من النار ﴿**وَمِنْ تَحتِهِمْ ظُلَلٌ**﴾ كائنة من النار أيضاً، والمراد أطباق كثيرة منها وتسميتها ظللاً من باب المشاكلة. وقيل هي ظلل لمن تحتهم في طبقة أخرى من طبقات النار ولا يطرد في أهل الطبقة الأخيرة من هؤلاء الخاسرين إلا أن يقال: إنها للشياطين ونحوهم مما لا ذكر لهم هنا، وقيل: إن ما تحتهم يلتهب ويتصاعد منه شيء حتى يكون ظلة فسمي ظلة باعتبار ما آل إليه أخيراً وليس بذاك، والمراد أن النار محيطة بهم ﴿**ذَلِكَ**﴾ العذاب الفظيع ﴿**يُخَوِّفُ اللَّهُ به عبَادَهُ**﴾ يذكره سبحانه لهم بآيات الوعيد ليخافوا فيجتنبوا ما يوقعهم فيه، وخص بعضهم العباد بالمؤمنين لأنهم المنتفعون بالتخويف وعمم آخرون.

وكذا في قوله سبحانه: ﴿**يا عباد فاتَّقُون**﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي، ويختلف المراد بالأمر على الوجهين كما لا يخفى، وهذه عظة من الله جل جلاله وعم نواله منطوية على غاية اللطف والرحمة. وقرىء «يا عبادي» بالياء.

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

﴿**والذين اجتنبوا الطَّاغوت**﴾ الخ قال ابن زيد: نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلا الله زيد ابن عمرو بن نفيل وسلمان وأبي ذر، وقال ابن إسحاق: أشير بها إلى عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد والزبير وذلك أنه لما أسلم أبو بكر سمعوا ذلك فجاؤوه وقالوا: أسلمت قال نعم وذكرهم بالله تعالى فآمنوا بأجمعهم فنزلت فيهم وهي محكمة في الناس إلى يوم القيامة، والطاغوت فعلوت من الطغيان كما قالوا لا فاعول كما قيل بتقديم اللام على العين نحو صاعقة وصاقعة، ويدل على ذلك الاشتقاق وأن طوغ وطيغ مهملان.

وأصله طغيوت أو طغووت من الياء أو الواو لأن طغى يطغى ويطغو كلاهما ثابتان في العربية نقله الجوهري، ونقل أن الطغيان والطغوان بمعنى وكذا الراغب، وجمعه على الطواغيت يدل على أن الجمع بني على الواو، وقولهم: من الطغيان لا يريدون به خصوص الياء بل أرادوا المعنى وهو على ما في الصحاح الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال، وقال الراغب: هو عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله تعالى وسمي به الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن الخير ويستعمل في الواحد والجمع.

وقال الزمخشري في هذه السورة: لا يطلق على غير الشيطان، وذكر أن فيه مبالغات من حيث البناء فإن صيغة فعلوت للمبالغة ولذا قالوا الرحموت الرحمة الواسعة، ومن حيث التسمية بالمصدر، ومن حيث القلب فإنه للاختصاص كما في الجاه، وقد أطلقه في النساء على كعب بن الأشرف وقال سمي طاغوتاً لافراطه في الطغيان وعداوة رسول الله ﷺ أو على التشبيه بالشيطان فلعله أراد لا يطلق على غير الشيطان على الحقيقة، وكأنه جعل كعباً على الأول من الوجهين من شياطين الإنس، وفي الكشف كأنه لما رآه مصدراً في الأصل منقولاً إلى العين كثير الاستعمال في الشيطان حكم بأنه حقيقة فيه بعد النقل مجاز في الباقي لظهور العلاقة إما استعارة وإما نظر إلى تناسب المعنى، والذي يغلب على الظن أن الطاغوت في الأصل مصدر نقل إلى البالغ الغاية في الطغيان وتجاوز الحد، واستعماله في فرد من هذا المفهوم العام شيطاناً كان أو غيره يكون حقيقة ويكون مجازاً على ما قرروا في استعمال العام في فرد من أفراده كاستعمال الإنسان في زيد، وشيوعه في الشيطان ليس إلا لكونه رأس الطاغين، وفسره هنا بالشيطان مجاهد، ويجوز تفسيرها بالشياطين جمعاً على ما سمعت عن الراغب ويؤيده قراءة الحسن «اجتنبوا الطواغيت» ﴿**أَنْ يَعْبُدُوهَا**﴾ بدل اشتمال من الطاغوت وعبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان إذ هو الآمر بها والمزين لها، وإذا فسر الطاغوت بالأصنام فالأمر ظاهر ﴿**وأنابوا إلى الله**﴾ وأقبلوا إليه سبحانه معرضين عما سواه إقبالاً كلياً ﴿**لهم البشرى**﴾ بالثواب من الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام أو الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك.

﴿**فبشر عباد الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ مدح لهم بأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح والندب.

وقيل يستمعون أوامر الله تعالى فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو والانتصار والإغضاء والإبداء والإخفاء لقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ [ البقرة: ٢٣٧ ] ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ [ البقرة: ٢٧١ ] والفرق بين الوجهين أن هذا أخص لأنه مخصوص بأوامر فيها تخيير بين راجح وأرجح كالعفو والقصاص مثلاً كأنه قيل يتبعون أحسن القولين الواردين في معين وفي الأول يتبعون الأحسن من القولين مطلقاً كالإيجاب بالنسبة إلى الندب مثلاً.

وعن الزجاج يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل يستمعون القول ممن كان فيتبعون أولاه بالقبول وأرشده إلى الحق ويلزم من وصفهم بذلك أنهم يميزون القبيح من الحسن ويجتنبون القبيح، وأريد بهؤلاء العباد الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم لئلا ينفك النظم فإن قوله تعالى: ﴿**فبشر**﴾ مرتب على قوله سبحانه ﴿**لهم البشرى**﴾ ووضع الظاهر موضع الضمير ليشرفهم تعالى بالإضافة إليه ولتكرير بيان الاستحقاق وليدل على أنهم نقادون حرصاً على إيثار الطاعة ومزيد القرب عند الله تعالى وفيه تحقيق للإنابة وتتميم حسن، وقيل الوقف على «عبادي» فيكون الذين مبتدأ خبره جملة قوله تعالى: ﴿**أولئك الَّذينَ هَداهُمُ الله**﴾ أي لدينه، والكلام استئناف بإعادة صفة من استؤنف عنه الحديث؛ وما تقدم أرجح لما سلف من الفوائد من إقامة الظاهر مقام المضمر والتتميم فإن ذلك دون الوصف لا يتم،

ولأن محرك السؤال المجاب بالجملة بعد قوله تعالى: ﴿**يتبعون أحسنه**﴾ أقوى وذلك الأصل في حسن الاستئناف ﴿**وأولئك هم أولو الألباب**﴾ أي هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية لا غيرهم، وفي الآية دلالة على حط قدر التقليد المحض ولذا قيل:

شمّر وكن في أمور الدين مجتهداً ... ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

واستدل بها على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها كما ذهب إليه الأشاعرة، وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ**﴾ بيان لأضداد المذكورين على طريقة الإجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها كما يلوح به التعبير عنهم بمن حق عليه كلمة العذاب فإن المراد بتلك الكلمة قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ ص: ٨٥ ] والآية على ما قيل نزلت في أبي جهل وأضرابه، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ومن شرطية على ما ذهب إليه الحوفي وغيره وجواب الشرط ﴿**فأنت تنقذ**﴾ الخ والهمزة قبله لاستطالة الكلام على نحو قوله:

لقد علم الحزب اليمانون أنني ... إذا قلت أما بعد أني خطيبها

لأن دخول الهمزة في الجواب أو الشرط كاف تقول: أإن أكرمك تكرمه كما تقول إن أكرمك أتكرمه ولا تكررها فيهما إلا للتأكيد لأن الجملتين أعني الشرط والجزاء بعد دخول الأداة مفردان والاستفهام إنما يتوجه على مضامين الجمل إذا كان المطلوب تصديقاً والإنكار المفاد بالهمزة متعلق بمضمون المعطوف والمعطوف عليه إلا أن المقصود في المعطوف إنكار الجزاء والتقدير أأنت مالك أمر الناس قادر على التصرف فيه فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه على معنى لست أنت مالك أمر الناس ولا أنت تقدر على الإنقاذ بل المالك والقادر على الإنقاذ هو الله عزَّ وجلّ، وعدل عن فأنت تنقذه إلى ما في النظم الكريم لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد مع ما فيه من الإشارة إلى أنه نزل استحقاقهم للعذاب وهم في الدنيا المشعر به الشرط منزلة دخولهم النار وأنه مثل حاله عليه الصلاة والسلام في المبالغة في تحصيل هدايتهم والاجتهاد في دعائهم إلى الإيمان بحال من يريد أن ينقذ من في النار منها. وفي الحواشي الخفاجية نقلاً عن السعد أن في هذه الآية استعارة لا يعرفها إلا فرسان البيان وهي الاستعارة التمثيلية المكنية لأنه نزل ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**أفمن**﴾ الخ من استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار في الآخرة حتى يترتب عليه تنزيلاً بذله عليه الصلاة والسلام جهده في دعائهم إلى الإيمان منزلة إنقاذهم من النار الذي هو من ملائمات دخول النار ثم قال: وقد عرفت من مذهبه أن قرينة المكنية قد تكون تحقيقية كما في نقض العهد انتهى فتأمل.

وقيل: إن النار مجاز عن الضلال من باب إطلاق اسم المسبب على السبب والإنقاذ بدل الهداية من ترشيح المجاز أو مجاز عن الدعاء للإيمان والطاعة وليس بذاك، وجوز أن يكون الجزاء محذوفاً وجملة ﴿**فأنت تنقذ**﴾ الخ مستأنفة مقررة للجملة الأولى والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تخلصه أفأنت تنقذ من في النار.

ولا فرق بين الوجهين في أن الفاء في الأولى للعطف على محذوف ولا في كون المعنى على تنزيل استحقاق العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار وتمثيل حاله عليه الصلاة والسلام في المبالغة في تحصيل هدايتهم بحال من يريد أن ينقذ من في النار منها، نعم الكلام على الأول جملة وعلى الثاني جملتان، واستظهر أبو حيان أن ﴿**من**﴾ موصولة مبتدأ والخبر محذوف، وحكي أن منهم من يقدره يتأسف عليه ومنهم من يقدره يتخلص منه ومنهم من يقدره فأنت تخلصه، ولا يخفى أن التقدير الأخير أولى، وذكر أن النحاة على أن الفاء في مثل هذا التركيب للعطف

وموضعها قبل الهمزة لكن قدمت الهمزة لأن لها صدر الكلام وقال: إن القول بأن كلاً منهما في مكانه قول انفرد به الزمخشري فيما علمنا وفي المغني ترجيح القول بأن الهمزة مقدمة من تأخير وعليه يقدر المعطوف عليه ما أنت مالك أمرهم أو ما أخبر الله تعالى به واقع لا محالة أو كل كافر مستحق للعذاب أو نحو ذلك مما يناسب المعنى المراد.

﴿لكن الَّذينَ اتَّقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ منْ فَوقهَا غُرَفٌ﴾ استدراك بين ما يشبه النقيضين والضدين وهما المؤمنين والكافرون وأحوالهما، والمراد بالذين اتقوا الموصوفون بما عدد من الصفات الفاضلة، والغرف جمع غرفة وهي العلية أي لهم علالي كثيرة جليلة بعضها فوق بعض ﴿مَبنيَّةٌ﴾ قيل: هو كالتمهيد لقوله تعالى: ﴿تَجْري منْ تَحْتهَا﴾ أي من تحت تلك الغرف الفوقانيات والتحتانيات ﴿الأَنْهَارُ﴾ أي مبنية بناءً يتأتى معه جري الأنهار من تحتها وذلك على خلاف علالي الدنيا فيفيد الوصف بذلك أنها سويت تسوية البناء على الأرض وجعلت سطحاً واحداً يتأتى معه جري الأنهار عليه على أن مياه الجنة لما كانت منحدرة من بطنان العرش على ما في الحديث فهي أعلى من الغرف فلا عجب من جري الماء عليها فوقاً وتحتاً لكن لا بد من وضع يتأتى معه الجري فالوصف المذكور لإفادة ذلك.

وقال بعض الأجلة: الظاهر أن هذا الوصف تحقيق للحقيقة وبيان أن الغرف ليست كالظلل حيث أريد بها المعنى المجازي على الاستعارة التهكمية، وقال بعض فضلاء إخواننا المعاصرين: فائدة التوصيف بما ذكر الإشارة إلى رفعة شأن الغرف حيث آذن أن الله تعالى بانيها وماذا عسى يقال في بناء بناه الله جل وعلا.

وأقول والله تعالى أعلم: وصفت الغرف بذلك للإشارة إلى أنها مهيأة معدة لهم قد فرغ من أمرها كما هو ظاهر الوصف لا أنها تبنى يوم القيامة لهم، وفي ذلك من تعظيم شأن المتقين ما فيه، وفي الآية على هذا رد على المعتزلة وكأن الزمخشري لذلك لم يحم حول هذا الوجه واقتصر على ما حكيناه أولاً مع أن ما قلناه أقرب منه فليحفظ.

﴿وَعْدَ الله﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله فإنه وعد أي وعد ﴿لاَ يُخْلفُ الله الْميعَادَ﴾ لما في خلفه من النقص المستحيل عليه عزَّ وجلّ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ منَ السَّماء مَاءً﴾ استئناف وارد إما لتمثيل الحياة الدنيا في سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من أحوال الزرع تحذيراً من الاغترار بزهرتها أو للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته سبحانه وأحكام حكمته ورحمته، والمراد بالماء المطر وبالسماء جهة العلو، وقيل: الأجرام العلوية وكون إنزال المطر منها باعتبار أنه بأسباب ناشئة منها فإن تصاعد الأبخرة وتكون الغيوم بسبب جذب الشمس واختلاف أوضاعها ونحو ذلك من الأسباب التي يعلمها الله تعالى، وأما كون إنزال المطر نفسه من جرم السماء المعروفة نفسها فكثير ما يرتفع سحاب ويمطر مطراً غزيراً وهناك من هو على ذروة جبل لا سحاب عنده ولا مطر والتزام أن المطر في ذلك نازل من جرم السماء أيضاً على السحاب لكن لا يشاهده من هو مشرف على السحاب وواقف فوق الجبل لا يخفى حاله، وقيل: المراد بالماء كل ماء في الأرض، والمراد بالإنزال الإنزال المذكور في مبدأ الخليقة وذلك أنه عزَّ وجلّ لما خلق الأرض خلقها خالية من الماء فأنزل من بحر تحت العرش ماء ﴿فَسَلَكَهُ﴾ فأدخله ﴿يَنَابيعَ في الأَرْض﴾ أي في ينابيع أي عيون ومجاري كائنة في الأرض كالعروق في الأجساد فعلى الأول يقتضي ظاهر الآية أن ماء العيون والقنوات من ماء المطر وعلى الثاني ليس منه، وشاع عن الفلاسفة أن ماء العيون وما يجري مجراها من الأبخرة قالوا: إن البخار إذا احتبس في الأرض يميل إلى جهة وتبرد بها فتنقلب مياه مختلطة بأجزاء بخارية فإذا كثر بحيث لا تسعه الأرض أوجب إنشقاقها فانفجر منها العيون، ورده أبو البركات البغدادي فقال في المعتبر: السبب في العيون وما يجري مجراها هو ما يسيل من الثلوج ومياه الأمطار لأنا نجدها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصانها وأن استحالة الأهوية والأبخرة

المنحصرة في الأرض لا مدخل لها في ذلك فإن باطن الأرض في الصيف أشد برداً منه في الشتاء فلو كان سبب هذه استحالتها لوجب أن تكون العيون والقنوات ومياه الآبار في الصيف أزيد وفي الشتاء أنقص مع أن الأمر بخلاف ذلك على ما دلت عليه التجربة، وقال الميبدي: الحق أن السبب الذي ذكره صاحب المعتبر معتبر لا محالة إلا أنه غير مانع من اعتبار السبب الذي ذكر يعني ما شاع، واحتجاجه في المنع إنما يدل على أنه لا يجوز أن يكون ذلك هو السبب التام لا على أنه لا يجوز أن يكون ذلك سبباً في الجملة اهـ.

وفي شرح المواقف اختلفوا في أن المياه متولدة من أجزاء مائية متفرقة في عمق الأرض إذا اجتمعت أو من الهواء البخاري الذي ينقلب ماء. وهذا الثاني وإن كان ممكناً إلا أن الأول أولى لأن مياه العيون والقنوات والآبار تزيد بزيادة الثلوج والأمطار، والأولى عندي أن يحمل الماء في الآية على المطر ونحوه من الثلج، والآية تدل على أن ذلك الماء يسلكه الله تعالى في ينابيع في الأرض ولا تدل على أن ما في الينابيع ليس إلا ذلك الماء فيجوز أن يكون بعض ما فيها هو الماء المنزل من السماء والبعض الآخر حادثاً من الهواء البخاري بانقلابه ماء بأسباب يعلمها الله عزَّ وجلّ، وحمل الإنزال على الإنزال في مبدأ الخليقة على ما سمعت مع كونه مما لم أقف على خبر صحيح يقتضيه خلاف الظاهر في الآية جداً لأن الخطاب في ﴿ألم تر﴾ عام ولا يتأتى العموم في رؤية ذلك، وكأنه يتعين عليه جعل الخطاب خاصاً بسيد المخاطبين ﷺ والمراد ألم تعلم ذلك بالوحي ومع ذلك لا يخفى حال حمل الآية على ما ذكر، وقريب مما قيل ما حكاه الزمخشري في الآية عن بعض من أن كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع، هذا لكن يعكر على ما اخترناه ظاهر ماأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية: ليس في الأرض ماء إلا ما أنزل الله تعالى من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعد. وأخرج نحوه عن سعيد بن جبير والشعبي، فإن صح هذا الخبر وقلنا إنه في حكم المرفوع فما علينا إذا قلنا بظاهره فالعقل لا يأباه والله تعالى على كل شيء قدير، هذا وجوز أن تكون الينابيع جمع ينبوع بمعنى النابع فإنه كما يطلق على المنبع يطلق على ما ذكر وحينئذ تكون منصوبة على الحال، والمعنى فسلكه مياها نابعة في الأرض، ولا يخلو من الكدر لأنه لو قصد هذا كان الظاهر أن يقال من الأرض وعلى ما هو المشهور يكون ﴿ينابيع﴾ منصوباً بنزع الخافض كما أشرنا إليه. واحتمال كونه منصوباً على المصدرية في إطلاقية بأن يكون الأصل فسلكه سلوكاً في ينابيع أي مجاري فحذف المصدر وأقيم ما هو في موضع الصفة مقامه أو يكون الأصل فسلكه سلوك ينابيع أي مياه نابعة فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه بعيد كما لا يخفى.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ به﴾ أي بواسطته مراعاة للحكمة لا لتوقف الإخراج عليه في نفس الأمر، وقالت الأشاعرة: أي يخرج عنده بلا مدخلية له بوجه من الوجوه سوى المقارنة ﴿زَرْعاً مُخْتلفاً أَلْوَانُهُ﴾ أي أنواعه وأصنافه من بر وشعير وغيرهما أو كيفياته المدركة بالبصر من خضرة وحمرة وغيرهما أو كيفياته مطلقاً من الألوان والطعوم وغيرهما على ما قيل، وشمل الزرع المقتات وغيره، وثم للتراخي في الرتبة أو الزمان، وصيغة المضارع لاستحضاره الصورة ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ييبس، وظاهر كلام أهل اللغة أن هذا معنى حقيقي للهيجان، ويفهم من كلام بعض المفسرين أن يهيج بمعنى يثوب واستعماله بمعنى ييبس من مجاز المشارفة لأن الزرع إذا يبس وتم جفافه يشرف على أن يثور ويذهب من منابته ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾ من بعد خضرته ونضارته. وقرىء «مصفاراً» ﴿ثُمَّ يَجعَلُهُ حُطَاماً﴾ فتاتاً متكسراً كأن لم يغن بالأمس، ولكون هذه الحالة من الآثار القوية علقت بجعل الله تعالى كالإخراج. وقرأ أبو بشر «ثم يَجعَلَهُ» بالنصب قال صاحب الكامل وهو ضعيف ولم يبين وجه النصب، وكأنه إضمار أن كما في قوله:

إني وقتلي سليكاً ثم أعقله

ولا يخفى وجه ضعفه هنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر تفصيلاً، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الغرابة والدلالة على ما قصد بيانه ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيراً عظيماً ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتنبيهاً لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك حال الحياة الدنيا وسرعة تقضيها فلا يغترون ببهجتها ولا يفتنون بفتنتها أو يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء والتصرف به على أتم وجه قادر على إجراء الأنهار من تحت تلك الغرف، وكأن الأول أولى ليكون ما تقدم ترغيباً في الآخرة وهذا تنفيراً عن الدنيا، وقيل المعنى إن في ذلك لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بد لذلك من صانع حكيم وأنه كائن على تقدير وتدبير لا عن تعطيل وإهمال وهو بمعزل عما يقتضيه السياق على أن الأنسب بإرادة ذلك ذكر الآثار غير مسندة إليه عزَّ وجلّ فحيث ذكرت مسندة إليه سبحانه فالظاهر أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شؤونه تعالى أو شؤون آثاره حسبما أشير إليه لا وجوده جل وعلا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولي الألباب، والشرح في الأصل البسط والمد للحم ونحوه ويكنى به عن التوسيع، وتجوز به هنا عن خلق النفس الناطقة مستعدة استعداداً تاماً للقبول بجامع عدم التأبي عن القبول وسهولة الحصول وذلك بعد التجوز في الصدر، وإرادة النفس الناطقة منه من حيث إنه محل للقلب وفي تجويفه بخار لطيف يتكون من صفوة الأغذية وبه تتعلق النفس أولاً وبواسطته تتعلق بسائر البدن تعلق التدبير والتصريف، وتلك النفس هي التي تتصف بالإسلام والإيمان، وجعل بعض الأجلة شرح الله صدره استعارة تمثيلية، والهمزة للإنكار داخلة على محذوف على أحد القولين المارين آنفاً، والفاء للعطف على ذلك المحذوف، وخبر من محذوف لدلالة ما بعده عليه والتقدير أكل الناس سواء فمن شرح الله تعالى صدره وخلقه مستعداً للإسلام فبقي على الفطرة الأصلية ولم تتغير بالعوارض المكتسبة القادحة فيها ﴿فَهُوَ﴾ بموجب ذلك مستقر ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ وهو اللطف الإلهي المشرق عليه من بروج الرحمة عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق كمن قسا قلبه وحرج صدره بتبديل فطرة الله تعالى بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات الغي والضلال فأعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لا يتذكر بها ولا يغتنمها، وعدل عن فعنده أو فله نور إلى ما في النظم الجليل للدلالة على استمرار ذلك واستقراره في النور وهو مستعار للطف والتوفيق للاهتداء، وقد يقال: هو أمر إلهي غير اللطف والتوفيق يدرك به الحق؛ وجاء برواية الثعلبي في تفسيره والحاكم في مستدركه والبيهقي في شعب الإيمان وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أفمن شرح الله صدره﴾ الخ فقلنا: يا رسول الله كيف انشراح الصدر؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح قلنا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ فقال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله. واستشكل ذلك بأن ظاهر الآية ترتب دخول النور على الانشراح، لأنه الاستعداد لقبوله وما في الحديث الشريف عكسه والظاهر أن السؤال عما في الآية وأن الجواب بيان لكيفيته. وأجيب بأن الاهتداء له مراتب بعضها مقدم وبعضها مؤخر وانشراح الصدر بحسب الفطرة والخلق وبحسب ما يطرأ عليه بعد فيض الألطاف عليه وبينهما تلازم، والمراد بانشراح الصدر في الحديث ما يكون بعد التمكن فيه، وفي الآية ما تقدم وقس عليه النور، والجواب من قبيل الأسلوب الحكيم فتأمل.

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي من أجل ذكره سبحانه الذي حقه أن تلين منه القلوب أي إذا ذكر الله تعالى عندهم أو آياته عزَّ وجلّ اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قساوة. وقرىء «عن ذكر الله» والمتواترة أبلغ لأن

القاسي من أجل الشيء أشد تأبياً من قبوله من القاسي عنه بسبب آخر، وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ذكر شرح الصدر لأن توسعته وجعله محلاً للإسلام دون القلب الذي فيه يدل على شدته وافراط كثرته التي فاضت حتى ملأت الصدر فضلاً عن القلب، وإسناده إلى الله تعالى الظاهر في أنه على أتم الوجوه لأنه فعل قادر حكيم وقابله بالقساوة مع أن مقتضى المقابلة أن يعبر بالضيق لأن القساوة كما في الصخرة الصماء تقتضي عدم قبول شيء بخلاف الضيق فإنه مشعر بقبول شيء قليل، وعدل عن التعبير بما يفيد مجعولية القساوة له تعالى وخلقه إياها للإشارة إلى غاية لزومها لهم حتى كأنها لو لم تجعل لتحققت فيهم بمقتضى ذواتهم، وأما إسنادها إلى القلوب دون الصدور فللتنصيص على فساد هذا العضو الذي إذا فسد فسد الجسد كله، واعتبر الجمع في هؤلاء الكفرة والإفراد في أولئك المؤمنين حيث قال سبحانه: ﴿**أفمن شرح الله صدره**﴾ دون أفمن شرح الله صدورهم للإشارة إلى أن المؤمنين وأن تعددوا كرجل واحد ولا كذلك الكفار.

﴿**أُولَئِكَ**﴾ البعداء المتصفون بما ذكر من قساوة القلوب ﴿**فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ ظاهر كونه ضلالاً لكل أحد.

والآية نزلت في علي وحمزة رضي الله تعالى عنهما وأبي لهب وابنه فعلي كرم الله تعالى وجهه وحمزة رضي الله تعالى عنه ممن شرح الله تعالى صدره للإسلام وأبو لهب وابنه من القاسية قلوبهم ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**﴾ هو القرآن الكريم، وكونه حديثاً بمعنى كونه كلاماً محدثاً به لا بمعنى كونه مقابلاً للقديم، ومن قال بالتلازم من الأشاعرة القائلين بحدوث الكلام اللفظي جعل الأوصاف الدالة على الحدوث لذلك الكلام، وجوز أن يكون إطلاق الحديث هنا على القرآن من باب المشاكلة. عن ابن عباس أن قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله حدثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر فنزلت، وعن ابن مسعود أن الصحابة ملوا ملة فقالوا عليه الصلاة والسلام حدثنا فنزلت أي إرشاداً لهم إلى ما يزيل مللهم وهو تلاوة القرآن واستماعه منه ﷺ غضاً طرياً. وفي إيقاع اسم الله تعالى مبتدأ وبناء ﴿**نزل**﴾ عليه تفخيم لأحسن الحديث واستشهاد على أحسنيته وتأكيد لاستناده إلى الله عزَّ وجلّ وأن مثله لا يمكن أن يتكلم به غيره سبحانه، أما التفخيم فلأنه من باب الخليفة عند فلان، وأما الاستشهاد على أحسنيته فلكونه ممن لا يتصور أكمل منه بل لا كمال لشيء ما في جنبه بوجه، وأما توكيد الاستناد إليه تعالى فمن التقوى، وأما أن مثله لا يمكن أن يتكلم به غيره سبحانه فلمكان التناسب لأن أكمل الحديث إنما يكون من أكمل متكلم ضرورة، ومذهب الزمخشري أن مثل هذا التركيب يفيد الحصر وأنه لا تنافي بينه وبين التقوى جمعاً فافهم.

﴿**كتاباً**﴾ بدل من ﴿**أحسن الحديث**﴾ أو حال منه كما قال الزمخشري، وليس مبنياً على القول بأن إضافة أفعل التفضيل تفيده تعريفاً كما ظن أبو حيان فإن مطلق الإضافة كافية في صحة الحالية كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بالعربية، ووقوعه حالاً مع كونه اسماً لا صفة إما لوصفه بقوله تعالى: ﴿**مُتشَابهاً**﴾ أو لكونه في قوة مكتوباً.

والمراد بكونه متشابهاً هنا تشابه معانيه في الصحة والأحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق في المعاد والمعاش وتناسب ألفاظه في الفصاحة وتجاوب نظمه في الإعجاز، وما أشبه هذا بقول العرب في الوجه الكامل حسناً وجه متناصف كأن بعضه أنصف بعضاً في القسط من الجمال، وقوله تعالى: ﴿**مَّثَانِيَ**﴾ صفة أخرى لكتاباً أو حال أخرى منه، وهو جمع مُثَنًّى بضم الميم وفتح النون المشدد على خلاف القياس إذ قياسه مثنيات بمعنى مردد ومكرر لما كرر وثني من أحكامه ومواعظه وقصصه، وقيل: لأنه يثنى في التلاوة.

وجوز أن يكون جمع مثنى بالفتح مخففاً من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قوله تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ [ الملك: ٤ ] بمعنى كرة بعد كرة وكذلك لبيك وسعديك، والمراد أنه جمع لمعنى التكرير والإعادة كما ثنى ما ذكر لذلك لكن استعمال المثنى في هذا المعنى أكثر لأنه أول مراتب التكرار، ويحتمل أن يراد أن مثنى

بمعنى التكرير والإعادة كما أن صريح المثنى كذلك في نحو كرتين ثم جمع للمبالغة، وقيل: جمع مثنية لاشتمال آياته على الثناء على الله تعالى أو لأنها تثنى ببلاغتها واعجازها على المتكلم بها، ولا يخفى أن رعاية المناسبة مع ﴿**متشابهاً**﴾ تجعل ذلك مرجوحاً وأنه حسن إذا حمل على الثناء باعتبار الإعجاز، وفي الكشف الأقيس بحسب اللفظ أن ﴿**مثاني**﴾ اشتقت من الثناء أو الثني جمع مثنى مفعل منهما إما بمعنى المصدر جمع لما صير صفة أو بمعنى المكان في الأصل نقل إلى الوصف مبالغة نحو أرض مأسدة لأن محل الثناء يقع على سبيل المجاز على الثاني والمثنى عليه وكذلك محل الثني انتهى، ووقوعه صفة لكتاب باعتبار تفاصيله وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ألا تراك تقول: القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول: هو أحكام ومواعظ وأقاصيص مثاني ونظيره قولك الإنسان عروق وعظام وأعصاب إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة والأصل كتاباً متشابهاً فصولاً مثاني، ويجوز أن يكون تمييزاً محولاً عن الفاعل والأصل متشابهاً مثانية فحول ونكر لأن الأكثر فيه التنكير وهذا كقولك: رأيت رجلاً حسناً شمائل، وقرأ هشام وأبو بشر «مُثَانِيْ» بسكون الياء فاحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف وإن يكون منصوباً وسكن الياء على لغة من يسكنها في كل الأحوال لانكسار ما قبلها استثقالاً للحركة عليها، وقوله تعالى: ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ قيل صفة لكتاباً أو حال منه لتخصصه بالصفة، وقال بعض: الأظهر أنه استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه بعد بيان أوصافه في نفسه ولتقرير كونه أحسن الحديث.

والاقشعرار التقبض يقال اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً وتركيبه من القشع وهو الأديم اليابس قد ضم إليه الراء ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد يقال: اقشعر جلده وقف شعره إذا عرض له خوف شديد من أمر هائل دهمه بغتة، والمراد تصوير خوفهم بذكر لوازمه المحسوسة ويطلق عليه التمثيل وإن كان من باب الكناية.

وقيل: هو تصوير للخوف بذكر آثاره وتشبيه حالة بحالة فيكون تمثيلاً حقيقة، والأول أحسن لأن تشبيه القصة بالقصة على سبيل الاستعارة هاهنا لا يخلو عن تكلف، واستظهر كون المراد بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق، والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم رهبة وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى عند سماع آيات وعده تعالى وألطافه تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ**﴾ أي ساكنة مطمئنة إلى ذكر رحمته تعالى، وإنما لم يصرح بالرحمة إيذاناً بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى لأصالتها كما يرشد إليه خبر: سبقت رحمتي غضبي، وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها ولعله إنما لم تذكر هناك على طرز ذكرها هنا لأنها لا توصف بالاقشعرار وتوصف باللين، وليس في الآية أكثر من نعت أوليائه باقشعرار الجلود من القرآن ثم سكونهم إلى رحمته عزَّ وجلّ، وليس فيها نعتهم بالصعق والتواجد والصفق كما يفعله بعض الناس، أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرؤوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم قلت: فإن ناساً هاهنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم غشية قالت: أعوذ بالله تعالى من الشيطان، وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن عامر عن عبد الله بن الزبير قال: جئت أمي فقلت وجدت قوماً ما رأيت خيراً منهم قط يذكرون الله تعالى فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله تعالى فقالت: لا تقعد معهم ثم قالت: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا أَفتراهم أخشى من أبي بكر وعمر، وقال ابن عمر وقد رأى ساقطاً من سماع القرآن فقال إنا لنخشى الله تعالى وما نسقط: هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة أنه قال في الآية هذا نعت أولياء الله تعالى قال: تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى ولم ينعتهم الله

سبحانه بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع وإنما هو من الشيطان، وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن جبير: قال الصعقة من الشيطان، وقال ابن سيرين: بيننا وبين هؤلاء الذين يصرعون عند قراءة أن يجعل أحدهم على حائط باسطاً رجليه ثم يقرأ عليهم القرآن كله فإن رمى بنفسه فهو صادق، فهذه أخبار ناعية على بعض المتصوفة صعقهم وتواجدهم وضرب رؤوسهم الأرض عند سماع القرآن ويقول مشايخهم: إن ذلك لضعف القلوب عن تحمل الوارد وليس فاعلو ذلك في الكمال كالصحابة أهل الصدر الأول في قوة التحمل فما هو إلا دليل النقص بدليل أن السالك إذا كمل رسخ وقوي قلبه ولم يصدر منه شيء من ذلك ويقولون: ليس في الآية أكثر من إثبات الاقشعرار واللين وليس فيها نفي أن يعتريهم حال آخر بل في الآية إشعار بأن المذكور حال الراسخين الكاملين حيث قال سبحانه: ﴿**الذين يخشون ربهم**﴾ فعبر بالموصول ومقتضى معلومية الصلة أن لهم رسوخاً في الخشية حتى يعلموا بها فلا يلزم من كون حالهم ما ذكر ليس إلا على فرض دلالتها على الحصر كون حال غيرهم كذلك ثم إنه متى كان الأمر ضرورياً كالعطاس لا اعتراض على من يتصف به، وفي كلام ابن سيرين ما يؤيد ذلك، وهذا غاية ما يقال في هذا المجال ونحن نسأل الله تعالى أن يتفضل علينا بما تفضل به على أصحاب نبيه ﷺ ﴿**ذلكَ هُدَى الله**﴾ الإشارة إلى الكتاب الذي شرح أحواله ﴿**يَهْدي به مَنْ يَشَاءُ**﴾ أي من يشاء الله تعالى هدايته بأن يوفقه سبحانه للتأمل فيما في تضاعيفه من شواهد الحقية ودلائل كونه من عنده عزَّ وجلّ، وجوز أن يكون ضمير ﴿**يشاء**﴾ لمن والمعنى يهدي به الله تعالى من يشاء هداية الله تعالى وليس بذاك.

﴿**وَمَنْ يُضْلل اللَّهُ**﴾ أي يخلق سبحانه فيه الضلال لإعراضه عما يرشده إلى الحق بسوء استعداده ﴿**فَمَا لَهُ من هَاد**﴾ يخلصه من ورطة الضلال، وقيل: الإشارة بذلك إلى المذكور من الاقشعرار واللين والمعنى ذلك الذي ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه تعالى يهدي بذلك الأثر من يشاء من عباده ومن يضلله أي ومن لم يؤثر فيه لقسوة قلبه واصراره على فجوره فما له من هاد أي من مؤثر فيه بشيء قط وهو كما ترى.

أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

﴿**أَفَمَنْ يَتَّقي بوَجْهه سُوءَ الْعَذَاب يَوْمَ الْقيَامَة**﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تباين حال المهتدي والضال، والكلام في الهمزة والفاء والخبر كالذي مر في نظائره، ويقال هنا على أحد القولين: التقدير أكلّ الناس سواء فمن شأنه أن يتقي بوجهه الذي هو أشرف أعضائه يوم القيامة العذاب السيء الشديد لكون يده التي بها كان يتقي المكاره مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه فالوجه على حقيقته وقد يحمل على ذلك من غير حاجة إلى حديث كون اليد مغلولة تصويراً لكمال اتقائه وجده فيه وهو أبلغ، وفي هذا المضمار يجري قول الشاعر:

يلقى السيوف بوجهه وبنحره ويقيم هامته مقام المغفر

وجوز أن يكون الوجه بمعنى الجملة والمبالغة عليه دون المبالغة فيما قبله. وقيل الاتقاء بالوجه كناية عن عدم ما يتقى به الاتقاء بالوجه لا وجه له لأنه مما لا يتقى به، ولا يخلو عن خدش، وإضافة سوء إلى العذاب من إضافة الصفة إلى الموصوف و ﴿يوم القيامة﴾ معمول يتقي كما أشرنا إلى ذلك. وجوز أن يكون من تتمة سوء العذاب، والمعنى أفمن يتقي عذاب يوم القيامة كالمصر على كفره، وهو وجه حسن والوجه حينئذ كما في الوجه السابق إما الجملة مبالغة في تقواه وإما على الحقيقة تصويراً لكمال تقواه وجده فيها وهو أبلغ. والمتبادر إلى الذهن المعنى السابق، والآية قيل نزلت في أبي جهل ﴿وَقيلَ للظَّالمينَ﴾ عطف على يتقي أي ويقال لهم من جهة خزنة النار، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق والتقرر؛ وقيل الواو للحال والجملة حال من ضمير ﴿يتقي﴾ بإضمار قد أو بدونه، ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلة الأمر في قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسبُونَ﴾ أي وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصي.

﴿كَذَّبَ الَّذينَ منْ قَبْلهمْ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوي إثر بيان ما يصيب الكل من العذاب الأخروي أي كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ المقدر لكل أمة منهم ﴿منْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم إتيانه منها لأن ذلك أشد على النفس ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخزْيَ﴾ أي الذل والصغار ﴿في الْحَيَاة الدُّنْيَا﴾ كالمسخ والخسف والقتل والسبي والإجلاء وغير ذلك من فنون النكال، والفاء تفسيرية مثلها في قوله تعالى: ﴿فاستجبنا له فنجيناه﴾ [ الأنبياء: ٧٦ ] ﴿وَلَعَذَابُ الآخرَة﴾ المعد لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدته وسرمديته ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا من شأنهم أن يعلموا شيئاً لعلموا ذلك واعتبروا به ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا للنَّاس في هَذَا الْقُرْآن﴾ العظيم الشأن ﴿منْ كُلِّ مَثَل﴾ يحتاج إليه الناظر أمور دينه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي كي يتذكروا ويتعظوا أو مرجواً تذكرهم واتعاظهم، والرجاء بالنسبة إلى غيره تعالى والتعليل أظهر ﴿قُرْآناً عَرَبيّاً﴾ حال من هذا والاعتماد فيها على الصفة أعني عربياً وإلا فقرآناً جامداً لا يصلح للحالية وهو أيضاً عين ذي الحال فلا يظهر حاله فالحال في الحقيقة ﴿عربياً﴾ وقرآناً للتمهيد ونظيره جاء زيد رجلاً صالحاً، قيل وذلك بمنزلة عربياً محققاً.

وجوز أن يكون منصوباً بمقدر تقديره أعني أو أخص أو أمدح ونحوه، وأن يكون مفعول ﴿يتذكرون﴾ وهو كما ترى ﴿غَيرَ ذي عوَج﴾ لا اختلال فيه بوجه من الوجوه وهو أبلغ من مستقيم لأن عوجاً نكرة وقعت في سياق النفي لما في غير من معناه، والاستقامة يجوز أن تكون من وجه دون وجه ونفي مصاحبة العوج عنه يقتضي نفي اتصافه به بالطريق الأولى فهو أبلغ من غير معوج، والعوج بالكسر يقال فيما يدرك بفكر وبصيرة والعوج بالفتح يقال فيما يدرك بالحس، وعبر بالأول ليدل على أنه بلغ إلى حد لا يدرك العقل فيه عوجاً فضلاً عن الحس، وتمام الكلام مر في الكهف. وقيل المراد بالعوج الشك واللبس، وروي ذلك عن مجاهد وأنشدوا قول الشاعر:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكذوب

ولا استدلال به على أن العوج بمعنى الشك لأن عوج اليقين هو الشك لا محالة، والقول في وجه الاستدلال أن الشاعر فهم هذا المعنى من الآية لأنه اقتباس وإذا فهمه الفصيح مع صحة التجوز كان محملاً تعسف ظاهر لأنه لم يتبين أنه اقتبسه منها ولو سلم يكون محتملاً لما يحتمله العوج في النظم الذي لا عوج فيه، وقد يقال: مراد من قال أي

لا لبس فيه ولا شك نفي بعض أنواع الاختلال، وعلى ذلك ما روي عن عثمان بن عفان من أنه قال: أي غير مضطرب ولا متناقض وما قيل أي غير ذي لحن. وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: غير ذي عوج غير مخلوق ولعله إن صح الخبر تفسير باللازم فتأمل. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ علة أخرى مترتبة على الأولى.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتشَاكسُونَ﴾ إيراد لمثل من الأمثال القرآنية بعد بيان أن الحكمة في ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى، والمراد بضرب المثل هاهنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها، و ﴿مثلاً﴾ مفعول ثان لضرب و ﴿رجلاً﴾ مفعوله الأول أخر عن الثاني للتشويق إليه وليتصل به ما هو من تتمته التي هي العمدة في التمثيل أو ﴿مثلاً﴾ مفعول ضرب و ﴿رجلاً﴾ الخ بدل منه بدل كل من كل.

وقال الكسائي: انتصب ﴿رجلاً﴾ على إسقاط الخافض أي مثلاً في رجل وقيل غير ذلك وقد تقدم الكلام في نظيره.

و ﴿فيه﴾ خبر مقدم و ﴿شركاء﴾ مبتدأ و ﴿متشاكسون﴾ صفته والنكرة وإن وصفت يحسن تقديم خبرها. والجملة صفة ﴿رجلاً﴾ والرابط الهاء أو الجار والمجرور في موضع الصفة له و ﴿شركاء﴾ مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف، وقيل ﴿فيه﴾ صلة شركاء وهو مبتدأ خبره متشاكسون، وفيه أنه ليس لتقديمه نكتة ظاهرة.

والمعنى ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك حسبما يقود إليه مذهبه من ادعاء كل من معبوديه عبوديته عبداً يتشارك فيه جماعة متشاجرون لشكاسة أخلاقهم وسوء طبائعهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المتباينة في تحيره وتوزع قلبه ﴿وَرَجُلاً﴾ أي وضرب للموحد مثلاً رجلاً ﴿سَلَماً﴾ أي خالصاً ﴿لرَجُل﴾ فرد ليس لغيره سبيل إليه أصلاً فهو في راحة عن التحير وتوزع القلب وضرب الرجل مثلاً لأنه أفطن لما شقي به أو سعد فإن الصبي والمرأة قد يغفلان عن ذلك.

وقرأ عبد الله وابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والزهري والحسن بخلاف عنه والجحدري وابن كثير وأبو عمرو «سالماً» اسم فاعل من سلم أي خالصاً له من الشركة. وقرأ ابن جبير «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام، وقرىء «سَلْماً» بفتح فسكون وهما مصدران وصف بهما مبالغة في الخلوص من الشركة.

وقرىء «ورجلٌ سالمٌ» برفعهما أي وهناك رجل سالم، وجوز أن لا يقدر شيء ويكون رجل مبتدأ وسالم خبره لأنه موضع تفصيل إذ قد تقدم ما يدل عليه فيكون كقول امرىء القيس:

إذا ما بكى من خلفها انحرفت له ... بشق وشق عندنا لم يحول

وقوله تعالى: ﴿هَل يَسْتَوِيَان مَثَلاً﴾ انكار واستبعاد لاستوائهما ونفي له على أبلغ وجه وآكده وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم في الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما في لوم وعناء والآخر في راحة بال ورضاء، وقيل ضرورة أن أحدهما في أعلى عليين والآخر في أسفل سافلين، وأياً ما كان فالسر في إبهام الفاضل والمفضول الإشارة إلى كمال الظهور عند من له أدنى شعور.

وانتصاب ﴿مثلاً﴾ على التمييز المحول عن الفاعل إذ التقدير هل يستوي مثلهما وحالهما، والاقتصار في التمييز على الواحد لبيان الجنس والاقتصار عليه أولاً في قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ وقرىء «مثلين» أي هل يستوي مثلاهما وحالاهما، وثني مع أن المقصود من التمييز حاصل بالإفراد من غير لبس لقصد الإشعار بمعنى زائد وهو اختلاف النوع، وجوز أن يكون ضمير يستويان للمثلين لأن التقدير فيما سبق مثل رجل ومثل رجل أي هل يستوي المثلان مثلين وهو على نحو كفى بهما رجلين وهو من باب ـ لله تعالى دره فارساً ـ ويرجع ذلك إلى هل يستويان

رجلين فيما ضرب من المثال ولما كان المثل بمعنى الصفة العجيبة التي هي كالمثل كان المعنى هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية، وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله﴾ تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة تقتضي الدوام على حمده تعالى وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عزَّ وجلّ مستوجب لحمده تعالى وعبادته، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ اضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره أو ليسوا من ذوي العلم فلا يعلمون ذلك فيبقون في ورطة الشرك والضلال، وقيل المراد أنهم لا يعلمون أن الكل منه تعالى وأن المحامد إنما هي له عزَّ وجلّ فيشركون به غيره سبحانه فالكلام من تتمة ﴿الحمد لله﴾ ولا اعتراض، ولا يخفى أن بناء الكلام على الاعتراض كما سمعت أولى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة. وفي البحر أنه لما لم يلتفتوا إلى الحق ولم ينتفعوا بضرب المثل أخبر سبحانه بأن مصير الجميع بالموت إلى الله تعالى وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو عزَّ وجلّ الحكم العدل فيتميز هناك المحق والمبطل.

وقال بعض الأجلة: إنه لما ذكرت من أول السورة إلى هنا البراهين القاطعة لعرق الشركة المسجلة لفرط جهل المشركين وعدم رجوعهم مع جهده ﷺ في ردهم إلى الحق وحرصه على هدايتهم اتجه السؤال منه عليه الصلاة والسلام بعد ما قاساه منهم بأن يقول ما حالي وحالهم؟ فأجيب بأنك ميت وأنهم ميتون الآية.

وقرأ ابن الزبير وابن أبي إسحاق وابن محيصن وعيسى واليماني وابن أبي غوث وابن أبي عبلة «إنك مائت وإنهم مائتون» والفرق بين ميت ومائت أن الأول صفة مشبهة وهي تدل على الثبوت ففيها إشعار بأن حياتهم عين الموت وأن الموت طوق في العنق لازم والثاني اسم فاعل وهو يدل على الحدوث فلا يفيد هنا مع القرينة أكثر من أنهم سيحدث لهم الموت، وضمير الخطاب على ما سمعت للرسول ﷺ قال أبو حيان: ويدخل معه عليه الصلاة والسلام مؤمنو أمته، وضمير الجمع الغائب للكفار وتأكيد الجملة في ﴿إنهم ميتون﴾ للإشعار بأنهم في غفلة عظيمة كأنهم ينكرون الموت وتأكيد الأولى دفعاً لاستبعاد موته عليه الصلاة والسلام، وقيل للمشاكلة، وقيل إن الموت مما تكرهه النفوس وتكره سماع خبره طبعاً فكان مظنة أن لا يلتفت إلى الإخبار به أو أن ينكر وقوعه ولو مكابرة فأكد الحكم بوقوعه لذلك ولا يضر في ذلك عدم الكراهة في بعض لخصوصية فيه كسيد العالمين ﷺ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليب المخاطب على الغيب.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي مالك أموركم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التي من جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات واجتهدت في دعوتهم إلى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجوا في المكابرة والعناد ويعتذرون بالأباطيل مثل ﴿أطعنا سادتنا﴾ [ الأحزاب: ٦٧ ] و ﴿وجدنا آباءنا﴾ [الأنبياء: ٥٣، الشعراء: ٧٤ ] و ﴿غلبت شقوتنا﴾ [ المؤمنون: ١٠٦ ] والجمع بين ﴿يوم القيامة﴾ ﴿عند ربكم﴾ لزيادة التهويل ببيان أن اختصامهم ذلك في يوم عظيم عند مالك لأمورهم نافذ حكمه فيهم ولو اكتفى بالأول لاحتمل وقوع الاختصام فيما بينهم بدون مرافعة وبمرافعة لكن ليست لدى مالك لأمورهم، والاكتفاء بالثاني على تسليم فهم كون ذلك يوم القيامة معه بدون احتمال لا يقوم مقام ذكرهما لما في التصريح بما هو كالعلم من التهويل ما فيه، وقال جمع: المراد بذلك الاختصام العام فيما جرى في الدنيا بين الأنام لا خصوص الاختصام بينه عليه الصلاة والسلام وبين الكفرة الطغام، وفي الآثار ما يأبى الخصوص المذكور.

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن عساكر عن إبراهيم النخعي قال: نزلت هذه الآية ﴿**إنك ميت**﴾ الخ فقالوا: وما خصومتنا ونحن إخوان فلما قتل عثمان بن عفان قالوا هذه خصومة ما بيننا وأخرج سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿**ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾ كنا نقول: ربنا واحد وديننا واحد فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين من قبل ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قلنا: كيف نختصم ونبينا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فينا، وفي رواية أخرى عنه بلفظ نزلت علينا الآية ﴿**ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾ وما ندري فيم نزلت قلنا: ليس بيننا خصومة فما التخاصم حتى وقعت الفتنة فقلت: هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه.

وأخرج أحمد وعبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وصححه. وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في البعث والنشور عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾ قلت: يا رسول الله أينكر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال: نعم ينكر ذلك عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه قال الزبير: فوالله إن الأمر لَشديد.

وزعم الزمخشري أن الوجه الذي يدل عليه كلام الله تعالى هو ما ذكر أولاً واستشهد بقوله تعالى: ﴿**فمن أظلم**﴾ الخ وبقوله سبحانه: ﴿**والذي جاء بالصدق**﴾ الخ لدلالتهما على أنهما اللذان تكون الخصومة بينهما، وكذلك ما سبق من قوله تعالى: ﴿**ضرب الله مثلاً رجلاً**﴾ الخ. وتعقب ذلك في الكشف فقال: أقول قد نقل عن جلة الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم ما يدل على أنهم فهموا الوجه الثاني أي العموم بل ظاهر قول النخعي قالت الصحابة: ما خصومتنا ونحن إخوان يدل على أنه قول الكل فالوجه إيثار ذلك.

وتحقيقه أن قوله تعالى: ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن**﴾ كلام مع الأمة كلهم موحدهم ومشركهم وكذلك قوله تعالى ضرب الله مثلاً رجلاً ورجلاً بل أكثرهم دون بل هم كالنص على ذلك فإذا قيل: إنك ميت وجب أن يكون على نحو ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم﴾ [ الطلاق: ١ ] أي إنكم أيها النبي والمؤمنون وأبهم ليعم القبيلين ولا يتنافر النظم فقد روعي من مفتتح السورة إلى هذا المقام التقابل بين الفريقين لا بينه عليه الصلاة والسلام وحده وبين الكفار ثم إذا قيل: ﴿**ثم إنكم**﴾ على التغليب يكون تغليباً للمخاطبين على جميع الناس فهذا من حيث اللفظ والمساق الظاهر ثم إذا كان الموت أمراً عمه والناس جميعاً كان المعنى عليه أيضاً، وأما حديث الاختصام والطباق الذي ذكره فليس بشيء لأنه لعمومه يشمله شمولاً أولياً كما حقق هذا المعنى مراراً. والتعقيب بقوله تعالى: ﴿**فمن أظلم**﴾ التنبيه على أنه مصب الغرض وأن المقصود التسلق إلى تلك الخصومة، ولا أنكر أن قوله تعالى: ﴿**عند ربكم**﴾ يدل على أن الاختصام يوم القيامة ولكن أنكر أن يختص باختصام النبي ﷺ وحده والمشركين بل يتناوله أولاً وكذلك اختصام المؤمنين والمشركين واختصام المؤمنين بعضهم مع بعض كاختصام عثمان رضي الله تعالى عنه يوم القيامة وقاتليه، وهذا ما ذهب إليه هؤلاء وهم هم رضي الله تعالى عنهم انتهى، وكأنه عنى بقوله ولا أنكر الخ رد ما يقال إن ﴿**عند ربكم**﴾ يدل على أن الاختصام يوم القيامة، وقد صرح في النظم الجليل بذلك فيكون تأكيداً مشعراً بالاهتمام بأمر ذلك الاختصام فليس هو إلا اختصام حبيبه ﷺ مع أعدائه الطغام، ووجه الرد أنه ان سلم أن فائدة

الجمع ما ذكر فلا نسلم استدعاء ذلك لاعتبار الخصوص بل يكفي للاهتمام دخول اختصام الحبيب مع أعدائه عليه الصلاة والسلام فتأمله، ثم أنت تعلم أنه لو لم يكن في هذا المقام سوى الحديث الصحيح المرفوع لكفى في كون المراد عموم الاختصام فالحق القول بعمومه وهو أنواع شتى، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال في الآية: يخاصم الصادق الكاذب والمظلوم الظالم والمهتدي الضال والضعيف المستكبر، وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند لا بأس به عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كان لزوجها وتشهد يداه ورجلاه بما كان لها ثم يدعي الرجل وخادمه بمثل ذلك ثم يدعي أهل الأسواق وما يوجد ثم دانق ولا قراريط ولكن حسنات هذا تدفع إلى هذا الذي ظلمه وسيئات هذا الذي ظلمه توضع عليه ثم يؤتى بالجبارين في مقامع من حديد فيقال أوردوهم إلى النار فوالله ما أدري يدخلونها أو كما قال الله ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ وأخرج البزار عن أنس قال: «قال رسول الله ﷺ يجاء بالأمير الجائر فتخاصمه الرعية» وأخرج أحمد والطبراني بسند حسن عن عقبة بن عامر قال: «قال رسول الله ﷺ أوّل خصمين يوم القيامة جاران» ولعل الأولية إضافية لحديث أبي أيوب السابق.

وجاء عن ابن عباس اختصام الروح مع الجسد أيضاً بل أخرج أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ ليختصمن يوم القيامة كل شيء حتى الشاتان فيما انتطحا».

«تم الجزء الثالث والعشرون ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع والعشرون وأوله ﴿**فمن أظلم**﴾»

# الجزء الرابع والعشرون

# بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ
رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى
ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ
رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ
إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾
إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ
وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ
ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ
ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ
ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

**﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى الله﴾** بأن أضاف إليه سبحانه وتعالى الشريك أو الولد **﴿وَكَذَّبَ بالصِّدْق﴾** أي بالأمر الذي هو عين الحق ونفس الصدق وهو ما جاء به النبي ﷺ **﴿إِذْ جَاءَهُ﴾** أي في أول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل ـ فإذ ـ فجائية كما صرح به الزمخشري لكن اشترط فيها في المغني أن تقع بعد بينا أو بينما ونقله عن

سيبويه فلعله أغلبي، وقد يقال: هذا المعنى يقتضيه السياق من غير توقف على كون إذ فجائية، ثم المراد أن هذا الكاذب المكذب أظلم من كل ظالم ﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ**﴾ أي لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وتعالى وسارعوا إلى التكذيب بالصدق، ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالكفر، والجمع باعتبار معنى ﴿**من**﴾ كما أن الإفراد في الضمائر السابقة باعتبار لفظها أو لجنس الكفرة فيشمل أهل الكتاب ويدخل هؤلاء في الحكم دخولاً أولياً، وأياً ما كان فالمعنى على كفاية جهنم مجازاة لهم كأنه قيل: أليست جهنم كافية للكافرين مثوى كقوله تعالى: ﴿حسبهم جهنم يصلونها﴾ [ المجادلة: ٨ ] أي هي تكفي عقوبة لكفرهم وتكذيبهم، والكفاية مفهومة من السياق كما تقول لمن سألك شيئاً: ألم أنعم عليك تريد كفاك سابق إنعامي عليك، واستدل بالآية على تكفير أهل البدع لأنهم مكذبون بما علم صدقه.

وتعقب بأن «من كذب» مخصوص بمن كذب الأنبياء شفاهاً في وقت تبليغهم لا مطلقاً لقوله تعالى: ﴿**إذ جاءه**﴾ ولو سلم إطلاقه فهم لكونهم يتأولون ليسوا مكذبين وما نفوه وكذبوه ليس معلوماً صدقه بالضرورة إذ لو علم من الدين ضرورة كان جاحده كافراً كمنكر فرضية الصلاة ونحوها.

وقال الخفاجي: الأظهر أن المراد تكذيب الأنبياء عليهم السلام بعد ظهور المعجزات في أن ما جاؤوا به من عند تعالى لا مطلق التكذيب، وكأني بك تختار أن المتأول غير مكذب لكن لا عذر في تأويل ينفي ما علم من الدين ضرورة ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ**﴾ الموصول عبارة عن رسول الله ﷺ كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس، وفسر الصدق بلا إله إلا الله، والمؤمنون داخلون بدلالة السياق وحكم التبعية دخول الجند في قولك: نزل الأمير موضع كذا، وليس هذا من الجمع بين الحقيقة والمجاز في شيء لأن الثاني لم يقصد من حاق اللفظ، ولا يضر في ذلك أن المجيء بالصدق ليس وصفًا للمؤمنين الأتباع كما لا يخفى، والموصول على هذا مفرد لفظاً ومعنى، والجمع في قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ باعتبار دخول الأتباع تبعاً، ومراتب التقوى متفاوتة ولرسول الله ﷺ أعلاها، وجوز أن يكون الموصول صفة لمحذوف أي الفوج الذي أو الفريق الذي الخ فيكون مفرد اللفظ مجموع المعنى فقيل: الكلام حينئذ على التوزيع لأن المجيء بالصدق على الحقيقة له عليه الصلاة والسلام والتصديق بما جاء به وأن عمه وأتباعه ﷺ لكنه فيهم أظهر فليحمل عليه للتقابل، وفي الكشف الأوجه أن لا يحمل على التوزيع غاية ما في الباب أن أحد الوصفين في أحد الموصوفين أظهر، وعليه يحمل كلام الزمخشري الموهم للتوزيع، وحمل بعضهم الموصول على الجنس فإن تعريفه كتعريف ذي اللام يكون للجنس والعهد، والمراد حينئذ به الرسل والمؤمنون.

وأيد إرادة ما ذكر بقراءة ابن مسعود ﴿**والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به**﴾ وزعم بعضهم أنه أريد والذين فخذفت النون كما في قوله:

إن الذي حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم مالك

وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بصحيح لوجوب جمع الضمير في الصلة حينئذ كما في البيت ألا ترى أنه إذا حذفت النون من اللذان كان الضمير مثنى كقوله:

ابني كليب إنّ عميَّ اللذا ... قتلا الملوك وفككا الاغلالا

وقال علية وأبو العالية والكلبي. وجماعة ﴿**الذي جاء بالصدق**﴾ هو الرسول ﷺ والذي صدق به هو أبو بكر رضي الله تعالى عنه. وأخرج ذلك ابن جرير والباوردي في معرفة الصحابة وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان وله

صحبة عن علي كرم الله تعالى وجهه، وقال أبو الأسود ومجاهد في رواية وجماعة من أهل البيت وغيرهم: الذي صدق به هو علي كرم الله تعالى وجهه وأخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أنه قال: ﴿**الذي جاء بالصدق**﴾ جبريل عليه السلام ﴿**وصدق به**﴾ هو النبي ﷺ، قيل: وعلى الأقوال الثلاثة يقتضي اضمار الذي وهو غير جائز على الأصح عند النحاة من أنه لا يجوز حذف الموصول وإبقاء صلته مطلقاً أي سواء عطف على موصول آخر أم لا.

ويضعفه أيضاً الإخبار عنه بالجمع. وأجيب بأنه لا ضرورة إلى الإضمار ويراد بالذي الرسول ﷺ والصديق أو علي كرم الله تعالى وجههما معاً على أن الصلة للتوزيع، أو يراد بالذي جبريل عليه السلام والرسول ﷺ معاً كذلك، وضمير الجمع قد يرجع إلى الاثنين وقد أريدا بالذي، ولا يخفى ما ذلك من التكلف والله تعالى أعلم بحال الإخبار، ولعل ذكر أبي بكر مثلاً على تقدير الصحة من باب الاقتصار على بعض أفراد العام لنكتة وهي في أبي بكر رضي الله تعالى عنه كونه أول من آمن وصدق من الرجال، وفي علي كرم الله تعالى وجهه كونه أول من آمن وصدق من الصبيان، ويقال نحو ذلك على تقدير صحة خبر السدي ولا يكاد يصح لقوله تعالى: فيما بعد ﴿**ليكفر**﴾ الخ، وبما ذكر يجمع بين الأخبار إن صحت ولا يعتبر في شيء منها الحصر فتدبر. وقرأ أبو صالح وعكرمة بن سليمان «وصَدَق بِهِ» مخففاً أي وصدق به الناس ولم يكذبهم به يعني. أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف فالمفعول محذوف لأن الكلام في القائم به الصادق وفي الحديث الصدق، والكلام على العموم دون خصوصه عليه الصلاة والسلام فإن جملة القرآن حفظه الصحابة عنه عليه الصلاة والسلام وأدوه كما أنزل، وقيل: المعنى وصار صادقاً به أي بسببه لأن القرآن معجز والمعجز يدل على صدق النبي عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا فالوصف خاص، وقد تجوز في ذلك باستعمال (صدق) بمعنى صار صادقاً به ولا كناية فيه كما قيل، وقال أو صالح: أي وعمل به وهو كما ترى. وقرىء «وصُدِّقَ بِهِ» مبنياً للمفعول مشدداً ﴿**لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ بيان لما لأولئك الموصوفين بالمجيء بالصدق. والتصديق به في الآخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم في الدنيا من حسن الأعمال أي لهم كل ما يشاؤونه من جلب المنافع ودفع المضار في الآخرة لا في الجنة فقط لما أن بعض ما يشاؤونه من تكفير السيئات والأمن من الفزع الأكبر وسائر أهوال القيامة إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤونه ﴿**جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**﴾ أي الذين أحسنوا أعمالهم، والمراد بهم أولئك المحدث عنهم لكن أقيم الظاهر مقام الضمير تنبيهاً على العلة لحصول الجزاء، وقيل: المراد ما يعمهم وغيرهم ويدخلون دخولاً أولياً، وقوله تعالى: ﴿**لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا**﴾ الخ متعلق بمحذوف أي ليكفر الله عنهم ويجزيهم خصهم سبحانه بما خص أو بما قبله باعتبار فحواه على ما قيل أي وعدهم الله جميع ما يشاؤونه من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذي عملوا الخ، وليس ببعيد معنى عن الأول، وجوز أن يكون متعلقاً بقوله سبحانه: ﴿**وذلك جزاء المحسنين**﴾ أي بما يدل عليه من الثبوت أو بالمحسنين كما قال أبو حيان فكأنه قيل: وذلك جزاء الذين أحسنوا أعمالهم ليكفر الله تعالى عنهم أسوأ الذي عملوه ﴿**وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ**﴾ ويعطيهم ثوابهم ﴿**بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ وتقديم التكفير على إعطاء الثواب لأن درء المضار أهم من جلب المسار.

وأقيم الاسم الجليل مقام الضمير الراجع إلى ﴿**ربهم**﴾ لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام، وإضافة ﴿**أسوأ**﴾ و ﴿**أحسن**﴾ إلى ما بعدهما من إضافة افعل التفضيل إلى غير المفضل عليه للبيان والتوضيح كما في الأشج أعدل بني مروان ويوسف أحسن أخوته، والتفضيل على ما قال الزمخشري للدلالة على أن الزلة المكفرة عندهم هي الأسوأ

لاستعظامهم المعصية مطلقاً لشدة خوفهم، والحسن الذي يعملونه عند الله تعالى هو الأحسن لحسن اخلاصهم فيه.

وذلك على ما قرر في الكشف لأن التفضيل هنا من باب الزيادة المطلقة من غير نظر إلى مفضل عليه نظراً إلى وصوله إلى أقصى الغاية الكمالية، ثم لما كانوا متقين كاملي التقى لم يكن في عملهم أسوأ إلا فرضاً وتقديراً.

وقوله سبحانه: ﴿**بأحسن الذي كانوا يعملون**﴾ دون أحسن الذي كانوا يعملون يدل على أن حسنهم عند الله تعالى من الأحسن لدلالته على أن جميع أجرهم يجري على ذلك الوجه فلو لم يعملوا إلا الأحسن كان التفضيل بحسب الأمر نفسه ولو كان في العمل الأحسن والحسن وكان الجزاء بالأحسن بأن ينظر إلى أحسِن الأعمال فيجري الباقي في الجزاء على قياسه دل على أن الحسن عند المجازي كالأحسن، فصح على التقديرين أن حسنهم عند الله تعالى هو الأحسن، ويعلم من هذا أن لا اعتزال فيما ذكره الزمخشري كما توهمه أبو حيان، وأما قوله في الاعتراض عليه: إنه قد استعمل (أسوأ) في التفضيل على معتقدهم و ﴿**أحسن**﴾ في التفضيل على ما هو عند الله عزَّ وجلّ وذلك توزيع في أفعل التفضيل وهو خلاف الظاهر. فقد يسلم إذا لم يكن في الكلام ما يؤذن بالمغايرة فحيث كان فيه ها هنا ذلك على ما قرر لا يسلم أن التوزيع خلاف الظاهر، وقيل: إن ﴿**أسوأ**﴾ على ما هو الشائع في أفعل التفضيل، وليس المراد أن لهم عملاً سيئاً وعملاً أسوأ والمكفر هو الأسوأ فإنهم المتقون الذين وإن كانت لهم سيئات لا تكون سيئاتهم من الكبائر العظيمة، ولا يناسب التعرض لها في مقام مدحهم بل الكلام كناية عن تكفير جميع سيئاتهم بطريق برهاني، فإن الأسوأ إذا كفر كان غيره أولى بالتكفير لا أن ذلك صدر منهم، ولا نسلم وجوب تحقق المعنى الحقيقي في الكناية وهو كما ترى، وقال غير واحد: أفعل على ما هو الشائع والأسوأ الكفر السابق على التقوى والإحسان، والمراد تكفير جميع ما سلف منهم قبل الإيمان من المعاصي بطريق برهاني.

وعلى هذا لا يتسنى تفسير ﴿**وصدق به**﴾ بعلي كرم الله تعالى وجهه إذ لم يسبق له كفر أصلي ولا يكاد يعبر عن الكفر التبعي بأسوأ العمل، وقيل: افعل ليس للتفضيل أصلاً فأسوأ بمعنى السيىء صغيراً كان أو كبيراً كما هو وجه أيضاً في الأشج أعدل بني مروان، وأيد بقراءة ابن مقسم وحامد بن يحيى عن ابن كثير رواية عن البزي عنه «أسواء» بوزن أفعال جمع سوء؛ وأحسن عند أكثر أهل هذه الأقوال على بابه على معنى أنه تعالى ينظر إلى أحسن طاعاتهم فيجزي سبحانه الباقي في الجزاء على قياسه لطفاً وكرماً، وزعم الطبرسي أن الأحسن الواجب والمندوب والحسن المباح والجزاء إنما هو على الأولين دون المباح، وقيل: المراد يجزيهم بأحسن من عملهم وهو الجنة، وفيه ما فيه، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في صلة الموصول الثاني دون الأول للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيئة.

﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ إنكار ونفي لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها أو يتلعثم في الجواب بوجودها، والمراد ـ بعبده ـ إما رسول الله ﷺ على ما روي عن السدي وأيد بقوله تعالى: ﴿**وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**﴾ أي الأوثان التي اتخذوها آلهة؛ فإن الخطاب سواء كانت الجملة استئنافاً أو حالاً له ﷺ: وقد روي أن قريشاً قالت له عليه الصلاة والسلام: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا وتصيبك معرتها لعيبك إياها فنزلت، وفي رواية قالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منها خبل فنزلت، أو الجنس المنتظم له عليه الصلاة والسلام انتظاماً أولياً، وأيد بقراءة أبي جعفر ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي «عباده» بالجمع وفسر بالأنبياء عليهم السلام والمؤمنين، وعلى الأول يراد أيضاً الاتباع كما سمعت في قوله تعالى: ﴿**والذي جاء بالصدق وصدق به**﴾، ﴿**ويخوفونك**﴾ شامل لهم أيضاً على ما سلف والتئام الكلام بقوله

تعالى: ﴿فمن أظلم﴾ إلى هذا المقام لدلالته على أنه تعالى يكفي نبيه ﷺ مهم دينه ودنياه ويكفي أتباعه المؤمنين أيضاً المهمين وفيه أنه سبحانه يكفيهم شر الكافرين من وجهين من طريق المقابلة ومن أنه داخل في كفاية مهمي الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه، وهذا ما تقتضيه البلاغة القرآنية ويلائم ما بني عليه السورة الكريمة من ذكر الفريقين وأحوالهما توكيداً لما أمر به أولاً من العبادة والإخلاص وقرىء «بكافي عباده» بالإضافة و «يكافي عباده» مضارع كافي ونصب «عبادَه» فاحتمل أن يكون مفاعلة من الكفاية كقولك: يجاري في يجري وهو أبلغ من كفى لبنائه على لفظ المبالغة وهو الظاهر لكثرة تردد هذا المعنى في القرآن نحو ﴿فسيكفيكهم الله﴾ [ البقرة: ١٣٧ ] ويحتمل أن يكون مهموزاً من المكافأة وهي المجازاة، ووجه الارتباط أنه تعالى لما ذكر حال من كذب على الله وكذب بالصدق وجزاءه وحال مقابله أعني الذي جاء بالصدق وصدق به وجزاءه وعرض بقوله سبحانه: ﴿ذلك جزاء المحسنين﴾ بأن ما سلف جزاء الكافرين المسيئين لما هو معروف من فائدة البناء على اسم الإشارة ثم عقبه تعالى بقوله عزَّ وجلّ: ﴿ليكفر﴾ الخ على معنى ليكفر عنهم ويجزيهم خصهم بما خص فنبه على المقابل أيضاً من ضرورة الاختصاص والتعليل، وفيه أيضاً ما يدل على حكم المقابل على اعتبار المتعلق غير ما ذكر كما يظهر بأدنى التفات أردف بقوله تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ وحيث إن مطمح النظر من العباد السيد الحبيب ﷺ كان المعنى الله تعالى يجازي عبده ونبيه عليه الصلاة والسلام هذا الجزاء المذكور وفيه أنه الذي يجزيه البتة ويلائمه قوله تعالى: ﴿ويخوفونك﴾ فإنه لما كان في مقابلة ذم آلهتهم كما سمعت في سبب النزول كان تحذيراً من جزاء الآلهة فلا مغمز بعدم الملاءمة. نعم لا ننكر أن معنى الكفاية أبلغ كما هو مقتضى القراءة المشهورة فاعلم ذاك والله تعالى يتولى هداك.

﴿وَمَن يُضْلل اللَّهُ﴾ حتى غفل عن كفايته تعالى عبده وخوف بما لا ينفع ولا يضر أصلاً ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَاد﴾ يهديه إلى خير ما ﴿وَمَنْ يَهْد اللَّهُ﴾ فيجعل كونه تعالى كافياً نصب عينه عاملاً بمقتضاه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُضلّ﴾ يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه إذ لا راد لفعله ولا معارض لإرادته عزَّ وجلّ كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بعَزيز﴾ غالب لا يغالب منيع لا يمانع ولا ينازع ﴿ذي انْتقَام﴾ ينتقم من أعدائه لأوليائه، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة.

﴿ولَئنْ سَأَلْتَهُمْ منْ خَلَقَ السَّمَاوَات والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لظهور الدليل ووضوح السبيل فقد تقرر في العقول وجوب انتهاء الممكنات إلى واجب الوجود، والاسم الجليل فاعل لفعل محذوف أي خلقهن الله ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَفَرأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ منْ دُون الله إنْ أَرَادَنـيَ اللَّهُ بضُرّ هَلْ هُنَّ كَاشفَاتُ ضُرِّه﴾ أي إذا كان خالق العالم العلوي والسفلي هو الله عزَّ وجلّ كما أقررتم فأخبروني أن آلهتكم إن أرادني الله سبحانه بضر هل هن يكشفن عني ذلك الضر، فالفاء واقعة في جواب شرط مقدر؛ وقال بعضهم: التقدير إذا لم يكن خالق سواه تعالى فهل يمكن غيره كشف ما أراد من الضر، وجوز أن تكون عاطفة على مقدر أي أتفكرتم بعد ما أقررتم فرأيتم ما تدعون الخ ﴿أَوْ أَرَادَني برَحْمَة﴾ أي أو إن أرادني بنفع ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسكَاتُ رَحْمَته﴾ فيمنعها سبحانه عني. وقرأ الأعرج وشيبة وعمرو بن عبيد وعيسى بخلاف عنه. وأبو عمرو وأبو بكر «كاشفاتٌ» و «ممسكاتٌ» بالتنوين فيهما ونصب ما بعدهما وتعليق إرادة الضر والرحمة بنفسه النفيسة عليه الصلاة والسلام للرد في نحورهم حيث كانوا خوفوه معرة الأوثان ولما فيه من الإيذان بإمحاض النصيحة، وقدم الضر لأن دفعه أهم، وقيل: «كاشفات» و «ممسكات» على ما يصفونها به من الأنوثة تنبيهاً على كمال ضعفها ﴿قُلْ حَسْبيَ اللَّهُ﴾ كافي جل شأنه في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشر. روي عن مقاتل أنه ﷺ لما سألهم سكتوا فنزل ذلك.

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ﴾ لا على غيره في كل شيء ﴿الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكنتهم فيها فإن المكانة نقلت من المكان المحسوس إلى الحالة التي عليها الشخص واستعيرت لها استعارة محسوس لمعقول، وهذا كما ستعار حيث وهنا للزمان بجامع الشمول والإحاطة، وجوز أن يكون المعنى اعملوا على حسب تمكنكم واستطاعتكم.

وروي عن عاصم «مكاناتكم» بالجمع والأمر للتهديد، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ وعيد لهم وإطلاقه لزيادة الوعيد لأنه لو قيل: على مكانتي لتراءى أنه عليه الصلاة والسلام على حالة واحدة لا تتغير ولا تزداد فلما أطلق أشعر بأن له ﷺ كل زمان مكانة أخرى وأنه لا يزال يزداد قوة بنصر الله تعالى وتأييده ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فإنه دال على أنه ﷺ منصور عليهم في الدنيا والآخرة بدليل قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ فإن الأول إشارة إلى العذاب الدنيوي وقد نالهم يوم بدر والثاني إشارة إلى العذاب الأخروي فإن العذاب المقيم عذاب النار فلو قيل إني عامل على مكانتي وكان إذ ذاك غير غالب بل الأمر بالعكس لم يلائم المقصود، و ﴿من﴾ تحتمل الاستفهامية والموصولية وجملة ﴿يخزيه﴾ صفة ﴿عذاب﴾ والمراد بمقيم دائم وفي الكلام مجاز في الظرف أو الإسناد وأصله مقيم فيه صاحبه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم فإنه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من مفعول ﴿أنزلنا﴾ أو من فاعله أي أنزلنا الكتاب ملتبساً أو ملتبسين بالحق ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بأن عمل بما فيه ﴿فلنفسه﴾ إذ نفع به نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لما أن وبال ضلاله مقصور عليها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك إلا البلاغ وقد بلغت أي بلاغ.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ أي يقبضها عن الأبدان بأن يقطع تعلقها تعلق التصرف فيها عنها ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي في وقت موتها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت ﴿فِي مَنَامِهَا﴾ متعلق ـ بيتوفى ـ أي يتوفاها في وقت نومها على أن مناماً اسم زمان، وجوز فيه كونه مصدراً ميمياً بأن يقطع سبحانه تعلقها بالأبدان تعلق التصرف فيها عنها أيضاً فتوفي الأنفس حين الموت وتوفيها في وقت النوم بمعنى قبضها عن الأبدان وقطع تعلقها بها تعلق التصرف إلا أن توفيها حين الموت قطع لتعلقها بها تعلق التصرف ظاهراً أو باطناً وتوفيها في وقت النوم قطع لذلك ظاهراً فقط، وكأن التوفي الذي يكون عند الموت لكونه شيئاً واحداً في أول زمان الموت وبعد مضي أيام منه قيل: ﴿حين موتها﴾ والتوفي الذي يكون في وقت النوم لكونه يتفاوت في أول وقت النوم وبعدمضي زمان منه قوة وضعفاً قيل: ﴿في منامها﴾ أي في وقت نومها كذا قيل فتدبره ولمسلك الذهن السليم اتساع، وإسناد الموت والنوم إلى الأنفس قيل: مجاز عقلي لأنهما حالا أبدانها لا حالاها، وزعم الطبرسي أن الكلام على حذف مضاف أعني الأبدان، وجعل الزمخشري الأنفس عبارة عن الجملة دون ما يقابل الأبدان، وحمل توفيها على إماتتها وسلب صحة أجزائها بالكلية فلا تبقى حية حساسة دراكة حتى كأن ذاتها قد سلبت، وحيث لم يتحقق هذا المعنى في التوفي حين النوم لأنه ليس إلا سلب كمال الصحة وما يترتب عليه من الحركات الاختيارية وغيرها قال في قوله تعالى: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ أي يتوفاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى، ومنه قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [ الأنعام: ٦٠ ] حيث لا تميزون ولا تتصرفون كما أن الموتى كذلك، وما يتخايل فيه من الجمع بين الحقيقة والمجاز يدفع بالتأمل؛ وتقديم الاسم الجليل وبناء ﴿يتوفى﴾ عليه للحصر أو للتقوى أو لهما، واعتبار الحصر أوفق بالمقام من اعتبار التقوى وحده أي الله يتوفى الأنفس حقيقة لا غيره عزَّ وجلّ ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي﴾ أي الأنفس التي ﴿قَضَى﴾ في الأزل ﴿عَلَيْهَا

**الْمَوْتَ﴾** ولا يردها إلى أبدانها بل يبقيها على ما كانت عليه وينضم إلى ذلك قطع تعلق التصرف باطناً، وعبر عن ذلك بالإمساك ليناسب التوفي.

وقرأ حمزة والكسائي وعيسى وطلحة والأعمش وابن وثاب «قُضِيَ» على البناء للمفعول ورفع «المَوْتُ» **﴿وَيُرْسِلُ الأخْرَى﴾** أي الأنفس الأخرى وهي النائمة إلى أبدانها فتكون كما كانت حال اليقظة متعلقة بها تعلق التصرف ظاهراً وباطناً، وعبر بالإرسال رعاية للتقابل **﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** هو الوقت المضروب للموت حقيقة وهو غاية لجنس الإرسال الواقع بعد الإمساك لا لفرد منه فإنه آني لا امتداد له فلا يغيا، واعتبر بعضهم كون الغاية للجنس لئلا يرد لزوم أن لا يقع نوم بعد اليقظة الأولى أصلاً وهو حسن، وقيل: **﴿يرسل﴾** مضمن معنى الحفظ والمراد يرسل الأخرى حافظاً إياها عن الموت الحقيقي إلى أجل مسمى، وروي عن ابن عباس أن في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هي التي بها العقل والتمييز والروح هي التي بها النفس والتحرك فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم، وهو قول بالفرق بين النفس والروح، ونسبه بعضهم إلى الأكثرين ويعبر عن النفس بالنفس الناطقة وبالروح الأمرية وبالروح الإلهية، وعن الروح بالروح الحيوانية وكذا بالنفس الحيوانية، والثانية كالعرش للأولى، قال بعض الحكماء المتألهين إن القلب الصنوبري فيه بخار لطيف هو عرش للروح الحيوانية وحافظ لها وآلة يتوقف عليها آثارها، والروح الحيوانية عرش ومرآة للروح الإلهية التي هي النفس الناطقة وواسطة بينها وبين البدن بها يصل حكم تدبير النفس إليه، وإلى عدم التغاير ذهب جماعة، وهو قول ابن جبير واحد قولين لابن عباس، وما روي عنه أولاً في الآية يوافق ما ذكرناه من حيث إنّ النفس عليه ليست بمعنى الجملة كما قال الزمخشري وادعى أن الصحيح ما ذكره دون هذا المروي بدليل موتها ومنامها، والضمير للأنفس وما أريد منها غير متصف بالموت والنوم وإنما الجملة هي التي تتصف بهما.

وقال في الكشف ولأن الفرق بين النفسين رأي يدفعه البرهان، وإيقاع الاستيفاء أيضاً لا بد له من تأويل أيضاً فلا ينبغي أن يعدل عن المشهور الملائم يعني حمل التوفي على الأمانة فإن أصله أخذ الشيء من المستوفى منه وافياً كملاً وسلبه منه بالكلية ثم نقل عن ذلك إلى الإماتة لما أنه موجود فيها حتى صارت المتبادرة إلى الفهم منه، وفيه دغدغة، والذي يشهد له كثير من الآثار الصحيحة أن المتوفى في الأنفس التي تقابل الأبدان دون الجملة.

أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليقل اللهم باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين من عبادك» وأخرج أحمد البخاري وأبو داود والنسائي وابن أبي شيبة عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لهم ليلة الوادي: «إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء» وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: «كنت مع النبي ﷺ في سفر فقال: من يكلؤنا الليلة؟ فقلت: أنا فنام ونام الناس ونمت فلم نستيقظ إلا بحرّ الشمس فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: أيها الناس إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد فيقبضها الله إذا شاء ويرسلها إذا شاء».

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال: العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال فتكون رؤياه كأخذ باليد ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً فقال علي كرم تعالى وجهه: أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين؟ يقول الله تعالى: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾** فالله تعالى يتوفى الأنفس كلها فما

رأت وهي عنده سبحانه في السماء. فهي الرؤيا الصادقة وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهي الكاذبة لأنها إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها فعجب عمر من قوله رضي الله تعالى عنهما؛ وظاهر هذا الأثر أن النفس النائمة المقبوضة تكون في السماء حتى ترسل، ومثل ذلك مما يجب تأويله على القول بتجرد النفس ولا يجب على القول الآخر. نعم لعلك تختاره وكأنك تقول: إن النفس شريفة علوية هبطت من المحل الأرفع وأرسلت من حمى ممنع وشغلت بتدبير منزلها في نهارها وليلها ولم تزل تنتظر فرصة العود إلى ذياك الحمى والمحل الرفيع الأسمى وعند النوم تنتهز تلك الفرصة وتهون عليها في الجملة هاتيك الغصة فيحصل لها نوع توجه إلى عالم النور ومعلم السرور الخالي من الشرور بحيث تستعد استعداداً ما لقبول بعض آثاره والاستضاءة بشيء من أنواره وجعلها كذلك هو قبضها وبه لعمري بسطها وقبضها، فمتى رأت وهي راجعة في تلك الحال مستفيضة من ذلك العالم الموصوف بالكمال رؤيا كانت صادقة ومتى رأت وهي القهقرى إلى ما ابتليت به من تدبير منزل تحوم فيه شياطين الأوهام وتزدحم فيه أي ازدحام كانت رؤياها كاذبة ثم إنها في كلا الحالين متفاوتة الإفراد فيما يكون من الاستعداد، والوقوف على حقيقة الحال لا يتم إلا بالكشف دون القيل والقال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من التوفي والإمساك والإرسال، والإفراد لتأويله بالمذكور أو نحوه، وصيغة البعيد باعتبار مبدئه أو تقضي ذكره أو بعد منزلته، والتنوين في ﴿آيات﴾ للتكثير والتعظيم أي أن فيما ذكر الآيات كثيرة عظيمة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته سبحانه لقوم يتفكرون في كيفية تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها عنها تارة بالكلية عند الموت وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها إلى أن يعيد الله تعالى الخلق وما يعتريها من السعادة والشقاوة وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وإرسالها حيناً بعد حين إلى انقضاء آجالها.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي بل اتخذ قريش - فأم - منقطعة والاستفهام المقدر لإنكار اتخاذهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ تشفع لهم عند الله تعالى في رفع العذاب، وقيل: في أمورهم الدنيوية والأخروية، وجوز كونها متصلة بتقدير معادل كما ذكره ابن الشيخ في حواشي البيضاوي وهو تكلف لا حاجة إليه، ومعنى ﴿من دون الله﴾ من دون رضاه أو إذنه لأنه سبحانه لا يشفع عنده إلا من إذن له ممن أرضاه ومثل هذه الجمادات الخسيسة ليست مرضية ولا مأذونة ولو لم يلاحظ هذا اقتضى أن الله تعالى شفيع ولا يطلق ذلك عليه سبحانه أو التقدير أم اتخذوا آلهة سواه تعالى لتشفع لهم وهو يؤول لما ذكر ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي أيشفعون حال تقدير عدم ملكهم شيئاً من الأشياء وعدم عقلهم إياه، وحاصله أيشفعون وهم جمادات لا تقدر ولا تعلم فالهمزة داخلة على محذوف والواو للحال والجملة حال من فاعل الفعل المحذوف. وذهب بعضهم إلى أنها للعطف على شرطية قد حذفت لدلالة ﴿لو كانوا لا يملكون﴾ الخ عليها أي أيشفعون لو كانوا يملكون شيئاً ويعقلون ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، والمعنى على الحالية أيضاً كأنه قيل: أيشفعون على كل حال، وقال بعض المحققين من النحاة: إنها اعتراضية ويعني بالجملة الاعتراضية ما يتوسط بين أجزاء الكلام متعلقاً به معنى مستأنفاً لفظاً على طريق الالتفات كقوله:

فأنت طلاق والطلاق ألية

وقوله:

ترى كل من فيها وحاشاك فانيا

وقد تجيء بعد تمام الكلام كقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» وفي احتياج أداة الشرط في مثل هذا التركيب إلى الجواب خلاف وعلى القول بالاحتياج هو محذوف لدلالة ما قبل عليه وتحقيق الأقوال في كتب العربية.

وجوز أن يكون مدخول الهمزة المحذوف هنا الاتخاذ أي قل لهم اتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئاً من الأشياء فضلاً عن أن يملكوا الشفاعة عند الله تعالى ولا يعقلون ﴿قُلْ لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ لعله كما قال الإمام رد لما يجيبون به وهو أن الشفعاء ليست الأصنام أنفسها بل أشخاص مقربون هي تماثيلهم، والمعنى أنه تعالى مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع مرتضى والشفيع مأذوناً له وكلاهما مفقودان هاهنا، وقد يستدل بهذه الآية على وجود الشفاعة في الجملة يوم القيامة لأن الملك أن الاختصاص الذي هو مفاد اللام هنا يقتضي الوجود فالاستدلال بها على نفي الشفاعة مطلقاً في غاية الضعف.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ استئناف تعليلي لكون الشفاعة جميعاً له عزَّ وجلّ كأنه قيل: له ذلك لأنه جل وعلا مالك الملك كله فلا يتصرف أحد بشيء منه بدون إذنه ورضاه فالسماوات والأرض كناية عن كل ما سواه سبحانه، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْه تُرْجَعُونَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿له ملك﴾ الخ وكأنه تنصيص على مالكية الآخرة التي فيها معظم نفع الشفاعة وإيماء إلى انقطاع الملك الصوري عما سواه عزَّ وجلّ.

وجوز أن يكون عطفاً على قوله تعالى: ﴿لله الشفاعة﴾ وجعله في البحر تهديداً لهم كأنه قيل: ثم إليه ترجعون فتعلمون أنهم لا يشفعون لكم ويخيب سعيكم في عبادتهم، وتقديم ﴿إليه﴾ للفاصلة وللدلالة على الحصر إذ المعنى إليه تعالى لا إلى أحد غيره سبحانه لا استقلالاً ولا اشتراكاً ترجعون ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي مفرداً بالذكر ولم تذكر معه آلهتهم، وقيل: أي إذا قيل لا إله إلا الله ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة﴾ أي انقبضت ونفرت كما في قوله تعالى: ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده وَلَّوْا على أدبارهم نفوراً﴾ [ الإسراء: ٧٦ ] ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِه﴾ فرادى أو مع ذكر الله عزَّ وجلّ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفرط افتتانهم بهم ونسيانهم حق الله تعالى، وقد بولغ في بيان حالهم القبيحة حيث بين الغاية فيهما فإن الاستبشار أن يمتلىء القلب سروراً حتى ينبسط له بشرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلىء غيظاً وغماً ينقبض عنه أديم الوجه كما يشاهد في وجه العابس المحزون، و ﴿إذا﴾ الأولى شرطية محلها النصب على الظرفية وعاملها الجواب عند الأكثرين وهو ﴿اشمأزت﴾ أو الفعل الذي يليها وهو ﴿ذكر﴾ عند أبي حيان وجماعة، وليست مضافة إلى الجملة التي تليها عندهم، وكذا ﴿إذا﴾ الثانية فالعامل فيها إما ﴿ذكر﴾ بعدها وإما ﴿يستبشرون﴾ و ﴿إذا﴾ الثالثة فجائية رابطة لجملة الجزاء بجملة الشرط كالفاء، فعلى القول بحرفيتها لا يعمل فيها شيء وعلى القول باسميتها وأنها ظرف زمان أو مكان عاملها هنا خبر المبتدأ بعدها، وقال الزمخشري: عاملها فعل مقدر مشتق من لفظ المفاجأة تقديره فاجاؤوا وقت الاستبشار فهي مفعول به، وجوز أن تكون فاعلاً على معنى فاجأهم وقت الاستبشار، وهذا الفعل المقدر هو جواب إذا الثانية فتتعلق به بناء على قول الأكثرين من أن العامل في إذا جوابها، ولا يلزم تعلق ظرفين بعامل واحد لأن الثاني منهما ليس منصوباً على الظرفية.

نعم قيل على الزمخشري: إنه لا سلف له فيما ذهب إليه، وأنت تعلم أن الرجل في العربية لا يقلد غيره، ومن العجيب قول الحوفي إن ﴿إذا﴾ الثالثة ظرفية جيء بها تكراراً لإذا قبلها وتوكيداً وقد حذف شرطها والتقدير إذا كان ذلك هم يستبشرون، ولا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً، والآية في شأن المشركين مطلقاً. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه فسر ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ بأبي جهل بن هشام والوليد بن عقبة وصفوان وأُبيّ بن خلف، وفسر ﴿الذين من دونه﴾ باللات والعزى وكأن ذلك تنصيص على بعض أفراد العام. وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أن الآية حكت ما كان من المشركين يوم قرأ النبي ﷺ ﴿والنجم﴾ [ النجم: ١ ] عند باب الكعبة: وهذا أيضاً لا ينافي العموم كما لا يخفى، وقد رأينا كثيراً من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف الله تعالى بها المشركين يهشون

لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق هواهم واعتقادهم فيهم ويعظمون من يحكي لهم ذلك وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه عزَّ وجلّ وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة وينسبونه إلى ما يكره، وقد قلت يوماً لرجل يستغيث في شدة ببعض الأموات وينادي يا فلان أغثني فقلت له: قل يا الله فقد قال سبحانه: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ [ البقرة: ١٨٦ ] فغضب وبلغني أنه قال: فلان منكر على الأولياء، وسمعت عن بعضهم أنه قال: الولي أسرع إجابة من الله عزَّ وجلّ وهذا من الكفر بمكان نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان.

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ
يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ
بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ
﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم
بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ
﴿٥٢﴾ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ
﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا
تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ
تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ
فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ
﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ
شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا

قَدۡرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

**﴿قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بيْنَ عبادكَ فيمَا كَانُوا فيه يَخْتلفُونَ﴾** أمر بالدعاء والالتجاء إلى الله تعالى لما قاساه في أمر دعوتهم وناله من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد فإنه تعالى القادر على الأشياء بجملتها والعالم بالأحوال برمتها، والمقصود من الأمر بذلك بيان حالهم ووعيدهم وتسلية حبيبه الأكرم ﷺ وأن جده وسعيه معلوم مشكور عنده عزَّ وجلّ وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى والدعاء بأسمائه العظمى، ولله تعالى در الربيع بن خيثم فإنه لما سئل عن قتل الحسين رضي الله تعالى عنه تأوه وتلا هذه الآية، فإذا ذكر لك شيء مما جرى بين الصحابة قل: **﴿اللهم فاطر السماوات﴾** الخ فإنه من الآداب التي ينبغي أن تحفظ، وتقديم المسند إليه في **﴿أنت تحكم﴾** للحصر أي أنت تحكم وحدك بين العباد فيما استمر اختلافهم فيه حكماً يسلمه كل مكابر معاند ويخضع له كل عاتٍ مارد وهو العذاب الدنيوي أو الأخروي، والمقصود من الحكم بين العباد الحكم بينه عليه الصلاة والسلام وبين هؤلاء الكفرة.

**﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذينَ ظَلَمُوا ما فـي الأَرض جَميعاً﴾** الخ قيل مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم الذي استدعاه النبي ﷺ وغاية شدته وفظاعته أي لو أن لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والذخائر **﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا به من سُوء الْعَذَاب يَوْمَ القيَامَة﴾** أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب السيء الشديد وقيل الجملة معطوفة على مقدر والتقدير فأنا أحكم بينهم وأعذبهم ولو علموا ذلك ما فعلوا ما فعلوا، والأول أظهر، وليس المراد إثبات الشرطية بل التمثيل لحالهم بحال من يحاول التخلص والفداء مما هو فيه بما ذكر فلا يتقبل منه، وحاصله أن العذاب لازم لا يخلصون منه ولو فرض هذا المحال ففيه من الوعيد والإقناط ما لا يخفى.

وقوله تعالى: **﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ الله مَا لَـمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾** أي ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم زيادة مبالغة في الوعيد، ونظير ذلك في الوعد قوله تعالى: **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾** [السجدة: ١٧ ] والجملة قيل: الظاهر أنها حال من فاعل **﴿افتدوا﴾**.

**﴿وبَدَا لَهُمْ﴾** حين تعرض عليهم صحائفهم **﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾** أي الذي كسبوه وعملوه على أن **﴿ما﴾** موصولة أو كسبهم وعملهم على أنها مصدرية، وإضافة **﴿سيئات﴾** على معنى من أو اللام **﴿وَحَاقَ﴾** أي أحاط **﴿بهمْ مَا كَانُوا بهِ يَسْتَهْزئونَ﴾** أي جزاء ذلك على أن الكلام على تقدير المضاف أو على أن هناك مجازاً بذكر السبب وإرادة مسببه، و **﴿ما﴾** محتملة للموصولية والمصدرية أيضاً **﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾** إخبار عن الجنس بما يغلب فيه، وقيل: المراد بالإنسان حذيفة بن المغيرة، وقيل: الكفرة **﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نعْمَةً منَّا﴾** أي أعطيناه إياها تفضلاً فإن التخويل على ما قيل مختص به لا يطلق على ما أعطي جزاء **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتيتُهُ عَلَـى علْـم﴾** أي على علم مني بوجوه كسبه أو بأني سأعطاه لما لي من الاستحقاق أو على علم من الله تعالى بي وباستيجابي، وإنما للحصر أي ما أوتيته لشيء من الأشياء إلا لأجل علم، والهاء للنعمة، والتذكير لتأويلها بشيء من النعم، والقرينة على ذلك التنكير، وقيل: لأنها بمعنى الإنعام، وقيل: لأن المراد بها المال، وقيل: لأنها تشتمل على مذكر ومؤنث فغلب المذكر، وجوز أن يكون لما في **﴿إنما﴾** على أنها موصولة أي إن الذي أوتيته كائن على علم ويبعد موصوليتها كتابتها متصلة

في المصاحف ﴿**بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**﴾ رد لقوله ذلك، والضمير للنعمة باعتبار لفظها كما أن الأول لها باعتبار معناها، واعتبار اللفظ بعد اعتبار المعنى جائز وإن كان الأكثر العكس، وجوز أن يكون التأنيث باعتبار الخبر، وقيل: هو ضمير الإتيانة وقرىء بالتذكير فهو للنعمة أيضاً كالذي مر أو للإتيان أي ليس الأمر كما يقول بل ما أوتيه امتحان له أيشكر أم يكفر، وأخبر عنه بالفتنة مع أنه آلة لها لقصد المبالغة، ونحو هذا يقال على تقدير عود الضمير للإتيانة أو الإتيان ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ إن الأمر كذلك وهذا ظاهر في أن المراد بالإنسان الجنس إذ لو أريد العهد لقيل لكنه لا يعلم أو لكنهم لا يعلمون وإرادة العهد هناك وإرجاع الضمير للمطلق هنا على أنه استخدام نظير عندي درهم ونصفه تكلف.

والفاء للعطف وما بعدها عاطف على قوله تعالى: ﴿**وإذا ذكر الله وحده**﴾ الخ وهي لترتيبه عليه والغرض منه التهكم والتحميق، وفيه ذمهم بالمناقضة والتعكيس حيث إنهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره دون من استبشروا بذكره، وهذا كما تقول: فلان يسيء إلى فلان فإذا احتاج سأله فأحسن إليه، ففي الفاء استعارة تبعية تهكمية، وقيل: يجوز أن تكون للسببية داخلة على السبب لأن ذكر المسبب يقتضي ذكر سببه لأن ظهور ما لم يكونوا يحتسبون الخ مسبب عما بعد الفاء إلا أنه يتكرر مع قوله تعالى الآتي: ﴿**والذين ظلموا منهم**﴾ إلى آخره إن لم يتغايرا بكون أحدهما في الدنيا والآخرة في الأخرى، وإلى ما قدمنا ذهب الزمخشري، والجمل الواقعة في البين عليه أعني قوله سبحانه: ﴿**قل اللهم** ــ إلى ـ **يستهزئون**﴾ اعتراض مؤكد للإنكار عليهم، وزعم أبو حيان أن في ذلك تكلفاً واعتراضاً بأكثر من جملتين وأبو علي الفارسي لا يجيز الاعتراض بجملتين فكيف يجيزه بالأكثر، وأنا أقول: لا بأس بذلك لا سيما وقد تضمن معنى دقيقاً لطيفا، والفارسي محجوج بما ورد في كلام العرب من ذلك ﴿**قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ ضمير ﴿**قالها**﴾ لقوله تعالى: ﴿**إنما أوتيته على علم**﴾ [القصص: ٧٨] لأنها كلمة أو جملة. وقرىء بالتذكير أي القول أو الكلام المذكور، والذين من قبلهم قارون وقومه فإنه قال ورضوا به فالإسناد من باب إسناد ما للبعض إلى الكل وهو مجاز عقلي.

وجوز أن يكون التجوز في الظرف فقالها الذين من قبلهم بمعنى شاعت فيهم، والشائع الأول، والمراد قالوا مثل هذه المقالة أو قالوها بعينها ولاتحاد صورة اللفظ تعد شيئاً واحداً في العرف ﴿**فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ من متاع الدنيا ويجمعونه منه.

﴿**فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ أي أصابهم جزاء سيئات كسبهم أو الذي كسبوه على أن الكلام بتقدير مضاف أو أنه تجوز بالسيئات عما تسبب عنها وقد يقال لجزاء السيئة سيئة مشاكلة نحو قوله تعالى: ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها**﴾ فيكون ما هنا من المشاكلة التقديرية، وإذا كان المعنى على جعل جزاء جميع ما كسبوا سيئاً دل الكلام على أن جميع ما كسبوا سيء إذ لو كان فيه حسن جوزي عليه جزاء حسناً، وفيه من ذمهم ما فيه.

﴿**وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ**﴾ المشركين، و ﴿**من**﴾ للبيان فإنهم كلهم كانوا ظالمين إذا الشرك ظلم عظيم أو للتبعيض فالمراد بالذين ظلموا من أصر على الظلم حتى تصيبهم قارعة وهم بعض منهم ﴿**سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ كما أصاب الذين من قبلهم، والمراد به العذاب الدنيوي وقد قحطوا سبع سنين، وقتل ببدر صناديدهم وقيل العذاب الأخروي، وقيل: الأعم، ورجح الأول بأنه الأوفق للسياق، وأشير بقوله تعالى: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ أي بفائتين على ما قيل إلى العذاب الأخروي.

﴿**أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ أن يبسطه له ﴿**وَيَقْدِرُ**﴾ لمن يشاء أن يقدر له من غير أن

يكون لأحد ما مدخل في ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعاً ثم بسطه لهم سبعاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالة على أن الحوادث كافة من الله تعالى شأنه والأسباب في الحقيقة ملغاة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إذ هم المستدلون بها على مدلولاتها ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أفرطوا في المعاصي جائين عليها، وأصل الإسراف الإفراط في صرف المال ثم استعمل فيما ذكر مجازاً بمرتبتين على ما قيل، وقال الراغب: هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر وهذا ظاهر في أنه حقيقة فيما ذكرنا وهو حسن.

وضمن معنى الجناية ليصح تعديه بعلى والمضمن لا يلزم فيه أن يكون معناه حقيقياً، وقيل: هو مضمن معنى الحمل، وحمل غير واحد الإضافة في ﴿عِبَادِيَ﴾ على العهد أو على التشريف، وذهبوا إلى أن المراد بالعباد المؤمنون وقد غلب استعماله فيهم مضافاً إليه عزَّ وجلّ في القرآن العظيم فكأنه قيل: أيها المؤمنون المذنبون ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرته سبحانه وتفضله عزَّ وجلّ على أن المغفرة مدرجة في الرحمة أو أن الرحمة مستلزمة لها لأنه لا يتصور الرحمة لمن لم يغفر له، وتعليل النهي بقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ يقتضي دخولها في المعلل، والتذييل بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ كالصريح في ذلك، وجوز أن يكون في الكلام صنعة الاحتباك كأنه قيل: لا تقنطوا من رحمة الله ومغفرته إن الله يغفر الذنوب جميعاً ويرحم، وفيه بُعد، وقالوا: المراد بمغفرة الذنوب التجافي عنها وعدم المؤاخذة بها في الظاهر والباطن وهو المراد بسترها، وقيل: المراد بها محوها من الصحائف بالكلية مع التجافي عنها وأن الظاهر إطلاق الحكم وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨ ] ظاهر في الإطلاق فيما عدا الشرك، ويشهد للإطلاق أيضاً أمور، الأول نداؤهم بعنوان العبودية فإنها تقتضي المذلة وهي أنسب بحال العاصي إذا لم يتب واقتضاؤها للترحم ظاهر. الثاني الاختصار الذي تشعر به الإضافة إلى ضميره تعالى فإن السيد من شأنه أن يرحم عبده ويشفق عليه. الثالث تخصيص ضرر الإسراف المشعرة به «على» بأنفسهم فكأنه قيل: ضرر الذنوب عائد عليهم لا علي فيكفي ذلك من غير ضرر آخر كما في المثل أحسن إلى من أساء كفى المسيء إساءته، فالعبد إذا أساء ووقف بين يدي سيده ذليلاً خائفاً عالماً بسخط سيده عليه ناظراً لإكرام غيره ممن أطاع لحقه ضرر إذ استحقاق العقاب عقاب عند ذوي الألباب.

الرابع النهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة وإطلاقها. الخامس إضافة الرحمة إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء على طريق الالتفات فإن ذلك ظاهر في سعتها وهو ظاهر في شمولها التائب وغيره. السادس التعليل بقوله تعالى ﴿إن الله﴾ الخ فإن التعليل يحسن مع الاستبعاد وترك القنوط من الرحمة مع عدم التوبة أكثر استبعاداً من تركه مع التوبة. السابع وضع الاسم الجليل فيه موضع الضمير لإشعاره بأن المغفرة من مقتضيات ذاته لا لشيء آخر من توبة أو غيرها. الثامن تعريف الذنوب فإنه في مقام التمدح ظاهر في الاستغراق فتشمل الذنب الذي يعقبه التوبة والذي لا تعقبه. التاسع التأكيد بالجميع. العاشر التعليل ـ بأنه هو ـ الخ. الحادي عشر التعبير بالغفور فإنه صيغة مبالغة وهي إن كانت باعتبار الكم شملت المغفرة جميع الذنوب أو باعتبار الكيف شملت الكبائر بدون توبة. الثاني عشر حذف معمول ﴿الغفور﴾ فإن حذف المعمول يفيد العموم. الثالث عشر إفادة الجملة الحصر فإن من المعلوم أن الغفران قد يوصف به غيره تعالى فالمحصور فيه سبحانه إنما هو الكامل العظيم وهو ما يكون بلا توبة الرابع عشر المبالغة في ذلك الحصر.

الخامس عشر الوعد بالرحمة بعد المغفرة فإنه مشعر بأن العبد غير مستحق للمغفرة لولا رحمته وهو ظاهر فيما

إذا لم يتب. السادس عشر التعبير بصيغة المبالغة فيها. السابع عشر إطلاقها، ومنع المعتزلة مغفرة الكبائر والعفو عنها من غير توبة وقالوا: إنها وردت في غير موضع من القرآن الكريم مقيدة بالتوبة فإطلاقها هنا يحمل على التقييد لاتحاد الواقعة وعدم احتمال النسخ، وكون القرآن في حكم كلام واحد، وأيدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَأَنيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ**﴾ فإنه عطف على ألا تقنطوا والتعليل معترض، وبعد تسليم حديث حمل الإطلاق على التقييد يكون عطفاً لتتميم الإيضاح كأنه قيل: لاتقنطوا من رحمة الله تعالى فتظنوا أنه لا يقبل توبتكم وأنيبوا إليه تعالى وأخلصوا له عزَّ وجلّ.

وأجاب بعض الجماعة بمنع وجوب حمل الإطلاق على التقييد في كلام واحد نحو أكرم الفضلاء أكرم الكاملين فضلاً عن كلام لا يسلم كونه في حكم كلام واحد وحينئذٍ لا يكون المعطوف شرطاً للمعطوف عليه إذ ليس من تتمته، وقيل: إن الأمر بالتوبة والإخلاص لا يحل بالإطلاق إذ ليس المدعي أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغني عن الأمر بهما وتنافي الوعيد بالعذاب.

وقال بعض أجلة المدققين: إن قوله تعالى: ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا**﴾ خطاب للكافرين والعاصين وإن كان المقصود الأولى الكفار لمكان القرب وسبب النزول، فقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: إن أهل مكة قالوا: يزعم محمد ﷺ أنه من عبد الأوثان ودعا مع الله تعالى إلهاً آخر وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له فكيف تهاجر وتسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس ونحن أهل شرك فأنزل الله تعالى ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم**﴾ الخ.

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول: لا يقبل الله تعالى من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوه فنزلت هؤلاء الآيات وكان عمر رضي الله تعالى عنه كاتباً فكتبها بيده ثم كتب بها إلى عياش وإلى الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآيات الثلاث ﴿**قل يا عبادي** ــ إلى - **وأنتم لا تشعرون**﴾ بالمدينة في وحشي وأصحابه ونحلل قوله تعالى: ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ بين المعطوفين تعليلاً للجزء الأول قبل الوصول إلى الثاني للدلالة على سعة رحمته تعالى وأن مثله حقيق بأن يرجى وإن عظم الذنب لا سيما وقد عقب بقوله تعالى: ﴿**إنه هو**﴾ الآية الدال على انحصار الغفران والرحمة على الوجه الأبلغ فالوجه أن يجري على عمومه ليناسب عموم الصدر ولا يقيد بالتوبة لئلا ينافي غرض التخلل مع أنه جمع محلى باللام، وقد أكد بما صار نصاً في الاستغراق، ولا يغني المعتزلي أن القرآن العظيم كالكلام الواحد وأنه سليم من التناقض بل يضره، وكذلك ما ذكر من أسباب النزول انتهى، وقد تضمن الإشارة إلى بعض مؤكدات الإطلاق التي حكيناها آنفاً والذي يترجح في نظري ما اختاره من عموم الخطاب في ﴿**يا عبادي**﴾ للعاصين والكافرين، وأمر الإضافة سهل، وإن قوله تعالى: ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ مقيد بلمن يشاء بقرينة التصريح به في قراءة عبدالله هنا، وكون الأمور كلها معلقة بالمشيئة ولا نسلم أن متعلق المشيئة التائب وحده، وكونها تابعة للحكمة على تقدير صحته لا ينفع إذ دون إثبات كون المغفرة لغير التائب منافية للحكمة خرط القتاد. نعم لا تتعلق بالمشرك ما لم يؤمن لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ [النساء: ٤٨ ] فمغفرة الشرك مشروطة بالإيمان داخل فيمن يشاء لكن بالشرط المعروف، واعتبار الشرط فيه لا يضر في عدم اعتبار شرط التوبة في العاصي بما دونه.

ويشهد لذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده. وابن جرير وابن أبي حاتم. وابن مردويه. والبيهقي في شعب الإيمان عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم إلى آخر الآية فقال رجل: يا رسول الله ومن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ ساعة ثم قال: إلا ومن أشرك ثلاث مرات» لا يقال المغفرة لمن أشرك بشرط الإسلام أمر واضح فلا يجوز أن تخفى على السائل وعليه عليه الصلاة والسلام حتى يسكت لانتظار الوحي أو الاجتهاد لأنا نقول: السؤال للاستبعاد من حيث العادة والسكوت لتعليم سلوك طريق التأني والتدبر وإن كان الأمر واضحاً.

وقيل: الظاهر أنه لانتظار الإذن أو الاجتهاد في التصريح بعموم المغفرة فإنهم ربما اتكلوا على ذلك فيخشى التفريط في العمل وهو لا ينافي التعليم فإنه عليه الصلاة والسلام إنما يعلمهم التدبر بعد أن يتدبر هو في نفسه ﷺ. وزعم أن الحديث دال على اشتراط التوبة ليس بشيء، ويؤيد إطلاق المغفرة عن قيد التوبة ما أخرجه الإمام أحمد وعبد ابن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم» فإنه ليس للا يبالي كثير حسن إن كانت المغفرة مشروطة بالتوبة كما لا يخفى، وكذا ما أخرجه ابن جرير عن ابن سيرين قال: قال علي كرم الله تعالى وجهه أي آية أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن ﴿من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ [ النساء: ١١٠ ] الآية ونحوها فقال علي كرم الله تعالى وجهه: ما في القرآن أوسع آية من ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم**﴾ الآية.

والمؤكدات السابقة أعني السبعة عشر لا يخلو بعضها عن بحث، والظاهر أن مغفرة ذنب لا تجامع العذاب عليه أصلاً، وذهب بعضهم إلى أنها تجامعه إذا كان أنقص من الذنب لا إذا كان بمقداره فمن عذب بمقدار ذنبه في النار، وأخرج منها لا يقال إنه غفر له إذ السيئات إنما تجزى بأمثالها، وقيل: تجامعه مطلقاً وكون السيئات لا تجزى إلا بأمثالها بلطفه تعالى أيضاً فهو نوع من عفوه عزَّ وجلّ وفيه ما فيه فتأمل، وأصل الإنابة الرجوع.

ومعنى ﴿**وأنيبوا إلى ربكم**﴾ الخ أي ارجعوا إليه سبحانه بالإعراض عن معاصيه والندم عليها، وقيل: بالانقطاع إليه تعالى بالعبادة وذكر الرب كالتنبيه على العلة، وقال القشيري: الإنابة الرجوع بالكلية، والفرق بين الإنابة والتوبة أن التائب يرجع من خوف العقوبة والمنيب يرجع استحياء لكرمه تعالى، والإسلام له سبحانه الإخلاص في طاعاته عزَّ وجلّ، وذكر أن الإخلاص بعد الإنابة أن يعلم العبد أن نجاته بفضل الله تعالى لا بإنابته فبفضله سبحانه وصل إلى إنابته لا بإنابته وصل إلى فضله جل فضله. وعن ابن عباس من حديث أخرجه ابن جرير وابن المنذر عنه «من آيس العباد من التوبة فقد جحد كتاب الله تعالى ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله تعالى عليه» ﴿**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّنْ رَّبِّكُمْ**﴾ الظاهر أنه خطاب للعباد المخاطبين فيما تقدم سواء أريد بهم المؤمنون أو ما يعمهم والكافرين، والمراد بما أنزل القرآن وهو كما أنزل إلى المؤمنين أنزل إلى الكافرين ضرورة أنه أنزل عليه ﷺ لدعوة الناس كافة، والمراد بأحسنه ما تضمن الإرشاد إلى خير الدارين دون القصص ونحوها أو المأمور به أو العزائم أو الناسخ، وأفعل على الأول والثالث على ظاهره وعلى الثاني والرابع فيه احتمالان؛ وقيل: لعل الأحسن ما هو أنجى وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة وأفعل فيه على ظاهره أيضاً، وجوز أن يكون الخطاب للجنس، والمراد بما أنزل الكتب السماوية وبأحسنه القرآن، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر، وفي ذكر الرب ترغيب في الاتباع ﴿**مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً**﴾

أي فجأة ﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ لا تعلمون أصلاً بمجيئة فتتداركون ما يدفعه ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ في موضع المفعول له بتقدير مضاف، وقدره الزمخشري كراهة وهو منصوب بفعل محذوف يدل عليه ما قبل أي أنذركم وأمركم بأحسن ما أنزل إليكم كراهة أن تقول، ومن لا يشترط للنصب اتحاد الفاعل يجوز كون الناصب ﴿أنيبوا﴾ أو ﴿اتبعوا﴾ وأياً ما كان فهذه الكراهة مقابل الرضا دون الإرادة فلا اعتزال في تقديرها، وهو أولى من تقدير مخافة كما فعل الحوفي حيث قال: أي أنذرناكم مخافة أن تقول، وابن عطية جعل العامل ﴿أنيبوا﴾ ولم يقدر شيئاً من الكراهة والمخافة حيث قال: أي أنيبوا من أجل أن تقول، وذهب بعض النحاة إلى أن التقدير لئلا تقول؛ وتنكير ﴿نفس﴾ للتكثير بقرينة المقام كما في قول الأعشى:

ورب بقيع لو هتفت بجوه ... أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

فإنه أراد أفواجاً من الكرام ينصرونه لا كريماً واحداً، وجوز أن يكون للتبعيض لأن القائل بعض الأنفس واستظهره أبو حيان، قيل: ويكفي ذلك في الوعيد لأن كل نفس يحتمل أن تكون تلك، وجوز أيضاً أن يكون للتعظيم أي نفس متميزة من الأنفس اما بلجاج في الكفر شديد أو بعذاب عظيم، وليس بذاك ﴿يَا حَسْرَتَى﴾ بالألف بدل ياء الإضافة، والمعنى كما قال سيبويه يا حسرتي احضري فهذا وقتك. وقرأ ابن كثير في الوقف «يا حسرتاه» بهاء السكت. وقرأ أبو جعفر «يا حسرتي» بياء الإضافة، وعنه «يا حسرتاي» بالألف والياء التحتية مفتوحة أو ساكنة جمعاً بين العوض والمعوض كذا قيل، ولا يخفى أن مثل هذا غير جائز اللهم إلا شاذاً استعمالاً وقياساً، فالأوجه أن يكون ثنى الحسرة مبالغة على نحو لبيك وسعديك وأقام بين ظهريهم وظهرانيهم على لغة بلحارث بن كعب من إبقاء المثنى على الألف في الأحوال كلها، واختار ذلك صاحب الكشف، وجوز أبو الفضل الرازي أيضاً في كتابه اللوامح أن تكون التثنية على ظاهرها على تلك اللغة؛ والمراد حسرة فوت الجنة وحسرة دخول النار، واعتبار التكثير أولى لكثرة حسراتهم يوم القيامة ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾ أي بسبب تفريطي ـ فعلى ـ تعليلية و ﴿ما﴾ مصدرية كما في قوله تعالى: ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ [ البقرة: ١٨٥ ] والتفريط التقصير ﴿فِي جَنْبِ الله﴾ أي جانبه، قال الراغب: أصل الجنب الجارحة ثم يستعار للناحية والجهة التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال، والمراد هنا الجهة مجازاً، والكلام على حذف مضاف أي في جنب طاعة الله أو في حقه تعالى أي ما يحق له سبحانه ويلزم وهو طاعته عزَّ وجلّ؛ وعلى ذلك قول سابق البربري من شعراء الحماسة:

أما تتقين الله في جنب عاشق ... له كبد حرى عليك تقطع

والتفريط في جهة الطاعة كناية عن التفريط في الطاعة نفسها لأن من ضيع جهة ضيع ما فيها بطريق الأولى الأبلغ لكونه بطريق برهاني، ونظير ذلك قول زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى ... في قبة ضربت على ابن الحشرج

ولا مانع من أن يكون للطاعة وكذا حق الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه جهة بالتبعية للمطيع كمكان السماحة وما معها في البيت، ومما ذكرنا يعلم أنه لا مانع من الكناية كما توهم، وقال الإمام: سمي الجنب جنباً لأنه جانب من جوانب الشيء، والشيء الذي يكون من لوازم الشيء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت المشابهة بين الجنب الذي هو العضو وبين ما يكون لازماً للشيء وتابعاً له لا جرم حسن إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر والطاعة انتهى. وجعلوا في الكلام عليه استعارة تصريحية وليس هناك مضاف مقدر، وليس بذاك. وقول ابن عباس: يريد على ما ضيعت من ثواب الله، ومقاتل: على ما ضيعت من ذكر الله؛ ومجاهد والسدي: على ما

فرطت في أمر الله، والحسن: في طاعة الله، وسعيد بن جبير: في حق الله بيان لحاصل المعنى، وقيل: الجنب مجاز عن الذات كالجانب أو المجلس يستعمل مجازاً لربه، فيكون المعنى على ما فرطت في ذات الله. وضعف بأن الجنب لا يليق إطلاقه عليه تعالى ولو مجازاً، وركاكته ظاهرة أيضاً، وقيل: هو مجاز عن القرب أي على ما فرطت في قرب الله. وضعف بأنه محتاج إلى تجوز آخر، ويرجع الأمر في الآخرة إلى طاعة الله تعالى ونحوها. وبالجملة لا يمكن إبقاء الكلام على حقيقته لتنزهه عزَّ وجلّ من الجنب بالمعنى الحقيقي.

ولم أقف على عد أحد من السلف إياه من الصفات السمعية، ولا أعول على ما في المواقف، وعلى فرض العد كلامهم فيها شهير وكلهم مجمعون على التنزيه وسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وفي حرف عبد الله وحفصة «في ذكر الله» ﴿وَإِنْ كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي المستهزئين بدين الله تعالى وأهله، و ﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة والجملة في محل النصب على الحال عند الزمخشري أي فرطت في حال سخريتي.

وقال في البحر: ويظهر أنها استئناف إخبار عن نفسه بما كان عليه في الدنيا لا حال، والمقصود من ذلك الإخبار التحسر والتحزن ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي من الشرك والمعاصي.

وفسر غير واحد الهداية هنا بالإرشاد والدلالة الموصولة بناء على أنه الأنسب بالشرطية والمطابق للرد بقوله سبحانه: ﴿بلى﴾ الخ، وفسرها أبو حيان بخلق الاهتداء. وأياً ما كان فالظاهر أن هذه المقالة في الآخرة.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي رجوعاً إلى الحياة الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل، و ﴿لو﴾ للتمني ﴿فأكون﴾ منصوب في جوابها، وجوز في البحر أن يكون منتصباً بالعطف على ﴿كرة﴾ إذ هو مصدر فيكون مثل قوله:

فما لك عنها غير ذكرى وحسرة وتسأل عن ركبانها أين يمموا

وقول الآخر:

ولبس عباءة وتقر عيني أحب لي من لبس الشفوف

ثم قال: والفرق بينهما أن الفاء إذا كانت في جواب التمني كانت أن واجبة الاضمار وكان الكون مترتبا على حصول المتمني لا متمنى، وإذا كانت للعطف على ﴿كرة﴾ جاز إظهار أن وإضمارها وكان الكون متمنى.

وقوله تعالى: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ جواب من الله عزَّ وجلّ لما تضمنه قول القائل ﴿لو أن الله هداني﴾ من نفي أن يكون الله تعالى هداه ورد عليه، ولا يشترط في الجواب ببلى تقدم النفي صريحاً وقد وقع في موقعه اللائق به لأنه لو قدم على القرينة الأخيرة أعني ﴿أو تقول حين ترى العذاب﴾ الخ وأوقع بعده غير مفصول بينهما بها لم يحسن لتبتير النظم الجليل. فإن القرائن الثلاثة متناسبة متناسقة متلاصقة، والتناسب بينهن أتم من التناسب بين القرينة الثانية وجوابها، ولو أخرت القرينة الثانية وجعلت الثالثة ثانية لم يحسن أيضاً لأن رعاية الترتيب المعنوي وهي أهم تفوت إذ ذاك، وذلك لأن التحسر على التفريط عند تطاير الصحف على ما يدل عليه مواضع من القرآن العظيم، والتعلل بعدم الهداية إنما يكون بعد مشاهدة حال المتقين واغتباطهم، ولأنه للتسلي عن بعض التحسر أو من باب تمسك الغريق فهو لاحق وتمنى الرجوع بعد ذوق النار، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب﴾ [ الأنعام: ٢٧ ] وكذلك لو حمل الوقوف على الحبس على شفيرها أو مشاهدتها، وكل بعد مشاهدة حال المتقين وما لقوا من خفة الحساب والتكريم في الموقف، ولأن اللجأ إلى التمني بعد تحقق أن لا جدوى للتعليل.

وقال الطيبي: إن النفس عند رؤية أهوال يوم القيامة يرى الناس مجزيين بأعمالهم فيتحسر على تفويت الأعمال عليها ثم قد يتعلل بأن التقصير لم يكن مني فإذا نظر وعلم أن التقصير كان منه تمنى الرجوع، ثم الظاهر من السياق أن النفوس جمعت بين الأقوال الثلاثة ـ فاو ـ لمنع الخلو، وجيء بها تنبيهاً على أن كل واحد يكفي صارفاً عن إيثار الكفر وداعياً إلى الإنابة واتباع أحسن ما أنزل وتذكير الخطاب في ﴿**جاءتك**﴾ الخ على المعنى لأن المراد بالنفس الشخص وإن كان لفظها مؤنثاً سماعياً.

وقرأ ابن يعمر والجحدري وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم ومسعود بن صالح والشافعي عن ابن كثير ومحمد ابن عيسى في اختياره. والعبسي «جاءتك» الخ بكسر الكاف والتاء، وهي قراءة أبي بكر الصديق وابنته عائشة رضي الله تعالى عنهما، وروتها أم سلمة عن النبي ﷺ.

وقرأ الحسن والأعمش والأعرج «جاءتك» بالهمز من غير مد بوزن فعتك، وهو على ما قال أبو حيان: مقلوب من جاءتك قدمت لام الكلمة وأخرت العين فسقطت الألف واستدل المعتزلة بالآية على أن العبد خالق لأفعاله. وأجاب الأشاعرة بأن إسناد الأفعال إلى العبد باعتبار قدرته الكاسبة. وحقق الكوراني أنه باعتبار قدرته المؤثرة بإذن الله عزَّ وجلّ لا كما ذهب إليه المعتزلة من أنه باعتبار قدرته المؤثرة أذن الله تعالى أم لم يأذن.

﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ**﴾ بما ينالهم من الشدة التي تغير ألوانهم حقيقة، ولا مانع من أن يجعل سواد الوجوه حقيقة علامة لهم غير مترتب على ما ينالهم، وجوز أن يكون ذلك من باب المجاز لا أنها تكون مسودة حقيقة بأن يقال: إنهم لما يلحقهم من الكآبة ويظهر عليهم من آثار الجهل بالله عزَّ وجلّ يتوهم فيهم ذلك. والظاهر أن الرؤية بصرية والخطاب إما لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام، وإما لكل من تتأتى منه الرؤية، وجملة ﴿**وجوههم مسودة**﴾ في موضع الحال على ما استظهره أبو حيان، وكون المقصود رؤية سواد وجوههم لا ينافي الحالية كما توهم لأن القيد مصب الفائدة، ولا بأس بترك الواو والاكتفاء بالضمير فيها لا سيما وفي ذكرها هاهنا اجتماع واوين وهو مستثقل. وزعم الفراء شذوذ ذلك، ومن سلمه جعل الجملة هنا بدلاً من ﴿**الذين**﴾ كما ذهب إليه الزجاج، وهم جوزوا إبدال الجملة من المفرد، أو مستأنفة كالبيان لما أشعرت به الجملة قبلها وأدركه الذوق السليم منها من سوء حالهم، أو جعل الرؤية علمية والجملة في موضع الثاني، وأيد بأنه قرىء «وُجُوْهُهُمْ مُسْوَدَّةً» بنصبهما على أن ﴿**وجوههم**﴾ مفعول ثان و ﴿**مسودة**﴾ حال منه. وأنت تعلم أن اعتبار الرؤية بصرية أبلغ في تفضيحهم وتشعير فظاعة حالهم لا سيما مع عموم الخطاب، والنصب في القراءة الشاذة يجوز أن يكون على الإبدال، والمراد بالذين ظلموا أولئك القائلون المتحسرون فهو من باب إقامة الظاهر مقام المضمر، وينطبق على ذلك أشد الانطباق قوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى**﴾ أي مقام ﴿**لِلْمُتَكَبِّرِينَ**﴾ الذين جاءتهم آيات الله فكذبوا بها واستكبروا عن قبولها والانقياد لها، وهو تقرير لرؤيتهم كذلك، وينطبق عليه أيضاً قوله الآتي: ﴿**وينجي**﴾ الخ.

وكذبهم على الله تعالى لوصفهم له سبحانه بأن له شريكاً ونحو ذلك تعالى عما يصفون علواً كبيراً، وقيل: لوصفهم له تعالى بما لا يليق في الدنيا وقولهم في الأخرى: ﴿**لو أن الله هداني**﴾ المتضمن دعوى أن الله سبحانه لم يهدهم ولم يرشدهم، وقيل: هم أهل الكتابين، وعن الحسن أنهم القدرية القائلون إن شئنا فعلنا وإن لم يشأ الله تعالى وإن شئنا لم نفعل وإن شاء الله سبحانه؛ وقيل: المراد كل من كذب على الله تعالى ووصفه بما لا يليق به سبحانه نفياً وإثباتاً فأضاف إليه ما يجب تنزيهه تعالى عنه أو نزهه سبحانه عما يجب أن يضاف إليه، وحكي ذلك عن القاضي وظاهره يقتضي تكفير كثير من أهل القبلة، وفيه ما فيه، والأوفق لنظم الآية الكريمة ما قدمنا، ولا يبعد أن يكون حكم كل من كذب على الله تعالى عالماً بأنه كذب عليه سبحانه أو غير عالم لكنه مستند إلى شبهة واهية كذلك؛ وكلام

الحسن إن صح لا أظنه إلا من باب التمثيل، وتعريض الزمخشري بأهل الحق بما عرض خارج عن دائرة العدل فما ذهبوا إليه ليس من الكذب على الله تعالى في شيء، والكذب فيه وفي أصحابه ظاهر جداً. وقرأ أبي «أجوههم» بإبدال الواو همزة ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ما اتصف به أولئك المتكبرون من جهنم. وقرىء «يُنْجِي» بالتخفيف من الإنجاء ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ اسم مصدر كالفلاح على ما في الكشف أو مصدر ميمي على ما في غيره من فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه، وقال الراغب: هي مصدر فاز أو اسم الفوز ويراد بها الظفر بالبغية على أتم وجه كالفلاح وبه فسرها السدي، والباء للملابسة متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول مفيدة لمقارنة تنجيتهم من العذاب لنيل الثواب أي ينجيهم الله تعالى من جهنم مثوى المتكبرين لتقواهم مما اتصف المتكبرون به ملتبسين بفلاحهم وظفرهم بالبغية وهي الجنة، ومآله ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة، وكون الجنة بغية المتقي كائناً من كان مما لا شبهة فيه. نعم هي بغية لبعض المتقين من حيث إنها محل رؤية محبوبهم التي هي غاية مطلوبهم ولك أن تعمم البغية، وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في موضع الحال أيضاً إما من الموصول أو من ضمير ﴿مفازتهم﴾ مفيدة لكونهم مع التنجية أو الفوز منفياً عنهم على الدوام مساس جنس السوء والحزن، والظاهر أن هذه الحال مقدرة، وقيل: إنها مقارنة مفيدة لكون تنجيتهم أو مفازتهم بالجنة غير مسبوقة بمساس العذاب والحزن، ولا يخفى أنه لا يتسنى بالنسبة إلى جميع المتقين إذ منهم من يمسه العذاب ويحزن لا محالة، وعد وجود ذلك لقلته وانقطاعه كلا وجود تكلف بعيد، وجوز أن يراد بالمفازة الفلاح ويجعل قوله تعالى: ﴿لا يمسهم﴾ الخ استئنافاً لبيانها كأنه قيل: ما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم الخ.

والباء حينئذ على ما في الكشف سببية متعلقة بينجي أي ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم. وتعقب بأن في جعل عدم الحزن وعدم السوء سبب النجاة تكلفاً فهما من النجاة، والظاهر أنه لو جعلت الباء على هذا الوجه أيضاً للملابسة لا يرد ذلك، وجوز كون المفازة اسم مكان أي محل الفوز، وفسرت بالمنجاة مكان النجاة، وصح ذلك لأن النجاة فوز وفلاح، وجعلت الباء عليه للسببية وهناك مضاف محذوف بقرينة باء السببية وإن المنجاة لا تصلح سبباً أي ينجيهم بسبب منجاتهم وهو الإيمان، وهو كالتصريح بما اقتضاه تعليق الفعل بالموصول السابق، وفسره الزمخشري بالأعمال الصالحة، وقواه بما حكاه عن ابن عباس ليتم مذهبه؛ أو لا مضاف بل هناك مجاز بتلك القرينة من إطلاق اسم المسبب على السبب، والجملة بعد على الاحتمالين في هذا الوجه حال ولا يخفى أن المفازة بمعنى المنجاة مكان النجاة هي الجنة والإيمان أو العمل الصالح ليس سبباً لها نفسها وإنما هو سبب دخولها فلا بد من اعتباره فلا تغفل، وجوز أن تكون المفازة مصدراً ميمياً من فاز منه أي نجا منه يقال: طوبى لمن فاز بالثواب وفاز من العقاب أي ظفر به ونجا، والباء إما للملابسة والجملة بيان للمفازة أي ينجيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصة لهم أي بنفي السوء والحزن عنهم، ولا يخفى ركاكة هذا المعنى، وإما للسببية إما على حذف المضاف أو التجوز نظير ما مر آنفاً، ولا يحتاج هنا إلى اعتبار الدخول كما لا يخفى، والجملة في موضع الحال أيضاً.

وجوز على بعض الأوجه تعلق ﴿بمفازتهم﴾ بما بعده ولا يخفى أنه خلاف الظاهر وبالجملة الاحتمالات العقلية في الآية كثيرة لأن المفازة إما اسم مصدر أومصدر ميمي أو اسم مكان من فاز به ظفر أو من فاز منه نجا والباء إما للملابسة أو للسببية أو للاستعانة، وهي إما متعلقة بما قبلها أو بما بعدها وهذه ستة وثلاثون احتمالاً وإذا ضممت إليها احتمال حذف المضاف في بمفازتهم بمعنى منجاتهم أو نجاتهم واحتمال التجوز فيه كذلك وكذا احتمال كون جملة ﴿لا يمسهم﴾ الخ حالاً من الموصول واحتمال كونها حالاً من ضمير ـ مفازتهم ـ واحتمال كون الحال مقدرة وكونها مقارنة زادت كثيراً، ولا يخفى أن فيها المقبول ودونه بل فيها ما لا يتسنى أصلاً فأمعن النظر ولا تجمد. وقرأ السلمي

والحسن والأعرج والأعمش وحمزة والكسائي وأبو بكر «بمفازاتهم» جمعاً لتكون على طبق المضاف إليه في الدلالة على التعدد صريحاً ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما فالآية رادة على المعتزلة رداً ظاهر ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، وكأن ذكر ذلك للدلالة على أنه سبحانه الغني المطلق وأن المنافع والمضار راجعة إلى العباد، ولك أن تقول: المعنى أنه تعالى حفيظ على كل شيء كما قيل نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ [الأنعام: ١٠٧، الزمر: ٤١، الشورى: ٦ ] وحاصله أنه تعالى يتولى حفظ كل شيء بعد خلقه فيكون إشارة إلى احتياج الأشياء إليه تعالى في بقائها كما أنها محتاجة إليه عزَّ وجلّ في وجودها.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي مفاتيحها كما قال ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم فقيل هو جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: جمع مقليد وقيل: جمع مقلاد من التقليد بمعنى الإلزام ومنه تقليد القضاء وهو إلزامه النظر في أموره، وكذا القلادة للزومها للعنق، وجعل اسماً للآلة المعروفة للإلزام بمعنى الحفظ وهو على جميع هذه الأقوال عربي والأشهر الأظهر كونه معرباً فهو جمع اقليد معرب إكليد وهو جمع شاذ لأن جمع أفعيل على مفاعيل مخالف للقياس وجاء أقاليد على القياس ويقال: في اكليد كليد بلا همزة، وذكر الشهاب أنه بلغة الروم اقليدس وكليد واكليد منه، والمشهور أن كليد فارسي ولم يشتهر في الفارسية إكليد بالهمز، وله مقاليد كذا قيل: مجاز عن كونه مالك أمره ومتصرفاً فيه بعلاقة اللزوم، ويكنى به عن معنى القدرة والحفظ، وجوز كون المعنى الأول كنائياً لكن قد اشتهر فنزل منزلة المدلول الحقيقي فكني به عن المعنى الآخر فيكون هناك كناية على كناية وقد يقتصر على المعنى الأول في الإرادة وعليه قيل هنا المعنى لا يملك أمر السماوات والأرض ولا يتمكن من التصرف فيها غيره عزَّ وجلّ. والبيضاوي بعد ذكر ذلك قال: هو كناية عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لمكان اللام والتقديم، وقال الراغب: مقاليد السماوات والأرض ما يحيط بها، وقيل: خزائنها، وقيل: مفاتيحها، والإشارة بكلها إلى المعنى واحد وهو قدرته تعالى عليها وحفظه لها انتهى.

وجوز أن يكون المعنى لا يملك التصرف في خزائن السماوات والأرض أي ما أودع فيها واستعدت له من المنافع غيره تعالى، ولا يخفى أن هذه الجملة إن كانت في موضع التعليل لقوله سبحانه: ﴿**وهو على كل شيء وكيل**﴾ على المعنى الأول فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا يملك أمر السماوات والأرض أي العالم بأسره غيره تعالى فكأنه قيل: هو تعالى يتولى التصرف في كل شيء لأنه لا يملك أمره سواه عزَّ وجلّ، وإن كانت تعليلاً له على المعنى الثاني فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا قدرة عليها لأحد غيره جل شأنه فكأنه قيل: هو تعالى يتولى حفظ كل شيء لأنه لا قدرة لأحد عليه غيره تعالى، وجوز أن تكون عطف بيان للجملة قبلها وأن تكون صفة ﴿**وكيل**﴾ وأن تكون خبراً بعد خبر فأمعن النظر في ذلك وتدبر. وأخرج أبو يعلى ويوسف القاضي في سننه، وأبو الحسن القطان في المطولات، وابن السني في عمل اليوم والليلة، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: له مقاليد السماوات والأرض فقال: لا إله إلا الله والله أكبر سبحان الله والحمد لله استغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير» الحديث.

وفي رواية ابن مردويه عن ابن عباس أن عثمان جاء إلى النبي ﷺ فقال له: أخبرني عن مقاليد السماوات والأرض فقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الأول والآخر

والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير يا عثمان من قالها إذا أصبح عشر مرات وإذا أمسى أعطاه الله ست خصال. أما أولهن فيحرس من إبليس وجنوده. وأما الثانية فيعطى قنطاراً من الأجر وأما الثالثة فيتزوج من الحور العين. وأما الرابعة فيغفر له ذنوبه. وأما الخامسة فيكون مع إبراهيم عليه السلام. وأما السادسة فيحضره اثنا عشر ملكاً عند موته يبشرونه بالجنة ويزفونه من قبره إلى الموقف فإن أصابه شيء من أهاويل يوم القيامة قالوا له لا تخف إنك من الآمنين ثم يحاسبه الله حساباً يسيراً ثم يؤمر به إلى الجنة فيزفونه إلى الجنة من موقفه كما تزف العروس حتى يدخلوه الجنة بإذن الله تعالى والناس في شدة الحساب. وفي رواية العقيلي والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر أن عثمان سأل النبي ﷺ عن تفسير (له مقاليد السماوات والأرض) فقال عليه الصلاة والسلام: ما سألني عنها أحد تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. وفي رواية الحارث بن أبي أسامة. وابن مردويه عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «وهي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله» وبالجملة اختلفت الروايات في الجواب، وقيل في حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: إنه ضعيف في سنده من لا تصلح روايته، وابن الجوزي قال: إنه موضوع ولم يسلم له وحال الأخبار الأخر الله تعالى أعلم به والظن الضعف.

والمعنى عليها أن لله تعالى هذه الكلمات يوحد بها سبحانه ويمجد وهي مفاتيح خير السماوات والأرض من تكلم بها من المؤمنين أصابه، فوجه إطلاق المقاليد عليها أنها موصلة إلى الخير كما توصل المفاتيح إلى ما في الخزائن، وقد ذكر ﷺ شيئاً من الخير في حديث ابن عباس وعد في الحديث قبله عشر خصال لمن قالها كل يوم مائة مرة وهو بتمامه في الدر المنثور.

**﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾** معطوف على قوله تعالى: **﴿الله خالق كل شيء﴾** الخ أي إنه عز شأنه متصف بهذه الصفات الجليلة الشأن والذين كفروا وجحدوا ذلك أولئك هم الكاملون في الخسران، وقيل: على قوله تعالى: **﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾** ولا يظهر ذلك على بعض الأوجه السابقة فيه.

وقيل: على مقدر تقديره فالذين اتقوا أو فالذين آمنوا بآيات الله هم الفائزون والذين كفروا الخ، وفيه تكلف.

وجوز أن يكون معطوفاً على قوله تعالى: **﴿وينجي الله﴾** الخ فيكون التقدير وينجي الله المتقين والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه تعالى مهيمن على العباد مطّلع على أفعالهم مجاز عليها، وفيه تأكيد لثواب المؤمنين وفلاحهم وعقاب الكفرة وخسرانهم ولم يقل ويهلك الذين كفروا بخسرانهم كما قال سبحانه: **﴿وينجي﴾** الخ للإشعار بأن العمدة في فوز المؤمنين فضله تعالى فلذا جعل نجاتهم مسندة له تعالى حادثة له يوم القيامة غير ثابتة قبل ذلك بالاستحقاق والأعمال بخلاف هلاك الكفرة فإنهم قدموه لأنفسهم بما اتصفوا به من الكفر والضلال ولم يسند له تعالى ولم يعبر عنه بالمضارع أيضاً، وفي ذلك تصريح بالوعد وتعريض بالوعيد حيث قيل: **﴿الخاسرون﴾** ولم يقل الهالكون أو المعذبون أو نحوه وهو قضية الكرم. وعطف الجملة الاسمية على الفعلية مما لا شبهة في جوازه عند النحويين، ومما ذكرنا يعلم رد قول الإمام الرازي: إن هذا الوجه ضعيف من وجهين: الأول وقوع الفصل الكثير بين المعطوف والمعطوف عليه. الثاني وقوع الاختلاف بينهما في الفعلية والاسمية وهو لا يجوز، والإمام أبو حيان منع كون الفاصل كثيراً.

وقال في الوجه الثاني: إنه كلام من لم يتأمل كلام العرب ولا نظر في أبواب الاشتغال. نعم قال في الكشف

يؤيد الاتصال بما يليه دون قوله تعالى: ﴿وينجي﴾ أن قوله سبحانه: ﴿وينجي الله﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا﴾ فلو قيل بعده: ﴿والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ لم يحسن لأن الأحسن على هذا المساق أن يقدم على قوله تعالى: ﴿وينجي الله﴾ على ما لا يخفى ولأنه كالتخلص إلى ما بعده من حديث الأمر بالعبادة والإخلاص إذ ذاك، وهو كلام حسن، ثم الحصر الذي يقتضيه تعريف الطرفين وضمير الفصل باعتبار الكمال كما أشرنا إليه لا باعتبار مطلق الخسران فانه لا يختص بهم؛ وجوز أن يكون قصر قلب فإنهم يزعمون المؤمنين خاسرين.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمروني أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهلون﴾ أي أبعد الآيات المقتضية لعبادته تعالى وحده غير الله أعبد، فغير مفعول مقدم لأعبد و ﴿تأمروني﴾ اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا له ﷺ: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك لفرط غباوتهم ولذا نودوا بعنوان الجهل، وجوز أن يكون ﴿أعبد﴾ في موضع المفعول ـ لتأمروني ـ على أن الأصل تأمروني أن أعبد فحذفت أن وارتفع الفعل كما قيل في قوله:

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى

ويؤيد قراءة من قرأ «أَعْبُدَ» بالنصب، و «غيرَ» منصوب بما دل عليه ﴿تأمروني أعبد﴾ أي تعبدونني غير الله أي أتصيرونني عابداً غيره تعالى، ولا يصح نصبه بأعبد لأن الصلة لا تعمل فيما قبلها والمقدر كالموجود، وقال بعضهم: هو منصوب به وأن بعد الحذف يبطل حكمها المانع عن العمل، وقرأ ابن كثير ﴿ تَأْمُرُونِّي ﴾ بالإدغام وفتح الياء.

وقرأ ابن عامر «تأمرونني» بإظهار النونين على الأصل، ونافع «تَأْمُرُونِيَ» بنون واحدة مكسورة وفتح الياء، وفي تعيين المحذوف من النونين خلاف فقيل: الثانية لأنها التي حصل بها التكرار، وقيل: الأولى لأنها حرف إعراب عرضة للتغيير ﴿ولَقَدْ أُوحيَ إلَيْكَ وَإِلَى الَّذينَ منْ قَبلكَ﴾ أي من الرسل عليهم السلام ﴿لَئنْ أَشْرَكْتَ﴾ أي بالله تعالى شيئاً ما ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ منَ الْخَاسرينَ﴾ الظاهر أن جملة ﴿لئن﴾ الخ نائب فاعل ﴿أوحى﴾ لكن قيل في الكلام حذف والأصل أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك الخ، وإلى الذين من قبلك مثل ذلك، وقيل: لا حذف، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد منه ﷺ والمرسلين الموحى إليهم فإنه أوحى لكل ﴿لئن أشركت﴾ الخ بالإفراد، وذهب البصريون إلى أن الجمل لا تكون فاعلة فلا تقوم مقام الفاعل، ففي البحر أن ﴿إليك﴾ حينئذ نائب الفاعل، والمعنى كما قال مقاتل أوحى إليك وإلى الذين من قبلك بالتوحيد، وقوله تعالى: ﴿لئن أشركت﴾ الخ استئناف خوطب به النبي ﷺ خاصة وهو كما ترى، وأياً ما كان فهو كلام على سبيل الفرض لتهييج المخاطب المعصوم وإقناط الكفرة والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يباشره فكيف بمن عداه، فالاستدلال بالآية على جواز صدور الكبائر من الأنبياء عليهم السلام كما في المواقف ليس بشيء، فاحتمال الوقوع فرضاً كاف في الشرطية لكن ينبغي أن يعلم أن استحالة الوقوع شرعية، ولا ما ﴿لقدْ﴾ و ﴿لئن﴾. موطئتان للقسم واللامان بعد للجواب، وفي عدم تقييد الإحباط بالاستمرار على الإشراك إلى الموت دليل للحنفية الذاهبين إلى أن الردة تحبط الأعمال التي قبلها مطلقاً. نعم قالوا: لا يقضي منها بعد الرجوع إلى الإسلام إلا الحج، ومذهب الشافعي أن الردة لا تحبط العمل السابق عليها ما لم يستمر المرتد على الكفر إلى الموت، وترك التقييد هنا اعتماداً على التصريح به في قوله تعالى: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [ البقرة: ٢١٧ ] ويكون ذلك من حمل المطلق على المقيد.

وأجاب بعض الحنفية بأن في الآية المذكورة توزيعاً ﴿فأولئك حبطت أعمالهم﴾ ناظر إلى الارتداد عن الدين

﴿وأولئك أصحاب النار﴾ الخ ناظر إلى الموت على الكفر فلا مقيد ليحمل المطلق عليه، ومن هذا الخلاف نشأ الخلاف في الصحابي إذا ارتد ثم عاد إلى الإسلام بعد وفاته ﷺ أو قبلها ولم يره هل يقال له: صحابي أم لا، فمن ذهب إلى الإطلاق قال لا ومن ذهب إلى التقييد قال: نعم، وقيل: يجوز أن يكون الإحباط مطلقاً من خصائص النبي عليه الصلاة والسلام إذ شركه وحاشاه أقبح، وفيه ضعف لأن الغرض تحذير أمته وتصوير فظاعة الكفر فتقدير أمر يختص به لا يتعدى من النبي إلى الأمة لا اتجاه له مع أنه لا مستند له من نقل أو عقل، والمراد بالخسران على مذهب الحنفية ما لزم من حبط العمل فكان الظاهر ـ فتكون ـ إلا أنه عدل إلى ما في النظم الجليل للإشعار بأن كلاً من الإحباط والخسران يستقل في الزجر عن الإشراك، وقيل: الخلود في النار فيلزم التقييد بالموت كما هو عند الشافعي عليه الرحمة.

وقرىء «ليحبطن» من أحبط «عَمَلَكَ» بالنصب أي ليحبطن الله تعالى أو الإشراك عملك، وقرىء بالنون ونصب «عملك» أيضاً ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم، والفاء جزائية في جواب شرط مقدر كأنه قيل: إن كنت عابداً أو عاقلاً فاعبد الله فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً عنه، وإلى هذا ذهب الزمخشري وسلفه في كونها جزائية الزجاج، وأنكر أبو حيان كون التقديم عوضاً عن الشرط، ومذهب الفراء والكسائي أن الفاء زائدة بين المؤكد والمؤكد والاسم الجليل منصوب بفعل محذوف والتقدير الله أعبد فاعبده وقدر مؤخراً ليفيد الحصر.

وفي الانتصاف مقتضى كلام سيبويه أن الأصل تنبه فاعبد الله فحذفوا الفعل الأول اختصاراً واستنكروا الابتداء بالفاء ومن شأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه فقدموا المفعول فصارت الفاء متوسطة لفظاً ودالة على المحذوف وانضاف إليها فائدة الحصر لإشعار التقديم بالاختصاص، واعتبار الاختصاص قيل: مما لا بد منه لأنه لم يكن الكلام رداً عليهم فيما أمروه به لولاه فإنهم لم يطلبوا منه عليه الصلاة والسلام ترك عبادة الله سبحانه بل استلام آلهتهم والشرك به عزَّ وجلّ اللهم إلا أن يقال: عبادة الله سبحانه مع الشرك كلا عبادة، والله جل وعلا أغنى الشركاء فمن أشرك في عمله أحداً معه عزَّ وجلّ فعمله لمن أشرك كما يدل عليه كثير من الأخبار، وقرأ عيسى «بل اللَّهُ» بالرفع ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إنعامه تعالى عليك الذي يضيق عنه نطاق الحصر، وفيه إشارة إلى موجب الاختصاص ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموه جل جلاله حق عظمته إذ عبدوا غيره تعالى وطلبوا من نبيه ﷺ عبادة غيره سبحانه قاله الحسن. والسدي، وقال المبرد: أصله من قولهم: فلان عظيم القدر يريدون بذلك جلالته، وأصل القدر اختصاص الشيء بعظم أو صغر أو مساواة، وقال الراغب: أي ما عرفوا كنهه عزَّ وجلّ. وتعقب بأن معرفة كنهه تعالى أي حقيقته سبحانه لا يخص هؤلاء لتعذر الوقوف على الحقيقة، ومن هنا:

العجز عن درك الإدراك إدراك     والبحث عن كنه ذات الله إشراك

ولا يخفى أن المسألة خلافية، وما ذكر على تقدير التسليم يمكن دفعه بالعناية. نعم أولى منه ما قيل: أي ما عرفوه كما يليق به سبحانه حيث جعلوا له سبحانه شريكاً، وظاهر كلام بعضهم أن الكلام على تقدير مضاف أي ما قدروا في أنفسهم وما تصوروا عظمة الله حق التصور فلم يعظموه كما هو حقه عزَّ وجلّ حيث وصفوه بما لا يليق بشؤونه الجليلة من الشركة ونحوها، وأياً ما كان فهو متعلق بما قبله من حيث إنّ فيه تجهيلهم في الإشراك ودعائهم رسوله ﷺ إليه، وقيل: المعنى ما وصفوا الله تعالى حق صفته إذ جحدوا البعث ووصفوه سبحانه بأنه خالق الخلق عبثاً وأنه سبحانه عاجز عن الإعادة والبعث وهو خلاف الظاهر، وعليه يكون للتمهيد لأمر النفخ في الصور، وضمير الجمع

على جميع ما ذكر لكفار قريش كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقيل: الضمير لليهود تكلموا في صفات الله تعالى وجلاله فألحدوا وجسموا وجاؤوا بكل تخليط فنزلت.

وقرأ الأعمش حق «قَدَرَهُ» بفتح الدال، وقرأ الحسن وعيسى وأبو نوفل وأبو حيوة ﴿وَمَا قَدَّرُوا ﴾ بتشديد الدال «حَقّ قَدَرَهُ» بفتح الدال ﴿وَالأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بيَمينه ﴾ الجملة في موضع الحال من الاسم الجليل و ﴿جميعاً ﴾ حال من المبتدأ عند من يجوزه أو من مقدر كأثبتها جميعاً كما قيل، وهو جار مجرى الحال المؤكدة في أن العامل منتزع من مضمون الجملة، وفي التقريب هو حال من الضمير في ﴿قبضته ﴾ لأنه بمعنى مقبوضة وكان الظاهر أن يؤخر عنه وإنما قدم عليه ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة أو بعض دون بعض ولكن عن الأرضين كلها أو عن جميع أبعاضها. وجاز هذا التقديم لأن المصدر لم يعمل من حيث كونه مصدراً بل لكونه بمعنى اسم المفعول، وقال الحوفي: العامل في الحال ما دل عليه قبضته لا هي، وهو كما ترى، و ﴿يوم القيامة ﴾ معمول ﴿قبضته ﴾ وهي في الأصل المرة الواحدة من القبض وتطلق على المقدار المقبوض كالقُبضة بضم القاف وجعلت صفة مشبهة حينئذ، وجوز كل من إرادة المقبوضة والمعنى المصدري هنا، والكلام على الثاني على تقدير مضاف أي ذوات قبضته أي يقبضهن سبحانه قبضة واحدة، وقرأ الحسن «قَبْضَتَهُ» بالنصب على أنه ظرف مختص مشبه بالمبهم ولذا لم يصرح بفي معه وهو مذهب الكوفيين، والبصريون يقولون: إن النصب في مثل خطأ غير جائز وأنه لا بد من التصريح بفي.

وقرأ عيسى والجحدري «مطويات» بالنصب على أن «السماوات» عطف على «الأرض» مشاركة لها في الحكم أي والسماوات قبضته، و «مطويات» حال من «السماوات» عند من يجوز مجيء الحال من مثل ذلك أو من ضميرها المستتر في (قبضته) على أنها بمعنى مقبوضته أو من ضميرها محذوفاً أي أثبتها مطويات، و ﴿بيمينه ﴾ متعلق بمطويات أو على أن ﴿السماوات ﴾ مبتدأ و ﴿بيمينه ﴾ الخبر و «مطويات» حال أيضاً إما من المبتدأ أو من الضمير المحذوف أو من الضمير المستتر في الخبر بناء على مذهب الأخفش من جواز تقديم الحال في مثل ذلك.

والكلام عند كثير من الخلف تمثيل لحال عظمته تعالى ونفاذ قدرته عزَّ وجلّ وحقارة الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام بالإضافة إليها بحال من يكون له قبضة فيها الأرض جميعاً ويمين بها يطوي السماوات أو بحال من يكون قبضة فيها الأرض والسماوات ويمين بها يطوي السماوات من غير ذهاب القبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز بالنسبة إلى المجرى عليه وهو الله عزَّ شأنه، وقال بعضهم: المراد التنبيه على مزيد جلالته عزَّ وجلّ وعظمته سبحانه بإفادة أن الأرض جميعاً تحت ملكه تعالى يوم القيامة فلا يتصرف فيها غيره تعالى شأنه بالكلية كما قال سبحانه: ﴿الملك يومئذ لله ﴾ [ الحج: ٥٦ ] والسماوات مطويات طي السجل للكتب بقدرته التي لا يتعاصاها شيء.

وفيه رمز إلى أن ما يشركونه معه عزَّ وجلّ أرضياً كان أم سماوياً مقهور تحت سلطانه جل شأنه وعز سلطانه فالقبضة مجاز عن الملك أو التصرف كما يقال: بلد كذا في قبضة فلان، واليمين مجاز عن القدرة التامة، وقيل: القبضة مجاز عما ذكر ونحوه والمراد باليمين القسم أي والسماوات مفنيات بسبب قسمه تعالى لأنه عزَّ وجلّ أقسم أن يفنيها، وهو مما يهزأ منه لا مما يهتز استحساناً له، والسلف يقولون أيضاً: إن الكلام تنبيه على مزيد جلالته تعالى وعظمته سبحانه ورمز إلى أن آلهتهم أرضية أم سماوية مقهورة تحت سلطانه عزَّ وجلّ إلا أنهم لا يقولون: إن القبضة مجاز عن الملك أو التصرف ولا اليمين مجاز عن القدرة بل ينزهون الله تعالى عن الأعضاء والجوارح ويؤمنون بما نسبه إلى ذاته بالمعنى الذي أراده سبحانه وكذا يفعلون في الأخبار الواردة في هذا المقام.

فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي. والنسائي وغيرهم عن ابن مسعود قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد الله يحمل السماوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع فيقول: أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله عليه الصلاة والسلام ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ الآية، والمتأولون يتأولون الأصابع على الاقتدار وعدم الكلفة كما في قول القائل: أقتل زيداً بأصبعي، ويبعد ذلك ظاهر ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابن عباد قال: مر يهودي على رسول الله ﷺ وهو جالس قال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه وأشار بالسبابة والأرضين على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بأصابعه فأنزل الله تعالى ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ وجعل بعض المتأولين الإشارة إعانة على التمثيل والتخييل. وزعم بعضهم أن الآية نزلت رداً لليهودي حيث شبه وذهب إلى التجسيم وإن ضحكه عليه الصلاة والسلام المحكي في الخبر السابق كان للرد أيضاً وأن «تصديقاً له» في الخبر من كلام الراوي على ما فهم، ولا يخفى أن ذلك خلاف الظاهر جداً، وجعلوا أيضاً من باب الإعانة على التمثيل وتخييل العظمة فعله عليه الصلاة والسلام حين قرأ هذه الآية، فقد أخرج الشيخان والنسائي وابن ماجة وجماعة عن ابن عمر «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه**﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده ويحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب نفسه أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرّن به» وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مقسم أنه نظر إلى ابن عمر كيف يحكي رسول الله ﷺ قال: يأخذ الله تعالى سماواته وأرضيه بيديه ويقول: أنا الله ويقبض أصابعه ويبسطها أنا الملك».

وفي شرح الصحيح للإمام النووي نقلاً عن المازري أن قبض النبي ﷺ أصابعه وبسطها تمثيل لقبض هذه المخلوقات وجمعها بعد بسطها وحكاية للمبسوط المقبوض وهو السماوات والأرضون لا إشارة إلى القبض والبسط الذي هو صفة للقابض والباسط سبحانه وتعالى ولا تمثيل لصفة الله تعالى السمعية المسماة باليد التي ليست بجارحة انتهى، ثم إنّ ظاهر بعض الأخبار يقتضي أن قبض الأرض بعد طي السماوات وأنه بيد أخرى. أخرج مسلم عن ابن عمر قال: «قال رسول الله ﷺ: يطوي الله تعالى السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أين الجبارون أين المتكبرون؟» وفي الشرح نقلاً عن المازري أيضاً أن إطلاق اليدين لله تعالى متأول على القدرة، وكني عن ذلك باليدين لأن أفعالنا تقع باليدين فخوطبنا بما نفهمه ليكون أوضح وأؤكد في النفوس، وذكر اليمين والشمال حتى يتم التأول لأنا نتناول باليمين ما نكرمه وبالشمال ما دونه ولأن اليمين في حقنا تقوى لما لا تقوى له الشمال، ومعلوم أن السماوات أعظم من الأرض فأضافها إلى اليمين وأضاف الأرضين إلى الشمال ليظهر التقريب في الاستعارة وإن كان الله سبحانه وتعالى لا يوصف بأن شيئاً أخف عليه من شيء ولا أثقل من شيء انتهى. والصوفية يقولون بالتجلي الصوري مع بقاء الإطلاق والتنزيه المدلول عليه بليس كمثله شيء، والأمر عليه سهل جداً. ثم إنّ التصرف في الأرض والسماوات يكون والناس على الصراط كما جاء في خبر رواه مسلم عن عائشة مرفوعاً، وروي أيضاً عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة» والكلام في هذا الخبر كالكلام في نظائره، وإياك من التشبيه والتجسيم، وكذا من نسبة ذلك إلى السلف ولا تك كالمعتزلة في التحامل عليهم والوقيعة فيهم، ويكفي دليلاً على جهل المعتزلة بربهم زعمهم أنه عزَّ وجلّ فوض العباد فهم يفعلون ما لا يشاء

ويشاء ما لا يفعلون ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي أبعد من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم أو عما يشركونه من الشركاء ـ فسبحان ـ للتعجب وتتعلق به ﴿عن﴾ بالتأويل بما ذكر و ﴿ما﴾ تحتمل المصدرية والموصولية ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ المشهور أن النافخ فيه ملك واحد وأنه إسرافيل عليه السلام بل حكى القرطبي الإجماع عليه. وفي حديث أخرجه ابن ماجة والبزار وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً أن النافخ اثنان، ويدل عليه أيضاً أخبار أخر، منها ما أخرجه أحمد. والحاكم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «النافخان في السماء الثانية رأس أحدهما بالمشرق ورجلاه بالمغرب ينتظران متى يؤمران أن ينفخا في الصور فينفخا» وفي بعض الآثار ما يدل على أنه واحد وأنه شاخص ببصره أي إسرافيل عليه السلام ما طرف منذ خلقه الله تعالى ينتظر حتى يشير إليه فينفخ في الصور. والصور قرن عظيم فيه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ونفس منفوسة. وأخرج أبو الشيخ عن وهب أنه من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزجاجة به ثقب دقيقة بعدد الأرواح وفي وسطه كوة كاستدارة السماء والأرض ونحن نؤمن به ونفوض كيفيته إلى علام الغيوب جل شأنه. وأنكر بعضهم ذلك وقال: هو جمع صورة كما في قراءة قتادة وزيد بن علي «في الصُّوَر» بفتح الواو وقد مر الكلام في ذلك، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، وبني الفعل للمفعول لعدم تعلق الغرض بالفاعل بل الغرض إفادة هذا الفعل من أي فاعل كان فكأنه قيل: ووقع النفخ في الصور ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ أي ماتوا بسبب ذلك، ويحتمل أنهم يغشى عليهم أولاً ثم يموتون، ففي الأساس صعق الرجل إذا غشي عليه من هدة أو صوت شديد يسمعه وصعق إذا مات. وفي صحيح مسلم من حديث طويل فيه ذكر الدجال «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس» وقرىء «فَصُعِقَ» بضم الصاد ﴿إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال السدي: جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت عليهم السلام، وقيل: هم وحملة العرش فإنهم يموتون بعد، وفي ترتيب موتهم اضطراب مذكور في الدر المنثور، وقيل: رضوان والحور ومالك والزبانية وروي ذلك عن الضحاك، وقيل: من مات قبل ذلك أي يموت من في السماوات والأرض إلا من سبق موته لأنهم كانوا قد ماتوا؛ قال في البحر: وهذا نظير ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ [ الدخان: ٥٦ ] ومن الغريب ما حكي فيه أن المستثنى هو الله عزَّ وجلّ، ولا يخفى عليك حاله متصلاً كان الاستثناء أم منقطعاً، وقيل: هو موسى عليه السلام وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى في تحقيق ذلك، وقيل غير ذلك.

ويراد بالسماوات على أكثر الأقوال جهة العلو وإلا لم يتصل الاستثناء فإن حملة العرش مثلاً ليسوا في السماوات بالمعنى المعروف، وقيل: إنه لم يرد في التعيين خبر صحيح ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي في الصور وهو ظاهر في أنه ليس بجمع وإلا لقيل فيها ﴿أُخرَى﴾ أي نفخة أخرى، وهو يدل على أن المراد بالأول ونفخ في الصور نفخة واحدة كما صرح به في مواضع لأن العطف يقتضي المغايرة فلو أريد المطلق الشامل للأخرى لم يكن لذكرها هاهنا وجه، و﴿أخرى﴾ تحتمل النصب على أنها صفة مصدر مقدر أي نفخة أخرى، والرفع على أنها صفة لنائب الفاعل، وعلى الأول كان النائب عنه الظرف. وصح في صحيحي البخاري ومسلم أن الله تعالى ينزل بين النفختين ماء من السماء. جاء في بعض الروايات أنه كالطل بالمهملة وفي بعضها كمني الرجال فتلبث منه أجساد الناس وإن بين النفختين أربعين وهذا عن أبي هريرة مرفوعاً ولم يبين فيه ما هذه الأربعون.

وفي حديث أخرجه أبو داود أنها أربعون عاماً، وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن العاص[1] قال: ينفخ في

---

(١) قوله عبد الله بن العاص هكذا في خط المؤلف وفي الدر المنثور «عبد الله بن العاصي» ولعله عبد الله بن عمرو بن العاص.

الصور النفخة الأولى من باب إيلياء الشرقي أو قال الغربي والنفخة الثانية من باب آخر ﴿**فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ**﴾ قائمون من قبورهم ﴿**يَنْظُرُونَ**﴾ أي ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ماذا يفعل بهم، وقيل: يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم. وتعقب بأن قولهم عند قيامهم ﴿**من بعثنا من مرقدنا**﴾ يأباه ظاهراً نوع إباء.

وجوز أن يكون قيام من القيام مقابل الحركة أي فإذا هم متوقفون جامدون في أمكنتهم لتحيرهم. واعترض بأن قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ [ يس: ٥١ ] ظاهر في خلافه لأن النسل الإسراع في المشي، وكذا قوله تعالى: ﴿يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ [ المعارج: ٤٣ ] وقرأ زيد بن علي «قياماً» بالنصب على أن جملة ﴿**ينظرون**﴾ خبرهم «وقياماً» حال من ضمير ﴿**ينظرون**﴾ قدم للفاصلة، أو من المبتدأ عند من يجوز ذلك. وفي البحر النصب على الحال وخبر المبتدأ الظرف الذي هو ﴿**إذا**﴾ الفجائية وهي حال لا بد منها إذ هي محط الفائدة إلا أن يقدر الخبر محذوفاً أي فإذا هم مبعوثون أو موجودون قياماً، وإذا نصب «قياماً» على الحال فالعامل فيها ذلك الخبر المحذوف إن قلنا به وإلا فالعامل هو العامل في الظرف فإن كان ﴿**إذا**﴾ ظرف مكان على ما يقتضيه ظاهر كلام سيبويه فتقديره فبالحضرة هم قياماً، وإن كان ظرف زمان كما ذهب إليه الرياشي فتقديره ففي ذلك الزمان الذي نفخ فيه هم أي وجودهم، واحتيج إلى تقديره هذا المضاف لأن ظرف الزمان لا يكون خبراً عن الجثة، وإن كانت ﴿**إذا**﴾ حرفاً كما زعم الكوفيون فلا بد من تقدير الخبر إلا أن اعتقدنا أن ﴿**ينظرون**﴾ هو الخبر ويكون عاملاً في الحال انتهى. ولعمري إنّ مذهب الكوفيين أقل تكلفاً، هذا وهاهنا إشكال بناء على أنهم فسروا نفخة الصعق بالنفخة الأولى التي يموت بها من بقي على وجه الأرض. فانه قد أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والإمام أحمد وغيرهم عن أبي هريرة قال: «قال رجل من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البشر فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه قال: أتقول هذا وفينا رسول الله ﷺ؟ فذكرت ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: قال الله تعالى: ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**﴾ فأكون أول من يرفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله تعالى» وهو يأبى تفسير النفخة بذلك ضرورة أن موسى عليه السلام قد مات قبل تلك النفخة بألوف سنين، واحتمال أنه عليه السلام لم يمت كما قيل في الخضر وإلياس مما لا ينبغي أن يتفوه به حي، ويدل كما قال بعض الأجلة: على أنها نفخة البعث.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن تكون هذه صعقة فزع بعد النشر حين تنشق السماوات فتتوافق الآيات والأحاديث وتكون النفخات ثلاثاً وهو اختيار ابن العربي. ورده القرطبي بأن أخذ موسى عليه السلام بقائمة العرش إنما هو عند نفخة البعث وادعى أن الصحيح أن ليس إلا نفختان لا ثلاث ولا أربع كما قيل.

ثم قال: والذي يزيح الإشكال ما قال بعض مشايخنا: إن الموت ليس بعدم محض بالنسبة للأنبياء عليهم السلام والشهداء فإنهم موجودون أحياء وإن لم نرهم فإذا نفخت نفخة الصعق صعق كل من في السماء والأرض وصعقة غير الأنبياء موت وصعقتهم غشي فإذا كانت نفخة البعث عاش من مات وأفاق من غشي عليه، ولذا وقع في الصحيحين فأكون أول من يفيق انتهى، ولا يخفى أنه يحتاج إلى القول بجواز استعمال المشترك في معنييه معاً أو إلى ارتكاب عموم المجاز أو التزام إرادة غشي عليهم وأن موت من يموت بعد الغشي مفاد من أمر آخر فتدبر.

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ

زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿وَأَشْرَقَت الأَرْضُ﴾ أي أرض المحشر وهي الأرض المبدلة من الأرض المعروفة. وفي الصحيح يحشر الناس على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد وهي أوسع بكثير من الأرض المعروفة. وفي بعض الروايات أنها يومئذ من فضة ولا يصح، أي أضاءت ﴿بنُور رَبِّهَا﴾ هو على ما روي عن ابن عباس نور يخلقه الله تعالى بلا واسطة أجسام مضيئة كشمس وقمر، واختاره الإمام وجعل الإضافة من باب ﴿ناقة الله﴾ [ الأعراف: ٧٣، هود: ٦٤، الشمس: ١٣ ] وعن محيي السنة تفسيره بتجلي الرب لفصل القضاء، وعن الحسن والسدي تفسيره بالعدل وهو من باب الاستعارة وقد استعير لذلك وللقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل أي وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه سبحانه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات، واختار هذا الزمخشري وصحح أولاً تلك الاستعارة بتكررها في القرآن العظيم، وحققها ثانياً بقوله: وينادي على ذلك إضافته إلى اسمه تعالى لأنه عزَّ وجلّ هو الحق العدل إشارة إلى الصارف إلى التأويل، وعينها ثالثها بإضافة اسمه تعالى الرب إلى الأرض لأن العدل هو الذي يتزين به الأرض لا البرهان مثلاً، ورابعاً بما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق لأنه كله تفصيل العدل بالحقيقة، وأيدها خامساً بالعرف العام فإن الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك، وسادساً بقوله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة» فإنه يقتضي أن يكون العدل نوراً فيه، وسابعاً بأن فتح الآية وختمها بنفي الظلم يدل عليه ليكون من باب رد العجز على الصدر على طريقة الطرد والعكس. ورجح ما اختاره الإمام بأن الأصل الحقيقة ولا صارف لأن الإضافة تصح بأدنى ملابسة، وأيد ما حكي عن محيي السنة ببعض الأحاديث.

وتعقب ذلك صاحب الكشف فقال: إن إضافة الملابسة مجاز(١) والترجيح لما اختاره جار الله لما ذكر من الفوائد ولأنه الشائع في استعمال القرآن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ [ النور: ٣٥ ] وأما تجلي الرب سبحانه فسواء حمل على تجلي الجلال أو تجلي الجمال لا يقتضي إشراق الأرض بنور إلا بأحد المعنيين أعني العدل أو عرضاً يخلقه الله تعالى عند التجلي في الأرض فلو توهم من تجليه تعالى أنه ينعكس نور منه على الأرض لاستحال إلا بالتفسير المذكور فليس قولاً ثالثاً لينصر ويؤيد بالحديث الذي لا يدل على أنه تفسير الآية

---

(١) هو اختيار لأحد قولين في المسألة اهـ منه.

المشتمل على حديث الرؤية وإلقاء ستره تعالى على العبد يذكر ما فعل به وما جنى انتهى، ولعل الأوفق بما يشعر به كثير من الأخبار أن قوله سبحانه: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ إشارة إلى تجليه عزَّ وجلّ لفصل القضاء وقد يعبر عنه بالإتيان، وقد صرح به في قوله تعالى: ﴿يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ [ البقرة: ٢١٠ ] ولم يتأول ذلك السلف بل أثبتوه له سبحانه كالنزول على الوجه الذي أثبته عزَّ وجلّ لنفسه.

ولا يبعد أن يكون هذا النور هو النور الوارد في الحديث الصحيح «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور» ويقال فيه كالحجاب نحو ما قال السلف في سائر المتشابهات أو هو نور آخر يظهر عند ذلك التجلي، ولا أقول: هو نور منعكس من الذات المقدس انعكاس نور الشمس مثلاً من الشمس بل الأمر فوق ما تنتهي إليه العقول، وأنى وهيهات وكيف ومتى يتصور إلى حقيقة ذلك الوصول، ويومىء إلى أن ذلك التجلي مقرون بالعدل التعبير بعنوان الربوبية مضافاً إلى ضمير الأرض والله تعالى أعلم بمراده. وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير وأبو الجوزاء ﴿أُشْرِقَت﴾ بالبناء للمفعول؛ قال الزمخشري: من شرقت بالضوء تشرق إذا امتلأت به واغتصت وأشرقها الله تعالى كما تقول: ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً، وقال ابن عطية: هذا إنما يترتب من فعل يتعدى فهذا على أن يقال: أشرق البيت وأشرقه السراج فيكون الفعل مجاوزاً وغير مجاوز، وقال صاحب اللوامح وجب أن يكون الإشراق على هذه القراءة منقولاً من شرقت الشمس إذا طلعت فيصير متعدياً والمعنى أذهبت ظلمة الأرض، ولا يجوز أن يكون من أشرقت إذا أضاءت فإن ذلك لازم وهذا قد يتعدى إلى المفعول ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ﴾ قال السدي الحساب، فالكتاب مجاز عن الحساب ووضعه ترشيح له، والمراد به الشروع فيه ويجوز جعل الكلام تمثيلاً.

وقال بعضهم: صحائف الأعمال وضعت بأيدي العمال فالتعريف للجنس أو الاستغراق، وقيل: اللوح المحفوظ وضع ليقابل به الصحائف فالتعريف للعهد، وروي هذا القول عن ابن عباس، واستبعده أبو حيان وقال: لعله لا يصح عن ابن عباس ﴿وَجِيءَ بالنَّبِيِّينَ﴾ قيل ليسألوا هل بلغوا أممهم؟ وقيل: ليحضروا حسابهم ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ قال عطاء ومقاتل وابن زيد: الحفظة، وكأنهم أرادوا أنهم يشهدون على كل من الأمم أنهم بلغوا أو يشهدون على كل بعمله كما قال سبحانه: ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ [ ق: ٢١ ] وفي بعض الآثار أنه يؤتى باللوح المحفوظ وهو يرتعد فيقال له: هل بلغت إسرافيل؟ فيقول: نعم يا رب بلغته فيؤتى بإسرافيل وهو يرتعد فيقال له: هل بلغك اللوح؟ فيقول: نعم يا رب فعند ذلك يسكن روع اللوح ثم يقال لإسرافيل فأنت هل بلغت جبرائيل؟ فيقول: نعم يا رب فيؤتى بجبرائيل وهو يرتعد فيقال له: هل بلغك إسرافيل؟ فيقول: نعم يا رب فعند ذلك يسكن روع إسرافيل ثم يقال لجبرائيل: فأنت هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب فيؤتى بالمرسلين وهم يرتعدون فيقال لهم: هل بلغكم جبرائيل؟ فيقولون: نعم فيسكن عند ذلك روع جبرائيل ثم يقال لهم: فأنتم هل بلغتم؟ فيقولون: نعم فيقال للأمم: هل بلغكم الرسل؟ فيقول كَفَرتُهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير فيعظم على الرسل الحال ويشتد البلبال فيقال لهم: من يشهد لكم؟ فيقولون: النبي الأمي وأمته فيؤتى بالأمة المحمدية فيشهدون لهم أنهم بلغوا فيقال لهم: من أين علمتم ذلك؟ فيقولون: من كتاب أنزله الله تعالى علينا ذكر سبحانه فيه أن الرسل بلغوا أممهم ويزكيهم النبي عليه الصلاة والسلام وذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [ البقرة: ١٤٣ ] ومن هنا قيل: المراد بالشهداء في الآية أمة نبينا ﷺ، وقال الجبائي وأبو مسلم هم عدول الآخرة يشهدون للأمم وعليهم، وقيل: جميع الشهداء من الملائكة وأمة محمد عليه الصلاة والسلام والجوارح والمكان، وأياً ما كان فالشهداء جمع

شاهد، وقال قتادة والسدي: المراد بهم المستشهدون في سبيل الله تعالى فهو جمع شهيد وليس بذاك ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين العباد المفهوم من السياق ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد بناء على أن الظلم حقيقة لا يتصور في حقه تعالى فإن الأمر كله له عزَّ وجلّ.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي أعطيت جزاء ذلك كاملاً ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوته سبحانه شيء من أعمالهم، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ الخ تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها، والفاء ليس بلازم، والسوق يقتضي الحث على المسير بعنف وازعاج وهو الغالب ويشعر بالإهانة وهو المراد هنا أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة، والزمر جمع زمرة قال الراغب: هي الجماعة القليلة: ومنه قيل شاة زمرة قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة، ومنه اشتق الزمر، والزمارة كناية عن الفاجرة، وقال بعضهم: اشتقاق الزمرة من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ليدخلوها وكانت قبل مجيئهم غير مفتوحة فهي كسائر أبواب السجون لا تزال مغلقة حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها فتفتح ليدخلوها فإذا دخلوها أغلقت عليهم، و ﴿حتى﴾ هي التي تحكى بعدها الجملة، والكلام على إذا الواقعة بعدها قد مر في الأنعام. وقرأ غير واحد «فُتحتُ» بالتشديد ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أي من جنسكم تفهمون ما ينبؤونكم به ويسهل عليكم مراجعتهم.

وقرأ ابن هرمز «تأتكم» بتاء التأنيث، وقرىء «نذر منكم» ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ المنزلة لمصلحتكم ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي وقتكم هذا وهو وقت دخولكم النار لأن المنذر به في الحقيقة العذاب ووقته، وجوز أن يراد به يوم القيامة والآخرة لاشتماله على هذا الوقت أو على ما يختص بهم من عذابه وأهواله، ولا ينافيه كونه في ذاته غير مختص بهم؛ والإضافة لامية تفيد الاختصاص لأنه يكفي للاختصاص ما ذكر، نعم الأول أظهر فيه. واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل الشرع لأنهم وبخوهم بكفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وانذارهم ولو كان قبح الكفر معلوماً بالعقل دون الشرع لقيل. ألم تعلموا بما أودع الله تعالى فيكم من العقل قبح كفركم، ولا وجه لتفسير الرسل بالعقول لإباء الأفعال المستندة إليها عن ذلك، نعم هو دليل إقناعي لأنه إنما يتم على اعتبار المفهوم وعموم الذين كفروا وكلاهما محل نزاع، وقيل في وجه الاستدلال: إن الخطاب للداخلين عموماً يقتضي أنهم جميعاً أنذرهم الرسل ولو تحقق تكليف قبل الشرع لم يكن الأمر كذلك. وتعقب بأن للخصم أن لا يسلم العموم، ولمن قال بوجوب الإيمان عقلاً أن يقول: إنما وبخوهم بالكفر بعد التبليغ لأنه أبعد عن الاعتذار وأحق بالتوبيخ والإنكار ﴿قَالُوا بَلَى﴾ قد أتانا رسل منا تلوا علينا آيات ربنا وأنذرونا لقاء يومنا هذا ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ﴾ أي وجبت ﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أي كلمة الله تعالى المقتضية له ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ والمراد بها الحكم عليهم بالشقاوة وأنهم من أهل النار لسوء اختيارهم أو قوله تعالى لإبليس: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ ص: ٨٥ ] ووضعوا الكافرين موضع ضميرهم للإيماء إلى علية الكفر، والكلام اعتراف لا اعتذار ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقدراً خلودكم فيها، والقائل يحتمل أن يكون الخزنة وترك ذكرهم للعلم به مما قبل، ويحتمل أن يكون غيرهم ولم يذكر لأن المقصود ذكر هذا المقول المهول من غير نظر إلى قائله؛ وقال بعض الأجلة: أبهم القائم لتهويل المقول.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أل فيه سواء كانت حرف تعريف أم اسم موصول للجنس وفاء بحق فاعل باب نعم وبئس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفاً أي فبئس مثواهم جهنم والتعبير بالمثوى لمكان ﴿خالدين﴾ وفي

التعبير بالمتكبرين إيماء إلى أن دخولهم النار لتكبرهم عن قبول الحق والانقياد للرسل المنذرين عليهم الصلاة والسلام وهو في معنى التعليل بالكفر، ولا ينافي تعليل ذلك بسبق كلمة العذاب عليهم لأن حكمه تعالى وقضاءه سبحانه عليهم بدخول النار ليس إلا بسبب تكبرهم وكفرهم لسوء اختيارهم المعلوم له سبحانه في الأزل، وكذا قوله عزَّ وجلّ لأملأن فهناك سببان قريب وبعيد والتعليل بأحدهما لا ينافي التعليل بآخر فتذكر وتدبر.

﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً**﴾ جماعات مرتبة حسب ترتب طبقاتهم في الفضل، وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل» والمراد بالسوق هنا الحث على المسير للإسراع إلى الإكرام بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة وتعجيلهم إلى العقاب والآلام واختير للمشاكلة، وقوله سبحانه: ﴿**إلى الجنة**﴾ يدفع إيهام الإهانة مع أنه قد يقال: إنهم لما أحبوا لقاء الله تعالى أحب الله تعالى لقاءهم فلذا حثوا على دخول دار كرامته جل شأنه قاله بعض الأجلة، واختار الزمخشري أن المراد هنا بسوقهم سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وهذا السوق والحث أيضاً للإسراع بهم إلى دار الكرامة.

وتعقب بأنه لا قرينة على إرادة ذلك وكون جميع المتقين لا يذهب بهم إلا راكبين يحتاج إلى دليل، والاستدلال بقوله تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ [ مريم: ٨٥ ] لا يتم إلا على القول بأن الوفد لا يكونون إلا ركباناً وأن الركوب يستمر لهم إلى أن يدخلوا الجنة، وفي الكشف أنه تفسير ظاهر يؤيده الأحاديث الكثيرة ويناسب المقام لأن السوقين بعد فصل القضاء واللطف الخالص في شأن البعض والقهر الخالص في شأن البعض ولا ينافي مقام عظمة مالك الملوك على ما توهم انتهى، وأقول: إن حمل الذين اتقوا على المخلصين فالقول بركوبهم قول قوي وإن حمل على المحترز عن الشرك خاصة ليشمل المخلصين فالقول بذلك قول ضعيف إذ منهم من لا يدخل الجنة إلا بعد أن يدخل النار ويعذب فيها، وظاهر كثير من الأخبار أن من هذا الصنف من يذهب إلى الجنة مشياً.

ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبو أخرى وتسفعه النار مرة فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله تعالى شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقول: أي رب أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها فأشرب من مائها فيقول الله تعالى: يا ابن آدم لعلي أن أعطيتكها سألتني غيرها فيقول: لا يارب ويعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه» الحديث، وقال بعض العارفين: إن المتقين يساقون إلى الجنة لأنهم قد رأوا الله تعالى في المحشر فلرغبتهم في رؤيته عزَّ وجلّ ثانياً لا يحبون فراق ذلك الموطن الذي رأوه فيه ولشدة حبهم وشغفهم لا يكاد يخطر لهم أنهم سيرونه سبحانه إذا دخلوا الجنة، والمحبة إذا عظمت فعلت بصاحبها أعظم من ذلك وأعظم فكأنها غلبتهم حتى خيلت إليهم أن ذلك الموطن هو الموطن الذي يرى فيه عزَّ وجلّ وهو محل تجليه على محبيه جل جلاله وعظم نواله فأحجموا عن المسير ووقفوا منتظرين رؤية اللطيف الخبير وغدا لسان حال كل منهم يقول:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم

ويدل على رؤيتهم إياه عزَّ وجلّ هناك ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «إن أناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا قال: فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من يعبد الشمس الشمس ويتبع من يعبد القمر القمر ويتبع من يعبد الطواغيت

الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: أنا رَبكم فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم» الحديث، ومع هذا فسوقهم ليس كسوق الذين كفروا كما لا يخفى.

وقيل: السائق للكفرة ملائكة الغضب والسائق للمتقين شوقهم إلى مولاهم فهو سبحانه لهم غاية الإرب، وليست الجنة عندهم هي المقصودة بالذات ولا مجرد الحلول بها أقصى اللذات وإنما هي وسيلة للقاء محبوبهم الذي هو نهاية مطلوبهم ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وقرىء بالتشديد، والواو وللحال والجملة حالية بتقدير قد على المشهور أي جاؤوها وقد فتحت لهم أبوابها كقوله تعالى: ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ [ ص: ٥٠ ] ويشعر ذلك بتقدم الفتح كأن خزنة الجنات فتحوا أبوابها ووقفوا منتظرين لهم، وهذا كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه وتقف منتظرة له، وفي ذلك من الاحترام والإكرام ما فيه، والظاهر أن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ الخ عطف على ﴿فتحت أبوابها﴾ وجواب ﴿إذا﴾ محذوف مقدر بعد ﴿خالدين﴾ للإيذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات ما لا يحيط به نطاق العبارات كأنه قيل: إذا جاؤوها مفتحة لهم أبوابها وقال لهم خزنتُها ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي من جميع المكاره والآلام وهو يحتمل الإخبار والإنشاء.

﴿طِبْتُمْ﴾ أي من دنس المعاصي، وقيل: طبتم نفساً بما أتيح لكم من النعيم المقيم، والأول مروي عن مجاهد وهو الأظهر، والجملة في موضع التعليل ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي مقدرين الخلود كان ما كان مما يقصر عنه البيان أو فازوا بما لا يعد ولا يحصى من التكريم والتعظيم، وقدره المبرد سعدوا بعد ﴿خالدين﴾ أيضاً، ومنهم من قدره قبل ﴿وفتحت﴾ أي حتى إذا جاؤوها جاؤوها وقد فتحت وليس بشيء، ومنهم من قدره نحو ما قلنا قبل ﴿وقال﴾ وجعل جملة «قال» الخ معطوفة عليه، وما تقدم أقوى معنى وأظهر.

وقال الكوفيون: واو ﴿وفتحت﴾ زائدة والجواب جملة ﴿فتحت﴾ وقيل: الجواب ﴿قال لهم خزنتها﴾ والواو زائدة، والمعول عليه ما ذكرنا أولاً وبه يعلم وجه اختلاف الجملتين أعني قوله تعالى في أهل النار: ﴿حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها﴾ وقوله جل شأنه في أهل الجنة: ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها﴾ حيث جيء بواو في الجملة الثانية وحذف الجواب ولم يفعل كذلك في الجملة الأولى، فما قيل: إن الواو في الثانية واو الثمانية لأن المفتح ثمانية أبواب ولما كانت أبواب النار سبعة لا ثمانية لم يؤت بها وجه ضعيف لا يعول عليه.

واستدل المعتزلة بقوله: ﴿طبتم فادخلوها﴾ حيث رتب فيه الأمر بالدخول على الطيب والطهارة من دنس المعاصي على أن أحداً لا يدخل الجنة إلا وهو طيب طاهر من المعاصي إما لأنه لم يفعل شيئاً منها أو لأنه تاب عما فعل توبة مقبولة في الدنيا. ورد بأنه وإن دل على أن أحداً لا يدخلها إلا وهو طيب لكن قد يحصل ذلك بالتوبة المقبولة وقد يكون بالعفو عنه أو الشفاعة له أو بعد تمحيصه بالعذاب فلا متمسك فيها للمعتزلة.

وقيل: المراد بالذين اتقوا المحترزون عن الشرك خاصة فطبتم على معنى طبتم عن دنس الشرك ولا خلاف في أن دخول الجنة مسبب عن الطيب والطهارة عنه. وتعقب بأن ذاك خلاف الظاهر لأن التقوى في العرف الغالب تقع على أخص من ذلك لا سيما في معرض الإطلاق والمدح بما عقبه من قوله تعالى: ﴿فنعم أجر العاملين﴾ فتدبر ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿قال﴾ أو على الجواب المقدر بعد ﴿خالدين﴾ أو على مقدر غيره أي فدخلوها وقالوا: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ بالبعث والثواب ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه فإن كانت

أرض الآخرة التي يمشي عليها تسمى أرضاً حقيقة فذاك وإلا فإطلاقهم الأرض على ذلك من باب الاستعارة تشبيهاً له بأرض الدنيا، والظاهر الأول، وحكي عن قتادة وابن زيد والسدي أن المراد أرض الدنيا وليس بشيء، وإيراثها تمليكها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه بناء على أنه لا ملك في الآخرة لغيره عزَّ وجلّ وإنما هو إباحة التصرف والتمكين مما هو ملكه جل شأنه، وقيل: ورثوها من أهل النار فإن لكل منهم مكاناً في الجنة كتب له بشرط الإيمان.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي يتبوأ كل منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة لا أن كلاً منهم يتبوأ في أي مكان من مطلق الجنة أو من جنات غيره المعينة لذلك الغير، فلا يقال: إنه يلزم جواز تبوء الجميع في مكان واحد وحدة حقيقة وهو محال أو أن يأخذ أحدهم جنة غيره وهو غير مراد، وقيل: الكلام على ظاهره ولكل منهم أن يتبوأ في أي مكان شاء من مطلق الجنة ومن جنات غيره إلا أنه لا يشاء غير مكانه لسلامة نفسه وعصمة الله تعالى له عن تلك المشيئة، وقال الإمام: قالت حكماء الإسلام: إن لكلٍّ جنتين جسمانية وروحانية ومقامات الثانية لا تمانع فيها فيجوز أن يكون في مقام واحد منها ما لا يتناهى من أربابها، وهذه الجملة حالية فالمعنى أورثنا مقامات الجنة حالة كوننا نسرح في منازل الأرواح كما نشاء.

وقد قال بعض متألهي الحكماء: الدار الضيقة تسع ألف ألف من الأرواح والصور المثالية التي هي أبدان المتجردين عن الأبدان العنصرية لعدم تمانعها كما قيل:

سم الخياط مع الأحباب ميدان

وفسر المقام الروحاني بما تدركه الروح من المعارف الإلهية وتشاهده من رضوان الله تعالى وعنايته القدسية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وتعقب بأن هذا إن عد من بطون القرآن العظيم فلا كلام وإلا فحمل الجنة على مثل ذلك مما لا تعرفه العرب ولا ينبغي أن يفسر به، على أنه ربما يقال: يرد عليه أنه يقتضي أن لكل أحد أن يصل إلى مقام روحاني من مقاماتها مع أن منها ما يخص الأنبياء المكرمين والملائكة المقربين، والظاهر أنه لا يصل إلى مقاماتهم كل أحد من العارفين فافهم ولا تغفل ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ من كلام الداخلين عند الأكثر والمخصوص بالمدح محذوف أي هذا الأجر أو الجنة، ولعل التعبير ـ بأجر العاملين ـ دون أجرنا للتعريض بأهل النار أنهم غير عاملين، وقال مقاتل: هو من كلام الله تعالى ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ أي محدقين من الحفاف بمعنى الجانب جمع حاف كما قال الأخفش، وقال الفراء: لا يفرد فقيل: أراد أن المفرد لا يكون حافاً إذ الإحداق والإحاطة لا يتصور بفرد وإنما يتحقق بالجمع، وقيل: أراد أنه لم يرد استعمال مفرده. وأورد على الأول أن الإحاطة بالشيء بمعنى محاذاة جميع جوانبه فتتصور في الواحد بدورانه حول الشيء فإنه حينئذ يحاذي جميع جوانبه تدريجاً فيكون الحفوف بمعنى الدوران حوله أو يراد بكونه حافاً أنه جزء من الحاف وله مدخل في الحفوف، ولو صح ما ذكر لم يصح أن يقال: طائف أو محدق أو محيط أو نحوه مما يدل على الإحاطة. وأورد على الثاني أنا لم نجد ورود جمع سالم لم يرد استعمال مفرده فبعد ورود حافين الظاهر ورود حاف كما لا يخفى، والخطاب لسيد المخاطبين ﷺ، وجوز أن يكون لكل من تصح منه الرؤية كأنه قيل: وترى أيها الرائي الملائكة حافين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي حول العرش على أن ﴿مِن﴾ مزيدة على رأي الأخفش وهو الأظهر، وقيل: هي للابتداء ـ فحول العرش ـ مبتدأ الحفوف وكأن الحفوف حينئذ للخلق، وفي بعض الآثار ما هو ناطق بذلك، وفيها ما يدل على أن العرش يوم فصل القضاء يكون في الأرض حيث يشاء الله تعالى والأرض يومئذ غير هذه الأرض،

على أن أحوال يوم القيامة وشؤون الله تعالى وراء عقولنا وسبحان من لا يعجزه شيء، والظاهر أن الرؤية بصرية ـ فحافين ـ حال أولى وقوله تعالى: ﴿**يسبحون بحمد ربهم**﴾ حال ثانية، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿**حافين**﴾ المستتر، وجوز كون الرؤية علمية ـ فحافين ـ مفعول ثاني وجملة ﴿**يسبحون**﴾ حال من ﴿**الملائكة**﴾ أو من ضميرهم في ﴿**حافين**﴾ والباء في ﴿**بحمده**﴾ للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده، وحاصله يذكرون الله تعالى بوصفي جلاله وإكرامه تبارك وتعالى، وهذا الذكر إما من باب التلذذ فإن ذكر المحبوب من أعظم لذائذ المحب كما قيل:

أجد الملامة في هواك لذيذة ... حباً لذكرك فليلمني اللوَّم

أو من باب الامتثال ويدعي أنهم مكلفون، ولا يسلم أنهم خارجون عن خطة التكليف أو يخرجون عنها يوم القيامة، نعم لا يرون ذلك كلفة وإن أمروا به. وفي حديث طويل جداً أخرجه عبد بن حميد وعلي بن سعيد في كتاب الطاعة والعصيان. وأبو يعلى وأبو الحسن القطان في المطولات. وأبو الشيخ في العظمة. والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة «فبينما نحن وقوف ـ أي في المحشر ـ إذ سمعنا حساً من السماء شديداً فينزل أهل سماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم ثم تنزل أهل السماء الثالثة بمثلي من نزل من الملائكة ومثلي من فيها من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف إلى السماوات السبع ثم ينزل الجبار في ظلل من الغمام والملائكة تحمل عرشه يومئذ ثمانية وهم اليوم أربعة أقدامهم على تخوم الأرض السفلى والأرضون والسماوات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل بالتسبيح فيقولون: سبحان ذي العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبحان ربنا الأعلى الذي يميت الخلائق ولا يموت فيضع عرشه حيث يشاء من الأرض ثم يهتف سبحانه بصوته فيقول عزَّ وجلّ: «يا معشر الجن والإنس إني قد أنصتُّ لكم منذ يوم خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأبصر أعمالكم فانصتوا إلي فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» الحديث.

﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَق**﴾ أي بين العباد كلهم بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار فإن القضاء المعروف يكون بينهم، ولوضوح ذلك لا يضر كون الضمير لغير الملائكة مع أن ضمير ﴿**يسبحون**﴾ لهم إذ التفكيك لا يمتنع مطلقاً كما توهم، وقيل: ضمير ﴿**بينهم**﴾ للملائكة واستظهره أبو حيان، وثوابهم وإن كانوا كلهم معصومين يكون على حسب تفاضل أعمالهم فيختلف تفاضل مراتبهم فإقامة كل في منزلته حسب عمله هو القضاء بينهم بالحق.

﴿**وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق، والقائل قيل: هم المؤمنون المقضي لهم لا ما يعمهم والمقضي عليهم، وحمدهم الأول على إنجاز وعده سبحانه وإيراثهم الأرض يتبوؤون من الجنة ما شاؤوا، وحمدهم هذا على القضاء بالحق بينهم فلا تكرار.

وقال الطيبي: إن الأول للتفصلة بين الفريقين بحسب الوعد والوعيد والسخط والرضوان، والثاني للتفرقة بينهما بحسب الأبدان ففريق في الجنة وفريق في السعير والأول أحسن، وقيل: هم الملائكة يحمدونه تعالى على قضائه سبحانه بينهم بالحق وإنزال كل منهم منزلته، وعليه ليس في الحمدين شائبة تكرار لتغاير الحامدين.

وقيل: ﴿**قيل**﴾ دون قالوا لتعينهم وتعظيمهم، وجوز كون القائل جميع العباد منعمهم ومعذبهم؛ وكأنه أريد أن

الحمد من عموم الخلق المقضي بينهم هنا إشارة إلى التمام وفصل الخصام كما يقوله المنصرفون من مجلس حكومة ونحوها، فيحمده المؤمنون لظهور حقهم وغيرهم لعدله واستراحتهم من انتظار الفصل، ففي بعض الآثار أنه يطول الوقوف في المحشر على العباد حتى إن أحدهم ليقول: رب أرحني ولو إلى النار، وقيل: إنهم يحمدونه إظهاراً للرضا والتسليم.

وقال ابن عطية: هذا الحمد ختم للأمر يقال عند انتهاء فصل القضاء أي إن هذا الحاكم العدل ينبغي أن يحمد عند نفوذ حكمه وإكمال قضائه، ومن هذه الآية جعلت ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ خاتمة المجالس في العلم، هذا والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على رسوله محمد خاتم النبيين وعلى آل وصحبه أجمعين.

«ومن باب الإشارة في بعض الآيات» ﴿**فاعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ أي اعبده تعالى بنفسك وقلبك وروحك مخلصاً، وإخلاص العبادة بالنفس التباعد عن الانتقاص، وإخلاص العبادة بالقلب العمى عن رؤية الأشخاص، وإخلاص العبادة بالروح نفي طلب الاختصاص. وذكر أن المخلص من خلص بالجود عن حبس الوجود ﴿**إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار**﴾ فيه إشارة إلى تهديد من يدعي رتبة من الولاية ليس بصادق فيها وعقوبته حرمان تلك الرتبة ﴿**يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل**﴾ فيه إشارة إلى أحوال السائرين إلى الله سبحانه من القبض والبسط والصحو والسكر والجمع والفرق والستر والتجلي وغير ذلك ﴿**في ظلمات ثلاث**﴾ قيل: يشير إلى ظلمة الإمكان وظلمة الهيولى وظلمة الصورة ﴿**أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً**﴾ يشير إلى القيام بآداب العبودية ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا تقصير ﴿**يحذر الآخرة**﴾ ونعيمها كما يحذر الدنيا وزينتها ﴿**ويرجو رحمة ربه**﴾ رضاه سبحانه عنه وقربه عزَّ وجلّ ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون**﴾ قدر معبودهم جل شأنه فيطلبونه ﴿**والذين لا يعلمون**﴾ ذلك فيطلبون ما سواه ﴿**إنما يتذكر**﴾ حقيقة الأمر ﴿**أولو الألباب**﴾ وهم الذين انسلخوا من جلد وجودهم وصفوا عن شوائب أنانيتهم ﴿**قل يا عبادي الذين آمنوا**﴾ بي شوقاً إلى ﴿**اتقوا ربكم**﴾ فلا تطلبوا غيره سبحانه ﴿**للذين أحسنوا**﴾ في طلب في هذه الدنيا بأن لم يطلبوا مني غيري ﴿**حسنة**﴾ عظيمة وهي حسنة وجداني ﴿**وأرض الله واسعة**﴾ وهي حضرة جلاله وجماله فإنها لا نهاية لها فليسر فيها ليرى ما يرى ولا يظن بما فتح عليه انتهاء السير وانقطاع الفيض ﴿**إنما يوفى الصابرون**﴾ على صدق الطلب ﴿**أجرهم**﴾ من التجليات بغير حساب إذ لا نهاية لتجلياته تعالى و ﴿كل يوم هو في شأن﴾ [ الرحمن: ٢٩ ] ﴿**قل إني أخاف إن عصيت ربي**﴾ بطلب ما سواه ﴿**عذاب يوم عظيم**﴾ وهو عذاب القطيعة والحرمان ﴿**قل الله أعبد مخلصاً له ديني**﴾ فلا أطلب دنيا ولا أخرى كما قيل:

وكل له سؤل ودين ومذهب ... ولي أنتم سؤل وديني هواكم

﴿**قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم**﴾ أي الذين تبين خسران أنفسهم بإفساد استعدادها للوصول والوصال ﴿**وأهليهم**﴾ من القلوب والأسرار والأرواح بالإعراض عن طلب المولى ﴿**يوم القيامة**﴾ الذي تتبين فيه الحقائق ﴿**ذلك هو الخسران المبين**﴾ الذي لا خفاء فيه لفوات رأس المال وعدم إمكان التلافي، وقال بعض الأجلة: إن للإنسان قوتين يستكمل بإحداهما علماً وبالأخرى عملاً، والآلة الواسطة في القسم الأول هي العلوم المسماة بالمقدمات وترتيبها على الوجه المؤدي إلى النتائج التي هي بمنزلة الربح يشبه تصرف التاجر في رأس المال بالبيع والشراء، والآلة في القسم العملي هو القوى البدنية وغيرها من الأسباب الخارجية المعينة عليها، واستعمال تلك القوى في وجوه أعمال البر التي هي بمنزلة الربح يشبه التجارة، فكل من أعطاه الله تعالى العقل والصحة والتمكين ثم إنه

لم يستفد منها معرفة الحق ولا عمل الخير فإذا مات ربحه وضاع رأس ماله ووقع في عذاب الجهل وألم البعد عن عالمه والقرب مما يضاده أبد الآباد، فلا خسران فوق هذا ولا حرمان أبين منه، وقد أشار سبحانه إلى هذا بقوله تعالى: ﴿**لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل**﴾ وهذا على الأول إشارة إلى إحاطة نار الحسرة بهم ﴿**لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار**﴾ قيل الغرف المبنية بعضها فوق بعض إشارة إلى العلوم المكتسبة المبنية على النظريات وأنها تكون في المتانة واليقين كالعلوم الغريزية البديهية ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء**﴾ من سماء حضرته سبحانه أو من سماء القلب ﴿**ماء**﴾ ماء المعارف والعلوم ﴿**فسلكه ينابيع**﴾ مدارك وقوى ﴿**في الأرض**﴾ أرض البشرية ﴿**ثم يخرج به زرعاً**﴾ من الأعمال البدنية والأقوال اللسانية ﴿**ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً**﴾ إشارة إلى أفعال المرائين وأقوالهم ترى مخضرة وفق الشرع ثم تصفر من آفة الرياء ثم تكون حطاماً لا حاصل لها إلا الحسرة ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام**﴾ للانقياد إليه سبحانه ﴿**فهو على نور من ربه**﴾ يستضيء به في طلبه سبحانه، ومن علامات هذا النور محو ظلمات الصفات الذميمة النفسانية والتحلية بالأخلاق الكريمة القدسية.

﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم**﴾ إذا قرعت صفات الجلال أبواب قلوبهم ﴿**ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾ بالشوق والطلب ﴿**ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون**﴾ يتجاذبونه وهم شغل الدنيا وشغل العيال وغير ذلك من الأشغال ﴿**ورجلاً سلما لرجل**﴾ إشارة إلى المؤمن الخالص الذي لم يشغله شيء عن مولاه عزَّ شأنه ﴿**فمن أظلم ممن كذب على الله**﴾ يشير إلى حال الكاذبين في دعوى الولاية ﴿**وكذب بالصدق إذ جاءه**﴾ يشير إلى حال أقوام نبذوا الشريعة وراء ظهورهم وقالوا: هي قشر والعياذ بالله تعالى ﴿**ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة**﴾ قيل: هو سواد قلوبهم ينعكس على وجوههم ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً**﴾ قيل المتقون قد عبدوا الله تعالى لله جل شأنه لا للجنة فتصير شدة استغراقهم في مشاهدة مطالع الجمال والجلال مانعة لهم عن الرغبة في الجنة فلا جرم يفتقرون إلى السوق، وقيل: كل خصلة ذميمة أو شريفة في الإنسان فإنها تجره من غير اختيار شاء أم أبى إلى ما يضاهي حاله فذاك معنى السوق في الفريقين، وقيل: القوم أهل وفاء فهم يقولون: لا ندخل الجنة حتى يدخلها أحبابنا فلذا يساقون إليها ولكن لا كسوق الكفرة ﴿**وترى الملائكة حافين من حول العرش**﴾ إشارة إلى أنه ﷺ في مقعد صدق عند مليك مقتدر بناء على أن العرش لا يتحول ﴿**يسبحون بحمد ربهم**﴾ إشارة إلى نعيمهم ﴿**وقضى بينهم بالحق**﴾ أعطى كل ما يستحقه ﴿**وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾ على انقضاء الأمر وفصل القضاء بالعدل الذي لا شبهة فيه ولا امتراء، هذا والحمد لله تعالى على أفضاله والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله.